فلسفة

Amery Jean

جان أَمَري

عِنْدَ حُدُودِ العَقْلِ

تأمّلات أحد الناجين حول أوشفيتز وحقائقه

ترجمة وتقديم
قحطان جاسم

Translated by
Kahttan Jasim



عِنْدَ حُدُودِ العَقْلِ

تأملات أحد
الناجين حول أوشفيتز وحقائقه



بغداد - العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 79 - 3

جان أمَري

عِندَ حُدُودِ العَقلِ

تأملات أحد الناجين حول أوشفيتز وحقائقه

ترجمة وتقديم

قحطان جاسم



www.daralrafidain.com

الفهرس

مقدمة المترجم

يعتبر جان أَمَري أحدَ الأصوات المهمة والصادقة التي عاشت محنة الهولوكست وبعض معسكرات الاعتقال النازية الأخرى ونجت منها. ولهذا تحمل كتاباته بصمة الألم الحيّة يرافقها سخط[1] وغضب عميق وراسخ عن تلك الفظائع التي ارتُكبت في تلك المعسكرات، وتحوّل فيها الإنسان إلى ما يشبه، على حد تعبيره، الحشرة. وهو يجد في عبارة «ما حدث قد حدث»، التي تُكَرَّر كثيرًا بتبرير أخلاقي على أسماع الضحايا، عبارة صحيحة «بقدر ما هي معادية تمامًا للأخلاق والعقل». فمن غير المنطقي، بالنسبة إليه، وبلا معنًى «المطالبة بالموضوعية في الجدل مع

(1) ترد هنا وفي مجمل الكتاب مفردات السخط، والتذمر، والاستياء أو الامتعاض حسب المعنى العام لسياق الجملة التي ترد فيها هذه المفردات، على رغم التقارب العام لمعانيها. وهي ترجمة لـ Resentment التي يستخدمها جان أمري في الكتاب بمعنًى أعمق وأوسع. وأرى أن الترجمة لا تلبي المعنى الذي يقصده أمري، لأن ما يحمله في نفسه من جروح عميقة يتجاوز مجرد الغضب أو الاستياء، مع ذلك أجد هذه الاستخدامات بمثابة محاولات ممكنة للاقتراب من المعنى العام. وقد انتبه الباحث توماس برودهولم لمعنى المفردة العميق، وأوضح كما يلي: «يبدو لي أن السخط (الاستياء) قريب من المشاعر الشرعية والأخلاقية ذات القمة الاجتماعية التي صِيغَت/ مفهوميًا على أنها سخط في الأعمال الفلسفية والأخلاقية». انظر:

Thomas Brudholm, Jean Amery and the Refusal to Forgive, Philadelphia: Temple University Press, 2008, p.12/

جَلّادي، ومع أولئك الذين ساعدوهم، ومع أولئك الذين وقفوا مجرد صامتين». فالصمت تجاه تلك أو هذه الفظائع التي ترتكب بحق الإنسان تجعل من غير من الممكن الثقة بما يُطرح من مفاهيم مرة باسم الأخلاق، ومرةً أخرى باسم الفكر، إذ «لا يكون المرء متفرجًا على أفعال الإنسان المجردة من إنسانيتها والآثام دون التشكيك في جميع مفاهيم الكرامة الإنسانية المتأصلة».

يناقش أمَري قضية التسامح والمصالحة، وطبيعة وأسباب السخط الذي يعتري الضحية الناجية من الموت تجاه الجلاد، وهو يتذكر فظائع النازيين في معسكرات الاعتقال. ولذا رفض الدعوات التي تطالب بالتسامح: «لا أريد أن أصبح شريكا لمن يعذبونني، بل أطلب منهم أن يستنكروا أنفسهم وينساقوا معي في هذا الاستنكار. لا يمكن إزالة أكوام الجثث بينهم وبيني خلال عملية تطبيع». بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك، ليطالب بأن يقف أولئك الذين ارتكبوا المجازر والفظائع ضد الإنسان أمام العدالة ويتلقوا جزاءهم العادل.

وهو لا يكتفي بوصف تجربته الخاصة، بل ينقل لنا معاينته لسلوكيات الموجودين معه في المعتقلات من ناس عاديين أو مثقفين ذوي اتجاهات فكرية مختلفة، على سبيل المثال الشيوعيين والمسيحيين المؤمنين، الذين أحلّوا رؤيتهم الإيديولوجية المتصلبة والحالمة بمستقبل طوباوي بدل حقائق المعتقلات لفهم ما يجري على أرض الواقع، وكيف أن تلك النوازع والميول الفكرية لأولئك المثقفين هي التي تحكمت بسلوكياتهم. فهو يصف واحدهم «أنه في نفس الوقت أبعد من الواقع وأقرب إليه من رفيقه المؤمن. أبعد عن الواقع لأنه يتجاهل الواقع السائد بسبب موقفه الأساسي النهائي، ويركز نظره على مستقبل أقرب أو أبعد، وأقرب إلى الواقع لأنه لنفس السبب

لا يسمح لنفسه بأن تطغى عليه الظروف المحيطة، وبالتالي يمكن أن يكون له تأثير كبير فيها». لكنه على الرغم من النقد الذي يوجهه إلى ذلك المثقف في المعتقل، فقد سعى مع ذلك إلى أن يكون منصفًا بفهم وضعه بشكل موضوعي: «فهذا الواقع المرير والمخيف والمملوء بالشر والظلم أوجب على العقل أن يستسلم دون قيد وشرط في مواجهة هذا الواقع». ويضيف أنه على الرغم من أنه لم يكن ملتزمًا بإيديولوجية سياسية محددة أو مدينًا لها، فإنه يحمل لهم احترامًا كبيرًا في نفسه لصمودهم وصبرهم ومواجهتهم ظروف المعتقل الفظيعة وما عُرّضوا له من إذلال وقمع وتعذيب.

يصف لنا جان أَمَري، بالإضافة الى ذلك، بعضًا من سلوكات اليهود الذين أطلق عليهم اسم «الكابو»،[1] والذين تحولوا إلى عملاء وخدم للجلادين والقتلة النازيين في معسكرات الاعتقال، وكيف أنهم كانوا يتلذذون بمعاناة إخوتهم اليهود. ولم ينجُ المثقفون، الذين حالفهم الحظ للهروب من دولة الرايخ الثالث وتجنبوا معايشة محرقة النازية وبقوا خارج إذلال معتقلاتها، من نقده اللاذع لهم، خصوصًا أولئك الذين التزموا الصمت.

والمثقف المعنيّ حسب تصور أَمَري «هو الشخص الذي يعيش ضمن إطار مرجعي روحي بالمعنى الواسع. إن مجال فكره هو مجال إنساني أساسي، وهو مجال الفنون الليبرالية. لديه وعي جمالي متطور. إنه يميل، من خلال ميله وقدرته، نحو مسارات فكرية مجردة».[2]

---

(1) هو سجين في معسكرات الاعتقال النازية يُكَلَّف من قبل الـ SS للإشراف على العمل الإجباري أو تنفيذ المهام الإدراية.
(2) معظم الاقتباسات الواردة لجان أَمَري هنا هي من الكتاب الحالي «عند حدود العقل»، وما عدا ذلك فسيُشار إلى مصدره.

لكن أَمَري لم يكتب عن عذاباته كيهودي متدين، أو يتخذ من الدين اليهودي والاضطهاد النازي لليهود للترويج لمفهوم الضحية واستعطاف القارئ لها، بل إنه فضح الفاشية التي استخدمت رؤيتها العنصرية تجاه المختلف دينيًّا وإثنيًّا وفكريًّا، ومنهم اليهود، لارتكاب أكبر المجازر في التاريخ الإنساني. أو كما يؤكد هو: «دخلت السجون ومعسكرات الاعتقال بصفتي ملحدًا، وفي 15 نيسان 1945 أطلق البريطانيون سراحي في بيرغن ـ بيلسن، وتركت الجحيم كملحد. لم أتمكن في أي وقت من اكتشاف إمكانية الإيمان في داخلي، ولا حتى عندما كنتُ مقيدًا في الحبس الانفرادي»، بل يذهب إلى أبعد من ذلك: «إذا كان كوني يهوديًّا يعني المشاركة في عقيدة دينية مع يهود آخرين، والمشاركة في الثقافة اليهودية والتقاليد الأسرية، وتربية نموذج قومي يهودي، فأنا أجد نفسي في وضع ميؤوس منه. أنا لا أومن بإله إسرائيل، وأعرف القليل عن الثقافة اليهودية».

لقد ترك الإذلال النفسي والروحي آثاره وندوبه العميقة والألم في نفس وجسد أَمَري، ويصف الكاتب الإيطالي بريمو ليڤي (1919 ـ 1987)، أحد الذين عاشوا محن تلك المعتقلات، ذلك الألم في كتابات أَمَري قائلًا: «يقرأ المرء جان أَمَري بألم جسدي تقريبًا». ولهذا يرى أَمَري أن قضية التسامح لا يمكن طرحها على من جُرد من إنسانيته وحُرم من حريته وأُهِينت كرامته وإنسانيته، حيث تُشعر الضربة الأولى السجينَ بفكرة أنه عاجز، (...) ويفقد الثقة بالعالم». فآثار هذه التجربة والمعاناة لا تختفي، فهو يتذكرها حتى بعد مرور أكثر من عشرين عامًا. فعلى رغم مرور الوقت، الذي يعتقد البعض أنه قادر على نَكْءِ الجرح ومحو الذكريات المريرة، يرى أنه «بعد اثنين وعشرين عامًا ما زلت

متدليًا على الأرض، لاهثًا ومتَّهِمًا نفسي، بذراعين مخلوعتين». وحتى إطلاق سراحه، فهو حرية مثلومة، وغير كاملة، وذلك ناتج عن أن الذي عاش التعذيب لن يشعر أبدًا بأنه في وطنه وفي هذا العالم، ولا يمكن محو الشعور بالعار بأنه حُطِّم».

يوجه أمَري إدانة صارخة للتعذيب وما يخلفه من تدمير شديد للإنسان يرافقه كل حياته. فالتعذيب لا يقتصر على المس بحدود الجسد، بل إنه أيضًا تَعَدٍّ وانتهاك لحدود الذات، «لأن سطح بشرتي يحميني من العالم الخارجي». ولا تتوقف هذه الإدانة على النازية وما مارسته في معسكرات الاعتقال، بل وأيضًا على كل من التزم الصمت: «من شعوب، وحكومات، وسلطات، وأسماء معروفة.. ربما يصرخ شخص ما تحت التعذيب في هذه الساعة، وفي هذه الثانية في مكان ما، لكن لا أحد يقول بصوت عالٍ».

أطلقت إيرينا هايدلبيرغر ليونارد، أستاذة الأدب الألماني في الجامعة الحرة في بروكسل، على جان أمَري، في كتابها الذي أصدرته عام 2010، اسم «فيلسوف أوشفيتز». والكتاب عرضٌ مفصّل يتناول بعمق كبير حياته وأعماله، وفيه ناقشت تصوراته الفكرية والفلسفية، ومن بينها مفهوم التسامح، والسخط، والغضب الذي يرافق لاحقًا الضحية، والهُوية الذاتية والكرامة الشخصية وقضية الوطن، والتي تضمنها، بشكل خاص، كتاب أمَري «عند حدود العقل».

صدرت الطبعة الأولى لكتاب «عند حدود العقل» باللغة الألمانية

Jenseits von Schuld und Sühne: Bewältigungsversuche eines Überwältigten, Munich: Szczesny, 1966.

وترجمته «أبعد من الذنب والكفارة: محاولة شخص للتغلب عليها».
أما ترجمته الإنكليزية فقد صدرت بعنوان:

At the Mind's Limits: Contemplations by a Survivor of Auschwitz and Its Realities. Trans. Sidney and Stella P. Rosenfeld. Bloomington: Indiana University Press, 1980.

ويُترجم: «عند حدود العقل ـ تأملات أحد الناجين حول أوشفيتز وحقائقه».

وصدر مترجمًا إلى النرويجية أيضًا

Ved Forstandens grenser – En overlevendes forsøk på å overkomme det umulige, oversatt av Lasse Tømte, Oslo: Document Forlag, n.d.

وترجمته: «عند حدود العقل ـ محاولة أحد الناجين للتغلب على المستحيل».

ناهيك بترجمات إلى لغات أخرى. وقد حصرت إشارتي بتلك النصوص المترجمة أعلاه فقط، لاعتمادي، من ناحية، على النص الإنكليزي بشكل أساسي لترجمتي الحالية، ومن الناحية الأخرى استفدت من الترجمة النرويجية في مراجعة النص أو مطابقته مع النص الألماني كلّما تطلب ذلك، لوجود بعض الفروق والهفوات في النص الإنكليزي. ثم إنني اخترت عنوان النص الإنكليزي عنوانًا للكتاب الحالي، وهو في الحقيقة عنوان الفصل الأول في الكتاب في طبعته الألمانية.

تعريف موجز بحياته:[1]

ولد جان أَمَري في النمسا من أم مسيحية كاثولوكية وأب يهودي في 31 أكتوبر عام 1912، وكان اسمه هانس ماير. وقد تحول أصله اليهودي بإعلان قانون نورمبرغ عام 1933، الذي يشير إليه مراتٍ في كتابه «عند حدود العقل»، إلى كارثة سياسيًّا ووجوديًّا.

وبصعود النازية إلى السلطة وإعلانها الحرب على اليهود في ألمانيا ذاتها تمكّن من الهرب مع زوجته عام 1938، حيث وَصَلَا إلى أنتويرب في بلجيكا التي كانت آنذاك تلتزم الحياد. وقد وصف تلك الذكريات المريرة في كتابه أيضًا.

احتلّ جيش الرايخ الثالث عام 1940 بلجيكا، وفي نفس الشهر رُحِّلَ باعتباره «عدوًّا أجنبيًّا» إلى معسكر اعتقال Saint ـ Cyprien، وقد حاول الهروب بالقفز من القطار المسرع، لكن المحاولة فشلت، فقد أُلقِيَ القبض عليه مجددًا وسِيق إلى «Gurs»، وهو معسكر كبير في جنوب فرنسا قرب الحدود الإسبانية. وفي عام 1941 نجح في الهروب من المعتقل وعاد إلى زوجته التي كانت مختبئة في بروكسل. انضم في بروكسل إلى منظمة تتحدث الألمانية وتنتمي إلى حركة المقاومة البلجيكية. أُلقِيَ القبض عليه

---

(1) اعتمدت في كتابة هذا الموجز على كتاب:

Thomas Brudholm, Resntment's Virtue _ Jean Amery and the Refusal to forgive, Philadelphia, Temple University Press, 2008

كما استفدت أيضًا من كتاب: Irene Heidelberger _ Leonard, The Philosopher of Auschwitz _ Jean Amery and Living with the Holocaust, London and New York, I. B.Tauris, 2010

عام 1943 من قبل الغستابو بسبب ذلك الانتماء، وقد عُرض لتعذيب شديد على أمل انتزاع اعترافات منه عن نشاط حركة المقاومة وأعضائها، دون الحصول على أية معلومة على رغم بشاعة ما عُرض له من تعذيب. وقد أُرسِلَ بعد ذلك إلى العديد من معسكرات الاعتقال، من بينها معسكر أوشفيتز الشهير، الذي وصل إليه في 17 كانون الثاني 1944 مع 644 شخصًا قُتل 417 منهم عند وصولهم على الفور. وقد تضمن كتابه «حول سيكولوجيا الشعب الألماني» حادثة من مشهد الوصول إلى أوشفيتز.

في عام 1945 حررت القوات البريطانية معكسر بيرغن ـ بيلسن وهو آخر معسكرات الاعتقال التي رُحِّلَ إليها قبل تحريره. عاد أَمَري مع 614 ناجين من محرقة الموت النازية التي راح ضحيتها الآلاف من الأبرياء. وعندما عاد إلى بروكسل علم أن زوجته قد ماتت. فيكتب عن ذلك بمرارة: «الشخص الوحيد الذي تمسّكتُ من أجله بالحياة لمدة عامين».

استقر في بروكسل وفي عام 1955 بدأ بنشر تحت اسم جان أَمَري. كتب العديد من الروايات والبحوث الفلسفية، والعديد من المقالات التي تتحدث عن سيرته الذاتية إلى الصحف والمجلات الأوربية، إضافة إلى ذلك سافر إلى العديد من الدول الأوربية لإلقاء المحاضرات وإجراء اللقاءات، وحصل على العديد من الجوائز الأدبية المهمة.

شرع أَمَري بعد عقدين من الصمت بالكتابة عن أوشفيتز وعن التعذيب وعن المصير والإذلال الذي يواجهه الإنسان في المعتقلات النازية والمنفى حتى نهاية محاكمة أوشفيتز في فرانكفورت عام 1963 ـ 65. وسعى إلى أن يصوغ بشكل فكري «تجاربَ وعواطفَ الضحية» وتقديم صورة واضحة ودقيقة لوضع المحرقة النازية ومعتقلاتها باعتبارها «قتلًا جماعيًا في

سياقها المنفرد والخاص بها». أو كما يقول: الكتابة عن «الزمن الذي كان من المستحيل نسيانه». في تلك المقالات وغيرها يستخدم أَمَري تجربته الحياتية الخاصة كثيمة للتجريب الأدبي والإضاءة الفلسفية. وما يسم نصوصه ويفسر قوتها وجاذبيتها، كما يكتب الباحث توماس هارولدهولم: «ليس الطبيعة الجادة والاستقصائية لموضوعاته وفكره فحسب، بل وأيضًا المزيج الأصيل بين الملموس والفلسفي، والمشترك مع الشخصي».[1]

تنبع أهمية هذا الكتاب مما يتضمنه من موضوعات تدافع عن الإنسان وحريته وتدين القمع والتعذيب وكل ما يذل الإنسان في حياته اليومية بسبب الاختلاف الإثني أو القومي أو الديني. إضافة إلى أنه يلقي ضوءًا جديدًا على الموقف من الجلادين، وفيما إذا كان بالإمكان طرح سؤال التسامح تجاههم والمصالحة معهم والعفو عنهم، وكيف سترى الضحية ذلك على ضوء التجربة المريرة والمؤلمة التي عُرضت لها ومسخت شخصيتها!

آمل أن تشكل هذه الترجمة إضافة جديدة إلى المكتبة الثقافية والأدبية العربية التي ترى في الإنسان أثمن رأسمال في الوجود، وتفتح بابًا جديدًا للنقاش حول مفهوم التسامح ومسألة المصالحة!

قحطان جاسم

---

(1) انظر:

Thomas Brudholm, op. cit., p. 69.

مقدمة المؤلف للطبعة الأولى 1966

بعد صمت ثلاثة وعشرين عامًا، كتبت أولى المقالات عن تجاربي في الرايخ الثالث، عندما بدأت محاكمة أوشفيتز الكبرى في فرانكفورت في 1964. في البداية لم أفكر في الاستمرار، أردت أن أكون واضحًا حول مسألة خاصة فحسب: وضع المثقفين في معكسر الاعتقال. لكن عندما اكتملت هذه المقالة، شعرت أنه كان من المستحيل أن أتركها على ذلك النحو. فكيف قد نسيت أمر أوشفيتز؟ ماذا حدث بعد ذلك؟ ماذا كان سيحدث بعد ذلك؟ وما وضعي اليوم؟

لا يمكنني القول إنني نسيت أو «كَبَتُّ» خلال الوقت الذي كنتُ فيه صامتًا اثني عشر عامًا من المصير الألماني، أو مصيري. كنت أبحث لعقود من الزمن عن الوقت الذي كان من المستحيل فقدانه، لكن كان من الصعب بالنسبة إليّ التحدث عنه. لكن بمجرد أن ظهرت بعد ذلك فترة قاتمة، كأنها قد كسرت بكتابة مقال عن أوشفيتز، اقتضى كل شيء فجأة الحديث. هكذا وُلد هذا الكتاب. اكتشفت في أثناء الكتابة أنه على الرغم من أنني كنت أملك الكثير من الأفكار، فقد عُبّر عن القليل جدًّا منها. عندما دوّنتها فقط، اكتشفت أن ما كان لدي حتى ذلك الحين لم يكن سوى فكرة غامضة في اجترار فكري نصف واعٍ توقف عند عتبة التعبير اللفظي.

سَرعان ما فرض أسلوبٌ نفسَه. فإذا كنت أعتقد في السطور الأولى من مقالة أوشفيتز أنه كان بإمكاني أن أبقى حَذِرًا وبعيدًا وأواجه القارئ بموضوعيّة لبقة، فإنني أرى الآن أن هذا كان ببساطة مستحيلًا. حيثما كان ينبغي تجنب كلمة «أنا» تمامًا، فقد برهنت على أن تكون نقطة البداية الناقعة الوحيدة. كنت قد خططت لمقالة تأملية وبحثية. لكن ما نتج عن ذلك اعترافٌ شخصي، تقطعه التأملات. لقد أدركتُ أيضًا بسرعة كبيرة جدًّا كيف سيكون بلا معنًى إضافة عنصر آخر إلى العديد من الأعمال الوثائقية، الممتازة جزئيًّا، الموجودة مسبقًا حول ثيمتي العامة. معترِفًا ومتأمّلًا توصلتُ إلى بحث، أو، إذا صح التعبير، وصفٍ فنومنولوجي لوجود الضحية.

تلمست طريقي ببطء وصعوبة إلى الأمام فيما كان مألوفًا حتى الغثيان، لكنني بقيت مع ذلك غريبًا. ولهذا السبب لم تُرَتَّب المقالات في هذا الكتاب حسب تسلسل الحوادث، بل في تسلسل وقت كتابتها. إلى الحد الذي يغامر فيه القارئ لينضم، على رغم كل شيء، إليّ، فلن يكون لديه خيار سوى مرافقتي بنفس الوتيرة، خلال الظلام الذي أضأته خطوةً فخطوة. سيواجه في هذه العملية، سيواجه تناقضاتٍ انخرطت نفسي بها. في المقالة حول التعذيب، على سبيل المثال، كان ما يزال غير واضح تمامًا بالنسبة إليّ ما هو المغزى الذي يجب أن ينسب إلى مفهوم الكرامة، ورفضتها بمسحة يد إن صحّ التعبير.

بينما لاحقًا، في المقالة حول يهوديتي فقط، اعتقدتُ أن إدراك الكرامة هي الحق في العيش بالأمان والضمان اللذين يمنحهما المجتمع. بنفس الوقت، بينما كنتُ أكتب حول أوشيفتز والتعذيب، كنت ما زلت لم

أرَ بوضوح كافٍ إن كان وضعي لم يُعَبَّر عنه بالكامل من خلال مفهوم «الضحية النازية». وعندما وصلت النهاية فقط وتأملت ضرورة واستحالة أن أكون يهوديًّا، اكتشفتُ نفسي في صورة الضحية *اليهودية*.

في هذه الصفحات، التي ربما ستكون قاصرة، لكن التي أستطيع تأكيد صدقها، سيُقال الكثير عن الذنب وأيضًا عن الكفارة. لأنني أرغب في أن أدخر مشاعر الآخرين بقدر مشاعري. ما أزال أعتقد أن نتائج هذه الدراسة تقع أبعد من مسألة الذنب والكفارة. لقد وصفتُ حالة شخصٍ قُهِر وتُغُلِّب عليه، ذلك كل ما في الأمر.

أنا لا أقدم نفسي في هذا الكتاب إلى رفاقي في المصير. فهم يعرفون عما يدور كل هذا الأمر. ينبغي أن يحمل كل واحد منهم عبء تجربته معه بطريقته الخاصة. ولكن إلى الألمان، الذين لا يعرفون بغالبيتهم، أو عادوا لا يشعرون بالتأثر بالظلم، وبنفس الوقت، بالأعمال المميزة للرايخ الثالث، أود أن أحكي بعض الأشياء هنا، التي ربما لم يُكشَف عنها لهم حتى الآن. أخيرًا، آمل أن هذه الدراسة قد حققت أهدافها، وبالتالي أنها تُهم كل أولئك الذين يرغبون في العيش كبشرٍ أخوة.

عند حدود العقل

كن حذرًا! نصحني صديق حسن النية عندما سمع عن خطتي للتحدث حول المثقف في أوشفيتز. لقد أوصى بشدة أن أتعامل بأقل قدر ممكن مع أوشفيتز وأكبر قدر ممكن مع القضايا الفكرية. وقال كذلك إن عليّ أن أكون متحفظًا أيضًا، إذا كان ذلك ممكنًا، لتجنب إدراج أوشفيتز في العنوان. شعر أن الجمهور لديه حساسية من هذا المصطلح الجغرافي والتاريخي والسياسي. كان هناك، بأي حال من الأحوال، ما يكفي من الكتب والوثائق من كل نوع حول أوشفيتز مسبقًا، والإبلاغ عن «الفظائع» لن يروي أي شيء جديد. لستُ متأكدًا أن صديقي على حق، ولهذا السبب سأكون بالكاد قادرًا على اتباع نصيحته. ليس لدي شعور بأنه قد كُتب عن أوشفيتز بقدر ما كُتب، دعنا نقول، عن الموسيقى الإلكترونية أو مجلس النواب في بون. ما زلت أيضًا أتساءل عمّا إذا كان لا يكون من الجيد إدخال بعض كتب أوشفيتز في الصفوف العليا في المدارس الثانوية كقراءة إجبارية، وبشكل عام فيما إذا كان يجب عدم تجاهل القليل من التفاصيل الدقيقة إنْ كان المرء يريد متابعة تاريخ الأفكار السياسية. صحيح أنني هنا لا أريد التحدث بشكل خالص عن أوشفيتز، وأن أقدم تقريرًا وثائقيًا، لكنني قررت أن أتحدث عن مواجهة الفكر وأوشفيتز والفكر. ومع ذلك، لا يمكنني، في هذا السياق، تجاوز

ما يسميه المرء الرعب، تلك الحوادث التي تكون القلوب أمامها قويةً ولكن الأعصاب ضعيفة، كما قال بريخت ذات مرة. موضوعي هو: عند حدود العقل. أن تصادف سير هذه الحدود جنبًا إلى جنب الرعب الذي لا يحظى بشعبية ليس خطئي.

لكن إذا كنت أريد التحدث عن أوشفيتز، أو كما يمكن للمرء أن يقول سابقًا عن الإنسان المُثقف[1] في أوشفيتز، سيتعين عليّ أولاً تحديد موضوعي، ذلك المثقف نفسه. مَن هو، بمعنى الكلمة الذي تبنيتهُ، المثقف أو المتعلم؟ بالتأكيد، ليس هو كل مُمارسٍ لما يُسمى مهنةً عليا، إذ ربما يكون التدريب الرسمي المتقدم شرطًا ضروريًا، لكنه بالتأكيد ليس كافيًا في حد ذاته. كلّ منا يعرف محامين ومهندسين وأطباء وربما حتى باحثين قد يكونون أذكياء وربما حتى بارزين في مجالاتهم، لكن مع ذلك، بالكاد يمكن للمرء أن يصفهم كمثقفين. المثقف كما أود تعريفه هنا، هو الشخص الذي يعيش ضمن إطار مرجعي روحي بالمعنى الواسع. إن مجال فكره هو مجال إنساني أساسي، وهو مجال الفنون الليبرالية. لديه وعي جمالي متطور. إنه يميل، من خلال ميله وقدرته، نحو مسارات فكرية مجردة. تسلسل الأفكار في مجال التاريخ الفكري يحدث له في كل مناسبة. إذا سأله أحدهم، على سبيل المثال، من هو الاسم الشهير الذي يبدأ بالمقاطع «Lilien» ـ ليليان ـ فإنه لا يفكر في مصمم الطائرات «أوتو فون ليلياتثال»[2] Otto von Lilienthal، ولكن بالشاعر «Detlev von Liliencron» ـ

(1) ترجمة لـ cultivated، ويمكن أن تترجم أيضًا إلى متحضر، متعلم، متربٍّ، مهذب.

(2) Otto von Lilienthal (1848 ـ 1896) كان خبيرًا ألمانيًا في مجال الطيران، ويُنسب إليه الفضل في كونه أول شخص في التاريخ قام برحلات شراعية متعددة ناجحة.

ديتليف فون ليليانكرون[1] ـ ، وعند تعريفه بكلمة لمّاحة كالـ«مجتمع» فإنه لا يأخذها بمعناها العادي، بل بالأحرى بمعناها الاجتماعي. لا تهمه العملية الفيزيائية التي تؤدي إلى حدوث تماس كهربائي، لكنه على دراية جيدة بنايدهارت فون ريونثال «Neidhart von Reuenthal»[2] ـ شاعر القرية الغنائي اللطيف.

إذن، سنتناول مثل هذا المثقف، شخص يستطيع تلاوة شعر عظيم من خلال مقاطع شعرية، يعرف اللوحات الشهيرة من عصر النهضة وتلك الخاصة بالسريالية أيضًا، مُلِم بتاريخ الفلسفة والموسيقى، وأضعه في موقف متاخم، حيث يتعين عليه تأكيد حقيقة وفعالية عقله، أو إعلان عجزه: في أوشفيتز.

وبالتالي يمكنني تقديم نفسي. بصفتي يهوديًا وعضوًا في حركة المقاومة البلجيكية، أمضيتُ ـ بالإضافة إلى معسكرات الاعتقال في بوخنفالد وبيرغن ـ بيلسن، ومعسكرات اعتقال أخرى ـ عامًا في أوشفيتز أيضًا، وبتحديد أكبر في معكسر أوشفيتز ـ مونوفيتز المجاور. لذلك السبب، يجب أن تظهر كلمة «أنا» الصغيرة هنا أكثر مما أحب غالبًا، أي في أي مكان لا أستطيع تأكيد أن الآخرين قد اشتركوا في تجربتي الشخصية.

أول شيء يجب أن نكوّن صورة عنه هو الوضع الخارجي للمثقف، وضع اشترك به، علاوة على ذلك، مع كل شخص آخر، بما في ذلك غير

---

(1) Detlev von Liliencron (1844 ـ 1909) شاعر وروائي ألماني ولد في كييل، ألمانيا.

(2) Neidhart von Reuenthal (1190 ـ 1240) أحد أشهر مؤلفي أغاني ما يسمى مينيسنجر. يمتلك نيدهارت أكبر مجموعة من كلمات الأغاني، وقد بقيت حوالي 1500 مقطوعة موسيقية موثقة لأغانيه، مما يشير إلى الشعبية الكبيرة للأغاني. لا توجد وثائق مؤكدة عن مكان ولادته، لكن انتشار أغانيه انحصر بشكل كبير في بافاريا والنمسا.

المثقفين فيما يسمى المهن العالية. لم يكن وضعًا جيدًا، وقد برهن على نفسه بشكل أكثر دراماتيكية في مسألة مهمة العمل، التي حددت قضية الحياة والموت. عُيّن الحِرَفيون في أوشيفتز ـ مونوفيتز في الغالب وفقًا لمهنهم، ما دام ـ لسبب ما لن أتطرق إليه هنا ـ لم يُطلَق الغاز عليهم في الحال. كان الميكانيكي، على سبيل المثال، رجلًا ذا امتياز، حيث يمكن استخدامه في معمل (IG ـ Farben) المُوَجَّه ولديه فرصة للعمل في متجر مغطًى لا يُعرض للمبادئ. وينطبق نفس الشيء على الكهربائي، أو السباك، أو صانع الخزائن، أو النجار. ربما كان الخياط أو صانع الأحذية محظوظًا بشكل جيد للنزول في مكان كان يُعمل فيه لقوات الأمن الخاصة (SS). بالنسبة إلى البنّاء والطباخ وتقني الراديو وميكانيكي السيارات، كانت هناك فرصة ضئيلة لوجود مكان عمل يمكن تحمله وبالتالي البقاء على قيد الحياة.

كان الوضع مختلفًا بالنسبة إلى السجين الذي كانت لديه مهنة أعلى. كان هناك بانتظاره مصير رجل الأعمال الذي ينتمي أيضًا إلى «البروليتاريا الرثّة» في المعسكر، أي إنه كُلّف لمفرزة عمالية، حيث حفر أحدهم الأوساخ، ووضع الكابلات، ونقل أكياس الإسمنت أو العوارض الحديدية. فقد أصبح في المعسكر عاملًا غير ماهر، وكان ينبغي له القيام بعمله في العراء، مما يعني في معظم الحالات أن العقوبة قد صدرت بالفعل عليه.

كانت هناك، بالتأكيد، اختلافات أيضًا. ففي المعكسر الذي اختيرَ هنا كمثال، وُظّف الكيمائيون في مهنتهم، كما فعلوا مع زميلي في معكسر أوشفيتز ليفي بريمو من تورين الذي كتب كتابًا عن أوشفيتز «إذا كان هذا إنسانًا». كانت هناك إمكانية بالنسبة إلى الأطبّاء للعثور على ملجأ في ما

يسمى الأكواخ المريضة، على الرغم من أنها لا تتوفر للجميع طبعًا. على سبيل المثال، كان الطبيب النفسي،[1] الدكتور فيكتور فرانكل، وهو عالم نفس مشهور عالميًّا، حفارًا لسنوات طويلة في أوشفيتز ـ مونوفيتز. يمكن القول بشكل عام إن ممثّلي المهن في المعسكر كانوا في وضع سيئ. لهذا سعى العديد إلى إخفاء مهنتهم. كل من يمتلك ولو القليل من المهارة اليدوية وربما كان قادرًا على العمل بأدوات بسيطة أعلن عن نفسه بجرأة كحرفي. من المؤكد أن ذلك كان يعني أن من الممكن أنه يخاطر بحياته، أي إذا تبين أنه كذب. جرّب الأغلبية، على أي حال، حظّهم في التقليل من شأنهم. عندما سُئل الأستاذ الجامعي أو مدرّس الثانوية عن مهنته، فإنه يجيب بخجل «معلم»، لكي لا يثير رجل القوات الخاصة SS أو الكابو.[2]

حوّل المحامي نفسه إلى محاسب عادي، ربما قد قدم المحامي نفسه ككاتب طابعة، وفي هذه الحالة كان هناك خطر ضئيل من أنه سيتعين عليه تقديم دليل على قدرته في هذه الحرفة. وعلى هذا النحو، جرّ أساتذة الجامعات والمحامون وأمناء المكتبات والاقتصاديون والرياضيون القضبان والأنابيب وعوارض البناء. لقد جلبوا معهم في الغالب لهذه المهام القليل من المهارة وقوة جسدية هزيلة، وفي حالات نادرة فقط استغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن يُستَبعَدوا من مجال العمل، وانتهى بهمُ الأمرُ في المعكسر الرئيسي، حيث توجد غرف الغاز ومحارق الجثث.

---

(1) هو فيكتور إميل فرانكل (1905ـ 1997) طبيب أعصاب نمساوي وفيلسوف ومؤلف وأحد الناجين من الهولوكوست.

(2) الكابو هو بالألمانية (Funktionshäftling) ويعني عاملاً سجينًا. وقد كان سجينًا في المعكسر النازي كلّفه حرس القوات الخاصة النازية ss بالإشراف على العمل الإجباري للمساجين أو القيام بمهام إدارية، ويطلق عليه أيضًا «الإدارة الذاتية للسجناء».

إذا كان وضعهم في موقع العمل صعبًا، فلم يكن الوضع أفضل داخل المعسكر. تتطلب الحياة في المعكسر قبل كل شيء خفّة جسدية وشجاعة بدنية تحدّ بالضرورة من الوحشية. ونادرًا ما تنعّم المثقفون بكلتيهما، ولم تكن الشجاعة الأخلاقية التي حاولوا استخدامها في كثير من الأحيان بدلًا من الشجاعة البدنية تساوي شيئًا. تصوّر للحظة أنه كان علينا منع نَشّال محترف من وارشو من سرقة أربطة أحذيتنا. وكلّما سمحت الظروف، كانت الصفعة تساعد، بالتأكيد، ولكن ليس بأي حال من الأحوال تلك الشجاعة الفكرية التي من خلالها قد يعرّض صحفي سياسي مهنته للخطر بنشر مقال غير مُرضٍ. لا داعي إلى القول إنه نادرًا جدًّا ما يعرف المحامي أو مدرس الثانوية كيفية توجيه صفعة بشكل صحيح، وبالأحرى كان هو المتلقي في كثير من الأحيان، وفي تلقيها يكون بالكاد أقدرَ من توجيهها. وكانت الأمور أيضًا سيئة في قضايا الانضباط في المعكسر. أولئك الذين مارسوا في الخارج مهنًا أعلى يمتلكون عمومًا موهبة قليلة في توظيب الفراش. أتذكر رفاقًا متعلمين ومثقفين، وهم يقطرون عرقًا، يصارعون كل صباح مع فراشهم المصنوع من القش، والبطانيات، إلا أنهم لم يحققوا أيّ نتائج مناسبة، لذلك أُصيبوا في وقت لاحق، في موقع العمل، بالخوف ـ الذي تحول إلى هوس ـ من أنهم سيعاقبون عند عودتهم بالضرب أو حرمانهم من الطعام. لم يكونوا على استعداد لتوظيب الفراش أو لاستجابة سريعة لأمر «إنهاء» شيء ما. وعندما تحل الفرصة، يكونون عاجزين تمامًا عن العثور على ذلك النمط من الكلام في مواجهة معتقل جناح الكبار أو رجل القوات الخاصة (SS) الذي كان مطيعًا ومع ذلك واثقًا من نفسه، والذي يمكن من خلاله تجنب الخطر المهدد. لذلك لم يحظوا، في

معسكر الاعتقال، باحترامٍ كبير حتى من قبل السجناء والرفاق ذوي مرتبة أعلى، وكانوا في موقع العمل من قبل العمال المدنيين والكابو.

والأسوأ من ذلك: إنهم لم يجدوا حتى أصدقاء. لأنه كان مستحيلًا عليهم في أغلب الحالات إتقان لغة المعسكر فعليًا، والتي كانت الشكل الوحيد المقبول لتبادل الآراء بطريقة طبيعية. غالبًا وكثيرًا ما يُتَحَدَّث في الجدل الفكري عن مشكلة تواصل الإنسان الحديث، ويقال الكثير من الهراء الذي توجّب أن لا يقال. حسنًا، كانت هناك في الحقيقة مشكلة في التواصل بين المثقف وأغلبية رفاقه في المعسكر. وقد قدم نفسه في كل ساعة بطريقة حقيقية ومؤلمة. كان من الممكن بالنسبة إلى السجين الذي اعتاد طريقة تعبير مختلفة إلى حد ما، ببذل جهد كبير فقط، التغلب على نفوره ليقول «ابتعد» أو ليخاطب زميلًا سجينًا بشكل حصري بـ «هلو، أنتَ». أتذكر بشكل جيد فحسب التقزز الجسدي الذي كان يراودني بانتظام عندما لا يجد رفيق ملائم واجتماعي تمامًا نوعًا آخرَ من الخطاب الموجّه لي غير «زميلي العزيز». عانى المثقف من مثل هذه التعابير «الطباخ» و«المُنظم» (الذي يحدد الاستيلاء غير القانوني على شيء ما). نعم، حتى هذه العبارات الثابتة مثل «أن تذهب في الترحيل» لم تُنطَق إلا بصعوبة وتردد.

لكنني الآن وصلت إلى القضايا النفسية والوجودية الأساسية لحياة المعسكر وإلى حالة المثقفين بالمعنى الضيق المبيّن في البداية. باختصار، السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل ساعدت الخلفية الفكرية والسجية الفكرية الأساسية سجينَ المعكسر في اللحظات الحاسمة؟ هل جعلتا البقاء على الحياة أسهل له؟ عندما طرحت هذا السؤال على نفسي لم أفكر

أولًا في وجودي اليومي في أوشفيتز، ولكن في الكتاب الرائع لصديق ورفيق في المصير، الكاتب الهولندي نيكو روست.[1] اسم الكتاب «غوته في داخاو».[2] تناولته مرة أخرى بعد سنوات عديدة وقرأتُ جُملاً فيه بدت لي مثل الحلم تمامًا. على سبيل المثال: «هذا الصباح أردت مراجعة ملاحظاتي عن *هايبريون Hyperion*»، أو: «أقرأ مرة أخرى عن موسى بن ميمون، وعن تأثيره في ألبرتوس ماغنوس، وتوما الأكويني، ودانز سكوت»، أو: «اليوم أثناء التحذير من الغارة الجوية، حاولت التفكير في هيردر...». وبعد ذلك، كان الأمر مفاجئًا تمامًا بالنسبة إليّ: «نقرأ المزيد، وما زلنا ندرس أكثر، وبكثافة أكبر. في كل لحظة حرّة! الأدب الكلاسيكي بدلًا من رُزم الصليب الأحمر». عندما فكرتُ في هذه الجمل وقابلتها بذكريات المعسكر الخاصة بي، شعرت بالخجل الشديد، لأنه ليس لدي ما أقارن به تأثير نيكو روست الفكري الجذري المثير للإعجاب. لا، بالتأكيد، لم أكن لأقرأ شيئًا عن موسى بن ميمون، حتى لو صادفت كتابًا عنه ـ لكن هذا كان صعبًا تخيله في أوشفيتز. وبالتأكيد، لم أبذل أي جهد للتفكير في هيردر أثناء صفارة إنذار عن غارة جوية. والمطالبة بتبادل زوادة طعام مقابل أدب كلاسيكي لو سنحت الفرصة، كنت سأرفضه بالأحرى بيأس بدلًا من السخرية. وكما قلت، شعرتُ بالخجل الشديد عندما قرأتُ

(1) Nico Rost هو صحفي ومترجم وكاتب ورجل مقاومة ألماني، عاش في الفترة (1896 ـ 1967).

(2) Goethe in Dachau هو عمل وثائقي عن الذين بقوا أحياءً. وقد قضى نيكو روست ما يقارب عام في معكسر داخاو حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وقرر توثيق تأملاته اليومية حول الأدب والمناقشات التي أجراها مع مثقفين آخرين. وقد منحه هذا العمل قوة للنسيان، ولو لفترة، البؤس الذي عاشه هناك.

كتاب رفيقي من داخاو، حتى نجحتُ أخيرًا في تبرئة نفسي إلى حد ما. عند القيام بذلك، ربما لم أفكر كثيرًا في أن نيكو روست كان يعمل في منصب متميز نسبيًّا في ثكنات مَرضى (بينما كنت أنتمي إلى كتلة مجهولة من السجناء) بقدر ما فعلت تجاه الحقيقة الحاسمة أن الهولندي كان في داخاو، وليس في أوشيفتز. في الواقع، ليس من السهل العثور على قاسم مشترك لهذه المعسكرات.

كان داخاو أحد أوائل معسكرات الاعتقال القومية الاشتراكية، وبالتالي كان يمتلك، إذا صح التعبير، تقاليدَ. أُنشِئ أوشفيتز عام 1940 فقط، وكان عرضة للارتجال من يوم لآخر. بينما ساد العنصر السياسي في داخاو بين النزلاء، كانت الغالبية العظمى من السجناء في أوشفيتز تتكون من يهود غير سياسيين تمامًا وبولنديين غير متسقين للغاية سياسيًّا. تقع الإدارة الداخلية في داخاو في الغالب في أيدي السجناء السياسيين، أما في أوشفيتز فقد حدد المجرمون المحترمون الألمانَ الأسلوب. كانت توجد في المخيّم في داخاو مكتبة خاصة. كان الكتاب بالنسبة إلى نزيل أوشفيتز شيئًا يصعب تخيله. كان لدى السجناء في داخاو ـ وكذلك في بوختفالد ـ من حيث المبدأ إمكانية معارضة دولة الأمن الخاصة، الـ SS، وبُنية الـ SS، ببُنية فكرية. ذلك منح العقل هناك *وظيفة اجتماعية*، حتى لو تجلّى ذلك بشكل أساسي بطرق سياسية أو دينية أو إيديولوجية، وفي نفس الوقت، في حالات نادرة فقط، كما في حالة نيكو روست، بأسلوب فلسفي وجمالي. ومع ذلك، كان الشخص المثقف معزولًا في أوشفيتز، وتُرك بالكامل إلى نفسه. وهكذا ظهرت مشكلة مواجهة العقل والرعب في أكثر الأشكال راديكالية، وإذا سمح التعبير هنا، في أنقى شكل. في أوشفيتز، لم يكن العقل أكثر

من نفسه ولم تكن هناك فرصة لتطبيقه على بنية اجتماعية، بغض النظر عن قصورها، وبغض النظر عن مدى إخفائها. وهكذا كان المثقف وحيدًا مع عقله الذي لم يكن إلا المحتوى الصافي للوعي ولم يكن هناك واقعٌ اجتماعي يدعمه ويؤكده. الأمثلة التي تتبادر إلى الذهن في هذا السياق هي إلى حد ما تافهة، ومع ذلك يجب أخذها جزئيًا من مجالات الوجود التي نادرًا ما يمكن تصويرها.

كان المثقف ما يزال يبحث، في البداية على الأقل، باستمرار عن إمكانية التعبير الاجتماعي عن فكره. في محادثة مع زميل يشاطرني النوم، على سبيل المثال، تحدث بإسهاب عن قائمة التسوق الخاصة بزوجته وكان متحمسًا ليذكر عرضًا ملاحظة بأنه قد قرأ كثيرًا في المنزل. لكن عندما تلقى الإجابة للمرة الثلاثين: «كلام فارغ!» توقف. ذلك كان الأمر في أوشفيتز، اتخذ كلّ شيء فكري شكلًا جديدًا مُضاعفًا بشكل تدريجي: فمن جهة أصبح من الناحية السيكولوجية شيئًا غير واقعي تمامًا، ومن جهة أخرى نوعًا من الرفاهية المحرمة، إلى الحد الذي يعرّفه المرء من منظور اجتماعي. يختبر المرء، في بعض الأحيان، هذه الوقائع الجديدة على مستويات أعمق من تلك التي يمكن للمرء أن يصل إليها خلال محادثة سرير ذي طابقين bunk ـ bed، عندها فقد العقل قيمته الأساسية: أي سموّه.

أتذكر مساءً شتويًا عندما كنا نجر أنفسنا عائدين إلى المعسكر بعد العمل من موقع IG ـ Farben،[1] غير قادرين على الحفاظ على إيقاع

(1) معمل ألماني للكيمياويات.

مسيرة خطوات مرتبكة، تحت مرافقة الكابو المثير للقلق: «إلى اليسار، اثنان، ثلاثة، أربعة»، عندما ـ لسبب لا يعلمه إلا الله ـ وقعت نظراتي على عَلَمٍ يرفرف أمام مبنًى نصف منتهٍ. «كانت الجدران تقف صامتة وباردة، والعلم يخفق في الريح»، تمتمت مع نفسي في تداعٍ ميكانيكي. ثم كررت المقطع الصوتي بصوتٍ أعلى إلى حد ما، واستمعت إلى صدى الكلمات، وحاولت تتبع الإيقاع، وتوقعت أن الاستجابة العاطفية والعقلية التي ارتبطت بقصيدة هِلدرلين خلال سنوات ستظهر في نفسي.[1] لكن لم يحدث شيء. عادت القصيدة لا تتخطى الواقع. كانت هناك، وكل ما تبقى كان بيانًا واقعيًا عن كذا وكذا، وزمجرة الكابو «يسارًا»،[2] وكان الحساء خفيفًا (كالماء)، والأعلام تخفق في الريح. ربما سيعود الإحساس الهلدرليني المخلّف بذُبَال[3] نفسي لو كان رفيقًا شبيهًا لي حاضرًا ومزاجه مشابهًا إلى حد ما، وكان بإمكاني تلاوة المقطع له. أسوأ ما في الأمر هو عدم وجود هذا الرفيق. لم يكن موجودًا في صفوف العمل، فأين كان في كامل المعكسر؟ إذا نجح أحد مرةً في إبرازه، فسيكون مستبعَدًا جدًّا بسبب عزلته عن جميع الأمور الفكرية التي عادَ لا يتفاعل معها. أتذكر، في هذا الصدد، لقائي بفيلسوفٍ معروف من باريس كان في المعكسر. كنت قد علمتُ بوجوده وبحثتُ عنه في شقته دون جهد ومخاطرة. مَشَينا في دروب المعسكر حاملين علب صفيحِ حصصنا تحت ذراعينا، وحاولت أثناء الطريق، دون جدوى، إجراء محادثة فكرية. قدّم الفيلسوف من جامعة

(1) إشارة إلى قصيدة فريدريش هلدرلين «أواسط الحياة Halfte des Lebens».
(2) أو «إلى اليسار در».
(3) تراب من أوراق النبات والحشائش والخضروات الميتة.

السوريون إجاباتٍ ميكانيكة أحادية، وصمت أخيرًا تمامًا. هل التفسير أن حواسه قد تبلّدت؟ بالطبع لا، لم يصبح الرجل غير حساسٍ، ليس أكثر مما كنت عليه أنا. إنه ببساطة عاد لا يؤمن بحقيقة عالم العقل، ورفض لعبة الكلمات الفكرية التي عاد لا يكون لها هنا أيّ لزوم اجتماعي.

كان المثقفون اليهود ذوو *الخلفية التعليمية والثقافية الألمانية* في وضع خاص عندما يتعلق الأمر بالوظيفة الاجتماعية للعقل أو عدمها. بغض النظر عما يدعيه الواحد منهم، فإنها لا تخصه، بل تخص العدو. بيتهوفن. لكن فورتڤِنجلر كان يوجهه من برلين، وكان فورتڤنجلر شخصيةً رسمية محترمة من الرايخ الثالث. كانت هناك مقالاتٌ عن نوڤالِس في «المراقب الشعبي» حول الألقاب وفي بعض الأحيان لم تكن على الإطلاق بذلك الغباء. لم يكن نيتشه ينتمي إلى هتلر فحسب، وهو أمر كان يمكن أن يتجاوزه المرء، بل وأيضًا إلى الشاعر إرنست بيرترام، الذي تعاطف مع النازيين: وكان يفهمه. انتقل التراث الروحي والجمالي، من the Merseburger Zauberspruche[1] حتى غوتفريد بن، ومن بوكسهوته حتى ريشارد شتراوس، إلى ملكية العدو التي لا جدال فيها وغير القابلة للنقاش. قد سُئل رفيق ذات مرة عن مهنته فأجاب بحماقة كافية الحقيقة، بأنه ألماني، وقد أثار ذلك فورة غضب قاتلة من رجل الـ SS. في تلك الأيام نفسها، وعبر المحيط في الولايات المتحدة الأميركية، قال توماس مان، كما أعتقد: «أينما أكون تكون هناك ثقافة ألمانية». لا يمكن

---

(1) وهي تعويذات سحرية من العصور الوسطى أو التعويذات المكتوبة باللغة الألمانية. وهما المثالان الوحيدان المعروفان للإيمان الوثني الجرماني المحفوظ في اللغة، واكتُشِفا من قبل جورج ويتز الذي وجدهما في مخطوطة لاهوتية من فولدا، مكتوبة في القرن التاسع، على الرغم من وجود بعض التكهنات حول تاريخ التعويذات نفسها.

لسجين أوشفيتز الألماني ـ اليهودي الجيد أن يقدم مثل هذا التأكيد الجريء، حتى ولو كان مصادفةً توماس مان. لم يستطع أن يدّعي أن الثقافة الإلمانية هي ملكه، لأن ادّعاءه لم يجد أي نوع من التبرير الاجتماعي. استطاعت أقلية صغيرة بين المهاجرين من تشكيل نفسها على أنها ثقافة ألمانية، حتى لو لم يكن بينهم بالضبط توماس مان. مع ذلك، في أوشفيتز، كان على الفرد المعزول أن يتخلى عن كل الثقافة الألمانية، بما في ذلك دورير، وريجر، وغريفيوس، وتراكل، وحتى أدنى رجل.

حتى عندما نجح في بناء وهم ساذج ومشكوك فيه عن ألمانيا «الخيّرة» وألمانيا «الشريرة»، للنحات البائس ثوراك،[1] الذي أراد الانتماء إلى هتلر، إلى العظيم تيلمان ريمنشنايدر، الذي اضطُر في كثير من الأحيان إلى إظهار تضامنه ـ حتى هناك، كان على العقل أن يستسلم أخيرًا دون قيد أو شرط في مواجهة الواقع. لهذا كانت هناك أسباب متعددة، ومن الصعب فصلها أولًا ثم تجميعها كما يبتغي المرء. سوف أتجاهل الأشياء الجسدية البحتة، على الرغم من أنني لا أعرف حقًّا ما إذا كان ذلك مسموحًا به، لأنه في التحليل النهائي كان كل معتقل في المعسكر يخضع بالتأكيد لقانون قدرته الأكبر أو الأقل على المقاومة الجسدية. على أي حال، من الواضح أن السؤال الكامل عن فعالية العقل عاد من غير الممكن طرحه حيث لا يكون الشخص، الذي يواجه الموت مباشرة من خلال الجوع أو الإرهاق، مجردًا من الفكر فحسب، بل مجردًا من الإنسانية بالمعنى الفعلي للكلمة. ما يسمى «مسلمان» كما تطلق عليه لغة المعسكر، السجين الذي كان

---

(1) إشارة إلى النحّات يوسف ثوراك النمساوي الألماني، الذي عاش في الفترة (1889 ـ 1952).

يستسلم ويتخلى عنه رفاقه، عاد لا يكون لديه متسع في ضميره للتباينات بين الخير والشر، النبيل والمنحط، المثقف وغير المثقف. لقد كان جثة متهاوية، مجموعة من الوظائف الجسدية في تشنجاتها الأخيرة. بقدر ما يصعب علينا القيام بذلك، يجب أن نستبعده من اعتباراتنا. لا يمكنني إلا أن أنطلق من وضعي الخاص، من حالة النزيل الذي جاع، لكنه لم يمت من الجوع، والذي عُرّض للضرب، ولكن لم يُدَمَّر بالكامل، والذي كان مصابًا بجروحٍ، ولكن لم تكن مميتة، وبالتالي ما يزال يمتلك تلك الطبقة التحتية بشكلٍ موضوعي، التي يمكن للروح البشرية، من حيث المبدأ، أن تصمد وتحيا لها. لكنها كانت تقف على سيقان ضعيفة، وقد صمدت أمام الاختبار بشكل سيئ، هذه هي الحقيقة المحزنة بأكملها. لقد تحدّثت بالفعل، على نحو تلميحي، عن الاستسلام، أو بعبارة أخرى عن التلاشي غير الفعّال للتداعيات والذكريات الجمالية. في معظم الحالات لم تقدّم أي عزاء، وبَدَت في بعض الأحيان مؤلمة ومزعجة، وكانت عادةً ما تتلاشى في شعور من اللا مبالاة الكاملة.

كانت هناك، بالتأكيد، استثناءاتٌ نشأت في ظروف معينة من التسمم العقلي. أتذكر كيف أعطاني أحد المحافظين على النظام في ثكنات المرضى ذات مرة طبقًا من الذرة المطحونة المحلّاة، التي التهمتها بشراهة، وبالتالي وصلت إلى حالة من النشوة الروحية غير العادية. فكرت بعاطفة عميقةٍ في ظاهرة الخير البشري. وقد رافق ذلك تصور عن يواكيم زيمسين الصالح من جبل توماس مان السحري. وفجأة كان وعيي مملوءًا بشكل فوضوي بمحتوى الكتب، وشظايا الموسيقى التي سمعتها، وكما لم أستطع إلا أن أتخيل الأفكار الفلسفية الأصلية. استحوذ عليّ شوقٌ

جامح لأشياء الروح، مصحوبًا برثاء حاد أثار الدموع في عيوني. في نفس الوقت، كنت مُدركًا تمامًا، في طبقةٍ من وعيي بقيت واضحة، للجودة الزائفة لهذا التمجيد العقلي قصير العمر. لقد كانت حالة تسمم حقيقية أثارتها التأثيرات الجسدية. سمحت لي المحادثات اللاحقة مع زملائي في المعسكر أن أستنتج بأنني لستُ الوحيد الذي حصل لفترة وجيزة في ظل هذه الظروف على تحصين داخلي. مرارًا ما عاش زملائي المعانون مثل هذه النشوة أيضًا، سواء أثناء تناول الطعام أو الاستمتاع بسيجارة نادرة. خَلّفت مثل كل النشوات وراءها شعورًا كئيبًا مُسكِرًا شبيهًا بالفراغ والعار. كانت زائفة تمامًا وهي دليل ضعيف على قيمة الروح. لكن المفاهيم الجمالية وكل ما يتبعها تُشكّل على الرغم من ذلك جزءًا محدودًا فقط، وبعيد عن الجزء الأهم من الحياة الفكرية للإنسان. يكون التفكير التحليلي هنا أهم، إذ قد نتوقع منه تقديم الدعم والتوجيه في مواجهة الإرهاب. لكن هنا أيضًا توصّلتُ ووصلتُ إلى نتائجَ مخيبة للآمال. لم يكن التفكير العقلاني في المعسكر، ولا سِيّما في أوشفيتز، غير مساعد فحسب، بل قاد مباشرة إلى جدلية مأساوية لتدمير الذات. ليس من الصعب شرح ما أعنيه بهذا. باديء ذي بدء، لم يعترف المثقف بسهولة بالظروف التي لا يمكن تصورها كحقيقة معينة كما فعل غير المثقف. فقد منعته ممارسة طويلة في التشكيك في ظواهر الواقع اليومي من التكيف ببساطة مع حقائق معسكر الاعتقال، لأنها كانت تقف في تناقض حاد تمامًا مع كل شيء كان يعتبره حتى ذلك الحين ممكنًا ومقبولًا من الناحية الإنسانية. كان دائمًا ما يزامل كإنسان حر، فقط الأشخاص الذين كانوا منفتحين على الجدال العقلاني والإنساني، ولم يرغب مطلقًا في فهم ما لم يكن معقدًا الآن على الإطلاق:

أي إنه فيما يتعلق به، السجين، كانت قوّات الأمن الخاصة (SS) تستخدم منطق التدمير الذي عمل في حد ذاته بنفس القدر من الانسجام كما فعل منطق الحفاظ على الحياة في العالم الخارجي. كان عليك دائمًا أن تكون حليق الذقن، وكان ممنوعًا وبصرامة حيازة موس أو مِقَص، وكنت تذهب إلى الحلاق مرة كل أسبوعين. يكون المرء معرّضًا للعقاب عن الزر المفقود في بدلة النزيل المخططة، ولكن إذا فقدتَ واحدًا في العمل، وهو أمر لا مفر منه، فلم يكن هناك عمليًّا أية فرصة لاستبداله. كان عليك أن تكون قويًّا، لكنك ضعفت بشكل منهجي. عند دخولك المعكسر، سُلب منك كل شيء، وبعد ذلك استهزأ منك اللصوص لأنك لا تملك شيئًا. السجين الذي لم يكن معتادًا بشكل خاص التفكيرَ التمييزي لاحظ هذه الظروف باتزان معين، نفس الاتزان الذي أثبت نفسه في الخارج في تأكيدات كهذه: «يجب أن يكون هناك فقراء وأثرياء» وإلّا «ستكون هناك حروب دائمًا». قد يدوّن ملاحظات عنها، ويتكيف معها، وينتصر عليها في حالات مواتية. لكن المثقف ثار عليهم في عجز أفكاره. كانت الحكمة الغبية المتمردة، على الأقل في البداية، أنه يجب أن لا يحدث ذلك مطلقًا، ولا يمكن أن يحدث. لكن في البداية فقط.

حوّل رفض منطق الـ SS التمرد إلى الداخل، ولم تَدُم طويلًا الغمغمة الصامتة لمثل هذه التعويذات: «لكن هذا غير ممكن». بعد فترة زمنية معينة ظهر شيء كان حتمًا أكثر من مجرد استسلام ويمكن أن نعتبره قَبُولًا ليس فقط لمنطق الـ SS ولكن أيضًا لنظام قيم الـ SS. ومرةً أخرى، كان السجين المثقف يعاني من صعوبةٍ أكبر من غير المثقف. فالبنسبة إلى هذا الأخير، لم يكن هناك منطق إنساني عالمي، بل على الأصح كان هناك نظام ثابت فقط

للحفاظ على الذات. نعم، لقد قال في الخارج:[1] «يجب أن يكون هناك فقراء وأغنياء»، ولكن خاض، في سياق هذا الاعتراف، معركة الفقراء ضد الأغنياء ولم يكن ينظر إلى الأمر على الإطلاق على أنه تناقض. كان منطق المعسكر بالنسبة إليه مجرد تكثيف للمنطق الاقتصادي، وقد عارض المرء هذا التكثيف بمزيج مفيد من الاستسلام والاستعداد للدفاع عن نفسه. من ناحية أخرى، أدرك المثقف بعد انهيار مقاومته الداخلية الأولى أن ما لا يسمح بحدوثه يمكن أن يقوم به، والذي أدرك ساعة بعد ساعة أن منطق الـ SS أصبح واقعًا، اتخذ الآن بضع خطوات مصيرية أخرى في تفكيره. ألم يكن أولئك الذين كانوا يستعدون لتدميره على حق تمامًا، لسبب لا جدال فيه أنهم الأقوى؟ وهكذا، أصبح التسامح الفكري المطلق والشك المنهجي للمثقف عاملين في تكوينه الذاتي. نعم، يمكن لقوات الأمن الخاصة SS أن تستمر كما فعلت: لا توجد حقوق طبيعية والمقولات الأخلاقية تأتي وتذهب مثل الموضات. وُجِدت ألمانيا التي دفعت اليهود والمعارضين السياسيين إلى الموت، ما دام أنها كانت تؤمن أنها يمكن بهذه الطريقة فقط أن تصبح حقيقة كاملة. وماذا عنها؟ بُنِيَت الحضارة اليونانية على العبودية وكان الجيش الأثيني قد انطلق في البرية في جزيرة ميلوس كما فعلت قوات الأمن الخاصة في أوكرانيا. لقد ضُحّيَ بعدد لا يحصى من الناس إلى المدى الذي يصله نور التاريخ، وكان التقدم الأبدي للبشرية، بأية حال، مجرد اعتقاد ساذج من القرن التاسع عشر. «إلى اليسار، اثنان، ثلاثة، أربعة» كانت طقوسًا تمامًا مثل أي طقوس أخرى. ولم يكن

---

(1) يقصد خارج معسكر الاعتقال.

هناك الكثير لقوله ضد الأهوال. كانت ڤيَا آبيا[1] مصفوفة بالعبيد المصلوبين وفي بيركيناو كانت الرائحة الكريهة لجثث البشر المحترقة تنتشر. لم يكن أحدهم كُرَاسّوس هنا، بل سبارتكوس، ذلك كان كلّ شيء. «سُدّ نهر الراين بجثثهم، وراكَم بعظامهم عاليًا، تَدَفق وهو يرغي حول بالاتينيت Pfalz»،[2] بهذه الكلمات خاطب كلايست نهر الراين بشاعرية، ومَن يدري لو كان قد أعطي السلطة، لربما ترجم خيالات جثته إلى واقع. كان الجنرال فون كلايست في موقع القيادة في بعض الأماكن على الجبهة الروسية وربما كان يكدس جثث اليهود والمفوضين السياسيين. هكذا كان التاريخ وهكذا سيكون. سقط المرء تحت عجلة التاريخ وخلع قبعته عندما اقترب القاتل. وبعد أن خسرت المقاومة الأولى، كان لدى المثقف، بكل معرفته وتحليلاته، قَدْرٌ أقل لمعارضة مدمّريه من غير المثقف. من المؤكد أن هذا الأخير وقف أمامهم منتصبًا بتصنع أكبر، ولذلك السبب كان يرضيهم أكثر أيضًا، إلا أنه حاربهم بشكل أكثر عفوية وفعالية من خلال سخرية منهجية وسرقات منجزة ناجحة مما فعل رفيقه التأملي.

أصيب المثقف بالشلل بسبب احترامه التاريخي والاجتماعي العميق والمشروط للتاريخ أكثر مما كان عليه الحال من رفاقه غير المثقفين في المعسكر. في الواقع، كان المثقف دائمًا وفي كل مكان تحت سطوة السلطة تمامًا. لقد كان، وما يزال، معتادًا الشكَّ بها فكريًّا، وإخضاعها لتحليله النقدي، ومع ذلك يستسلم لها في نفس السياق الفكري. أصبح

---

(1) ڤيا آبيا هي واحدة من أقدم الطرق الرومانية وأهمها من الناحية الاستراتيجية للجمهورية القديمة. ربطت روما برينديزي، في جنوب شرق إيطاليا.

(2) منطقة في جنوب غرب ألمانيا.

الخضوع أمرًا لا مفر منه تمامًا عندما لم تكن هناك معارضة واضحة للقوة المعادية. في الخارج، تمكنت الجيوش العملاقة أن تقاتل ضد القتلة، لكن داخل المعسكر كان المرء يسمع عنها من بعيد فقط وكان من الصعب تصديقها. لقد علا هيكل سلطة الـ SS أمام السجين بشكل وحشي لا يقهر، وهي حقيقة لا يمكن الهروب منها، وبالتالي بدت في النهاية *معقولة*. بغض النظر عن أي تجاه يكون تفكيره حول الخارج، فإنه هنا أصبح هيغليًا: بدت دولة الـ SS في التألق الصلب لكُليّتها كدولة أصبحت فيها الفكرةُ حقيقةً.

حان الوقت للتوقف هنا لأقول شيئًا ما بين قوسين عن السجين الديني والسجين الثابت سياسيًا وإيديولوجيًا، الذي وقف موقفًا مختلفًا جوهريًا عن المثقف الإنساني.

أولًا، بعض الاعترافات الشخصية: دخلت السجون ومعسكرات الاعتقال بصفتي ملحدًا، وفي 15 نيسان 1945 أطلق البريطانيون سراحي في بيرغن ـ بيلسن،[1] تركت **الجحيم** كملحد.[2] لم أتمكن في أي وقت من اكتشاف إمكانية الإيمان في داخلي، ولا حتى عندما كنتُ مقيدًا في الحبس الانفرادي، مع العلم أن ملفّيَ مختومٌ بـ«إضعاف معنويات القوات»، ولهذا السبب أتوقع باستمرار أن أُعَادَ من أجل الإعدام. أنا لم أكن، أيضًا، ملتزمًا بإيديولوجية سياسية معينة، ولم أكن مدينًا على الإطلاق إلى إيديولوجية. ومع ذلك، يجب أن أعترف أنني شعرت، وما زلت أشعر، بإعجاب كبير

(1) Bergen ـ Belsen هو معسكر اعتقال أقامه النازيون قرب هانوفر في ألمانيا عام 1940. وقد خُصص في البداية لأسرى الحرب من الفرنسيين والبلجيكيين. عام 1941 أُعيدت تسميته وضَمّ أسرى الحرب الروس.

(2) ترجمة لـ agnostic ويمكن أن تترجم أيضًا لا أدريًا، أو لا غُنُوصيًا.

لرفاقي الملتزمين سياسيًّا ودينيًّا. ربما كانوا «مثقفين» بالمعنى الذي اعتمدناه هنا، أو لا، هذا أمر غير ذي أهمية. كان معتقدهم السياسي أو الديني، في اللحظات الحاسمة، بطريقة أو بأخرى، مساعدة لا تقدر بثمن لهم، في حين لجأنا، نحن المثقفين المتشككين والإنسانيين، عبثًا إلى إنصاف آلهتنا الأدبية والفلسفية والفنية. سواء كانوا ماركسيين متشددين، أو من شهود يهوذا المتعصبين، أو كاثوليكيين متدينين، سواء كانوا من الاقتصاديين واللاهوتيين ذوي التعليم العالي أو العمال والفلاحين الأقل دراية، فإن إيمانهم أو إيديولوجيتهم منحتهم موطئ قدم راسخًا في العالم الذي منه شوّشوا دولة الـ SS روحيًّا. في ظل ظروف تتحدى الخيال، أقاموا قدّاسًا، وصاموا كيهود أرثوذكس يوم الغفران (Yom Kippur)، على الرغم من أنهم عاشوا في الواقع طوال العام في حالة من الجوع الشديد. لقد أجروا مناقشات ماركسية حول مستقبل أوروبا أو ببساطة ثابروا على القول: إن الاتحاد السوفييتي سينتصر وعليه أن ينتصر. لقد نجوا بشكل أفضل أو ماتوا بكرامة أكبر من رفاقهم المثقفين غير المؤمنين أو غير السياسيين، الذين كانوا في كثير من الأحيان أفضل تعليمًا بشكل غير محدود وأكثر ممارسة في التفكير الدقيق. ما زلت أرى أمامي القس البولندي الشاب الذي لم تكن لديه لغة حياتية مشتركة معي، ولذلك تحدث معي باللاتينية عن إيمانه «لأنه خطأ»،[1] ونظر بحزن إلى كابو الذي كان للتو يمر وكان يُخشى من وحشيته. «لكن خير الله لا يقاس وبالتالي سينتصر». لم يكن رفاقنا الملتزمين دينيًّا أو سياسيًّا مندهشين على الإطلاق، أو بدرجة أقل فحسب، من أن ما لا يمكن تصوره بات حقيقةً في المعسكر. قال

(1) ترجمة عن اللاتينية لـ«Voluntas hominis it ad malum».

المسيحيون واليهود الأتقياء إن الإنسان قد ابتعد عن اللّٰه، ولذلك كان عليه أن يصل إلى الدرجة التي ألمّت فيها به أو عانى من فظائع أوشفيتز. وقال الماركسيون إن الرأسمالية، عندما تدخل مرحلتها الفاشية الأخيرة، يجب أن تصبح بالضرورة جزارًا للبشرية. لم يكن شيءٌ من ما حدث هنا لم يُسمع به من قبل، بل كان ما توقعوه دائمًا أو توقعوا إمكانية حدوثه على الأقل المثقفون الإيديولوجيون أو المؤمنون باللّٰه. المسيحيون والماركسيون الذين اتخذوا سابقًا في الخارج وجهة نظر ذاتية للواقع الملموس، نظروا إليه هنا أيضًا عن بعد بطريقة كانت «مثيرة للإعجاب ومثيرة للقلق» في نفس الوقت. لم تكن مملكتهم، على أية حال، هنا والآن، بل غدًا وفي مكان ما، ذات الغد البعيد عند المسيحي، متوهجةً بنور الألفية، أو غد الماركسيين الدنيوي. كانت قبضة الواقع المرعب أضعف حيث وُضع الواقع من البداية في إطار فكرة غير قابلة للتغيير. لم يكن الجوع جوعًا كما هو، بل كان نتيجة ضرورية للإلحاد أو لاضمحلال الرأسمالية. الضرب أو الموت في حجرة الغاز كان تجددًا لمعاناة الرب أو استشهادًا سياسيًا طبيعيًا. هكذا عانى المسيحيون الأوائل، وكذلك الفلاحون المصابون بالطاعون خلال ثورة الفلاحين الألمان. كلُّ مسيحي كان القديس سيباستيان، وكل ماركسي كان توماس مُنتسر. كلاهما، المسيحي والماركسي، احتقرنا نحن المثقفين المتشككين الإنسانيين، الأول بشكل معتدل، والأخير باستياء وفظاظة. كانت هناك لحظات في المعسكر عندما كنت أسأل نفسي إن لم يكن ازدراؤهم مبررًا. ليس لأنني أردتُ معتقدًا سياسيًا أو دينيًا، أو كنت أعتبر المعتقد فرصة على الإطلاق. لم أكن أشعر بأدنى فضول بشأن النعمة الدينية التي لم تكن موجودة بالنسبة إليّ، أو بخصوص إيديولوجية شعرت

أنني قد رأيتُ أخطاءها واستنتاجاتها الخاطئة. لم أكن أرغب في أن أكون واحدًا من الرفاق المؤمنين، لكنني كنت أتمنى أن أكون مثلهم: قويًّا، هادئًا، لا أتزعزع. ما شعرت أنني أفهمه في ذلك الوقت ما يزال يبدو لي يقينًا، كلّ من يكون، بالمعنى الواسع، شخصًا مؤمنًا، سواء كان معتقده ميتافيزيقا أو مرتبطًا بالواقع الملموس، يتخطى نفسه. إنه ليس أسيرًا لشخصيته، بل الأحرى هو جزء من استمرارية روحية لا تتعطل في أي مكان، ولا حتى في أوشفيتز. وهو في نفس الوقت أبعد عن الواقع وأقرب إلى الواقع من غير المؤمن. أبعد عن الواقع لأنه يتجاهل الواقع السائد، بسبب موقفه الأساسي النهائي، ويركز نظره على مستقبل أقرب أو أبعد، وأقرب إلى الواقع لأنه لنفس السبب لا يسمح لنفسه بأن تطغى عليه الظروف المحيطة، وبالتالي يمكن أن يكون له تأثير كبير فيها. فالواقع بالنسبة إلى الشخص المؤمن، في ظل الظروف المعاكسة، هو قوة يخضع لها، وفي ظل ظروف مواتية هو مادة للتحليل. لأن الواقع بالنسبة إلى المؤمن طينٌ يجبله، ومشكلة يحلها.

وغني عن القول إنه كان يوجد قليل من التفاهم في المعسكر بين النوعين، المؤمنين وغير المؤمنين، كما هو الحال في الخارج. لم يتنبه الرفاق السياسيون أو الدينيون إلينا، سواء كان ذلك في التسامح، أو في الاستعداد للمساعدة، أو في الغضب. قال لي يهودي متدين ذات مرّة: «عليك أن تدرك أمرًا واحدًا، وهو أن ذكاءك وتعليمك لا قيمة لهما هنا. لكن لدي يقين من أن إلهنا سينتقم لنا». قال سجين ألماني يساري راديكالي، أُلقِيَ في معسكرات الاعتقال منذ 1933، بصرامة أكبر: «أنتم جالسون الآن هنا، أنتم البرجوازيون المثقفون، وترتعدون من قوات الأمن الخاصة (SS). نحن لا نرتجف، وحتى لو متنا هنا، فإننا نعرف أن رفاقنا

بعد رحيلنا سيصطفّون جميعًا استعدادًا في مواجهة الحائط». كلاهما تجاوز نفسه وأعدّها للمستقبل. لم يكونوا عناصرَ بلا نوافذ، لكنهم وقفوا مفتوحين على مصاريعهم على عالم لم يكن عالم أوشفيتز.

وقد أثر هذا الموقف، بلا شك، في المثقفين غير المؤمنين. ومع ذلك، فأنا على دراية بحالات قليلة للغاية من الهداية. وفي حالات استثنائية فقط تحول المثقف النقدي إلى مسيحي أو ماركسي من خلال المثال العظيم لرفاقه. عادةً ما ابتعد وقال في نفسه: «وهمٌ مثير للإعجاب ومنقذ، لكنه مع ذلك وهم». يحتجّ بعض الأحيان بضراوة ضد ادّعاء رفاقه المؤمنين الحصري بالحقيقة. وقد بدا الحديث عن رحمة الله اللا محدودة أمر شائن بالنسبة إليه، نظرًا إلى وجود ما يعرف باسم نزيل كبير في المعسكر، وهو مجرم ألماني محترف قوي البنية عُرف عنه أنه سحق بالحرف الواحد عددا من السجناء حتى الموت. وبنفس الطريقة اعتبر الأمر ضيقًا بشكل صادم، عندما وصف الماركسيون بشكل ثابت قوات الأمن الخاصة SS على أنها قوة الشرطة البرجوازية ومعسكر الاعتقال على أنه نتاج طبيعي للرأسمالية، في حين كان على أي شخص في عقله الصائب أن يرى أن أوشيفتز لا علاقة له بالرأسمالية أو أي نظام اقتصادي آخر، ولكنه كان النتاج الوحشي لعقول مريضة ونفوس منحرفة. يمكن للمرء أن يحترم رفاقه المؤمنين ومع ذلك يتمتم مع نفسه أكثر من مرة بهزة الرأس: «جنون، يا له من جنون!». لكنّ المثقفين صمتوا ولم يجدوا حججًا عندما عاتبهم الآخرون، كما ذكرنا سابقًا، على فراغ قيمهم الفكرية. وبذلك أختتم استطرادي وأعود إلى دور العقل في أوشفيتز، وأكرر بوضوح ما قلتهُ سابقًا: إذا لم يكن العقل متمركزًا حول معتقد ديني أو سياسي، فلن يساعد، أو لن يساعد إلا قليلًا.

إنه يتخلى عنا. لقد اختفى باستمرار من المشهد كلما كانت تلك الأسئلة متضمنةً ذلك الذي كان يُسمى مرّةً الأسئلة «القصوى».

ماذا كان موقف المثقف، على سبيل المثال، في أوشفيتز من الموت؟ موضوع واسع وغير قابل للاستقصاء، ويمكن تناوله هنا في وقت مضاعف وبشكل عابر فقط! أجرؤ على القول إنّ من المعروف أن سجين المعسكر لم يكن يعيش بجوار الموت، بل في نفس المكان مع الموت: فالموت كان موجودًا في كل مكان. كان الانتقاء إلى غرف الغاز يحصل على فترات منتظمة. شُنق السجناء في ساحة التعداد من أجل لا شيء، وكان على الرفاق أن يتجاوزا المشانق بالأجساد المتدلية ليكونوا إيقاعَ موسيقى مسيرة خفيفة ـ انظروا إلى اليمين! مات السجناء بشكل جماعي، في موقع العمل، في المستوصف، في القبو، داخل المبنى. أتذكر الأوقات التي كنتُ أصعد فيها فوق الجثث المكدسة بلا مبالاة، وكنّا جميعًا منهكين جدًّا، أو غير مبالين لدرجة أننا لم نتمكن من سحب الموتى من الثكنات إلى العراء. لكن كما قلت سابقًا، لقد سمع الناس كثيرًا عن هذا الأمر، إنه ينتمي إلى صنف الأهوال التي ذُكرت في البداية، تلك التي نُصِحتُ بحسن نيةٍ بعدم مناقشتها بتفصيل.

هنا وهناك ربما يعترض شخص ما على أن جندي الخط الأمامي كان مَحُوطًا بالموت باستمرار، وبالتالي فإن الموت في المعسكر ليس له في الواقع طابع محدد ولا يطرح أسئلة لا تُضاهى. هل يجب أن أقول إن المقارنة خاطئة؟ ثم إن حياة جندي الخط الأمامي، كيفما كان قد عانى بعض الأحيان، لا يمكن مقارنتها بحياة نزيل المعسكر، فالموت في المعركة وموت السجين هما أمران لا يقاسان. مات الجندي ميتة البطل أو

الضحية، بينما السجين مات ميتة حيوان مُعَدٍّ للذبح. وصحيح أن حياته لم تكن تساوي الكثير، فقد دُفع الجندي إلى النار. ومع ذلك، لم تأمره الدولة بأن يموت، بل بالبقاء على قيد الحياة. مع ذلك كان واجب السجين الأخير هو الموت. يكمن الاختلاف الحاسم في حقيقة أن جندي الخط الأمامي، على عكس نزيل معسكر الاعتقال، لم يكن الهدف فحسب، بل كان *حامل الموت* أيضًا. وبتعبير مجازي: لم يكن الموت هو الفأس الذي سقط عليه فقط، بل كان أيضًا السيف الذي في يده. حتى عندما كان يعاني من الموت، كان قادرًا على توجيهه. اقتَرَبَ إليه الموت من الخارج، كقَدَره. لكنه شق طريقه أيضًا من داخله بإرادته. كان الموت بالنسبة إليه تهديدًا وفرصة في الوقت نفسه، بينما اتّخذ بالنسبة إلى السجين شكلَ حلٍّ محدد بشكل رياضي:[1] الحل النهائي! تلك كانت الظروف التي اصطدم فيها المثقف بالموت. كان الموت أمامه، وكانت الروح فيه ما زالت تهتز. فالروح واجهت الموت وحاولت عبثًا أن تنطقه على الفور لتجسيد كرامتها.

كانت النتيجة الأولى دائمًا الانهيار التام لوجهة النظر الجمالية عن الموت. ما أقوله مألوف. يحمل المثقف، وخاصة مثقف الثقافة والتعليم الألمانيين، هذه النظرة إلى الموت في داخله. كان إرثه من الماضي البعيد، منذ زمن الرومانسية الألمانية على أبعد تقدير. يمكن أن يوصف بشكل أو بآخر بأسماء فاغنر، وشوبنهاور، ونوفالس، وتوماس مان. فلم يكن هناك مكان للموت بشكله الأدبي، أو الفلسفي، أو الموسيقي في أوشيفتز. لم يؤدِّ جسرٌ من موتٍ في أوشفيتز إلى *موت في البندقية*. أصبح كل استحضار شعري لا يطاق، سواء كان ذلك «موت الأخ العزيز» لهيسّه، أو موت ريلكه،

---

(1) رياضي هنا بمعنى مختص بالرياضيات.

الذي غنّى: «يا ربِّ، أعْطِ كلَّ واحد مَوته». لقد كشفت النظرة الجمالية للمثقف عن نفسها كجزء من *نمط حياة* جمالي، وحيث كان الأخير في حكم النسيان، لم تكن الأولى سوى مزحة متألقة. لم تصاحب موسيقى تريستان[1] الموت في المعسكر، بل صخب الـ SS والكابو. نظرًا إلى أن موت الإنسان، بالمعنى الاجتماعي، كان حَدَثًا سُجِّل فقط بما يسمى بالقسم السياسي للمعكسر بعبارة ثابتة «حُذف بسبب الموت»، فقدْ فقدَ في النهاية الكثير من معناه المحدد الذي يتوقعه المرء. أصبح التزيين الجمالي بطريقة ما مطلبًا وقحًا، وغدا بالنسبة إلى رفاقه مطلبًا غير لائق.

بعد انهيار النظرة الجمالية للموت، واجه المثقف الموت بلا حماية. إذا حاول مع ذلك إقامة علاقة غير طبيعية وميتافيزيقة معه، فإنه يصطدم بواقع المعسكر، الذي حكم على هذه المحاولة بالفشل. كيف يكون الأمر في الممارسة؟ لطرح المسألة بإيجاز وبصورة مبتذلة: لم يشغل السجين المثقف نفسه، تمامًا مثل رفيقه غير المثقف، بالموت بل *بالاحتضار*. ثم، مع ذلك، قُلِّص كاملُ القضية إلى عدد من الاعتبارات الملموسة. على سبيل المثال، كانت هناك ذات مرة محادثة في المعسكر حول رجل من قوات الأمن الخاصة فَتَح بطن أحد السجناء وملأه بالرمل. من الواضح أنه في ضوء هذه الاحتمالات لم يكن المرء مهتمًّا بما إذا كان، أو أن عليه أن يموت، ولكن فقط بالكيفية التي يموت بها. أجرى السجناء محادثات حول المدة التي قد يستغرقها الغاز في غرفة الغاز لأداء مهمته. فكر أحدهم بألم الموت من خلال حقن الفينول. هل كنت تتمنى ضربة على الجمجمة أو موتًا بطيئًا من خلال الإرهاق في المحجر؟ كانت صفة مميزة بالنسبة

(1) موسيقى تريستان الشهيرة لريشارد فاغنر.

إلى حالة السجين فيما يتعلق بالموت أن القليل منهم فقط قرر «الركض إلى السلك»، كما قال أحدهم، أي الانتحار من خلال مَسّ الأسلاك الشائكة المكهربة للغاية. كان السلك في النهاية شيئًا جيدًا ومؤكدًا، ولكن كان من الممكن في محاولة الاقتراب منه أن يُقبَض عليه أولًا ويُلقَى في القبو، مما يؤدي إلى موتٍ أقسى وأكثر إيلامًا. كان الاحتضار موجودًا في كل مكان، واختفى الموت عن الأنظار. الآن بالطبع، بغض النظر عن مكان وجودك، فإن الخوف من الموت هو في الأساس خوف من الاحتضار، وادعاء فرانز بوركينو بأن الخوف من الموت هو خوف من الاختناق ينطبق على المعسكر أيضًا. من أجل كل ذلك، إذا كان المرء حرًّا، فمن الممكن أن يستمتع بأفكار الموت التي ليست في نفس الوقت أفكارًا عن الاحتضار، ومخاوفَ من الاحتضار. الموت في الحرية، من حيث المبدأ على الأقل، يمكن فصله فكريًّا عن الاحتضار: من خلال غرسه، اجتماعيًّا، بأفكار العائلة المتبقية، وبأفكار المهنة التي يتركها المرء، وعقليًّا من خلال الجهد، بينما لا يزال يشعر بنفحة من العدم. وغني عن البيان أن مثل هذه المحاولة لا تؤدي إلى شيء، بحيث لا يمكن حل تناقض الموت. ومع ذلك، يحتوي الجهد على كرامته الذاتية: يمكن للشخص الحر أن يتخذ وضعًا روحيًّا معينًا تُجاه الموت، لأن الموت بالنسبة إليه لا يمكن استيعابه بالكامل في عذاب الاحتضار. يمكن للإنسان الحر أن يغامر إلى أقصى حد من الفكر، لأن بداخله ما تزال مِساحة، مهما كانت صغيرة، خالية من الموت. أما الموت بالنسبة إلى السجين فليس له أثر، فليس ذلك الذي يؤلم، وليس ذلك الذي يحفزك على التفكير. ربما يفسر هذا سبب مواجهة نزيل المعسكر ـ وهو ينطبق بشكل متساوٍ على المثقف وكذلك على

غير المثقف ـ خوفًا مؤلمًا من أنواع معينة من الاحتضار، ولكن نادرًا ما يكون خوفًا فعليًا من الموت. إذا كان بإمكاني التحدث عن نفسي، دعني، إذن، أؤكد هنا بأنني لم أعتبر نفسي أبدًا شجاعًا بشكل خاص وربما لست كذلك. ومع ذلك، عندما أخذوني ذات مرة من زنزانتي بعد أن تُركت بضعة أشهر في معسكر عقابي ورائي، وقدّم لي رجل القوات الخاصة SS تأكيدًا وديًا بأنني كنت على وشك أن أُعدَم، قبلته برباطة جأش تام. «الآن أنت خائف، أليس كذلك؟»، قال لي الشخص الذي كان يمزح للتو. أجبته بـ«نعم»، لكن بدافع الرضا عن النفس ولكي لا أحرضه على القيام بأعمال وحشية بتخييب توقعاته. كلا، لم نكن خائفين من الموت. أتذكر بوضوح كيف أن الرفاق الذين كان من المتوقع اختيارهم من قاعاتهم لغرف الغاز لم يتحدثوا عن ذلك، بينما كانوا يتحدثون، مع كل علامة خوف وأمل، عن درجة كثافة الحساء الذي كنت سأستغني عنه. انتصر واقع المعكسر على الموت وعلى كامل مجموعة الأسئلة المطلقة المزعومة. هنا أيضًا، وصل العقل حدوده المحدودة.

كل تلك القضايا التي يَسِمُها المرء وفقًا للعرف اللغوي بأنها «ميتافيزيقة» أصبحت بلا معنًى. لكن لم تكن اللا مبالاة هي التي جعلت التفكير فيها غير مستحيل، على العكس من ذلك، كانت الحدّة القاسية لعقل شُحذ وصُلّب بواقع المعكسر. بالإضافة إلى ذلك، كانت القوى العاطفية مفقودة، والتي معها يمكن للمرء، إذا لزم الأمر، أن يستثمر مفاهيمَ فلسفية غامضة، وبالتالي جعلها ذات مغزًى ذاتي ونفسي. ربما يتبادر إلى الذهن، من حين إلى آخر، ذلك الساحر المزعج من المناطق الألمانية Alemannic [1] الذي

(1) وهي مناطق تتحدث بلهجة ألمانية ذات مستوًى عريق.

قال إن الكائنات تظهر لنا فقط في ضوء الوجود. لكن ذلك الرجل نسي الوجود ليركز على الكائنات.[1] حسنًا الآن، الوجود. لكن في المعكسر كان واضحًا بشكل مقنع أكثر منه في الخارج، أن الكائنات ونور الوجود لا يوصلك إلى أي مكان. قد تكون جائعًا، ومتعبًا، ومريضًا. أن نقول ببساطة وعلى نحو مجرد أن أحدًا موجودٌ، أمرٌ لا معنى له. والوجود على هذا النحو، ولنكمله، أصبح بشكل لا نهائي مفهومًا ومجردًا تمامًا وبالتالي فارغًا. إن الوصول إلى ما وراء الواقع الملموس عن طريق الكلمات أصبح أمام أعيننا لعبة لم تكن عديمة القيمة ورفاهية غير مسموح بها فحسب، بل وأيضًا سخرية وشرًّا. قدم العالم المادي، كل ساعة، دليلًا على أنه لا يمكن التعامل مع عدم القدرة على الاحتمال سوى من خلال الوسائل المتأصلة في ذلك العالم. بعبارة أخرى، لم يكن للواقع في أي مكان آخر من العالم قوة مؤثرة بقدر ما كانت في المعكسر، ولم يكن الواقع في أي مكان آخر حقيقيًّا إلى هذا الحد. ولم يحصل في أي مكان آخر أن أثبتت المحاولة لتجاوزه أنها ميؤوس منها وزائفة. ففقدت التصريحات الفلسفية سُمُوّها أيضًا بنفس الدرجة التي فقد فيها المقطع الشعري عن الجدران القائمة الصامتة وقعقة الأعلام في مهب الريح، وأصبحت بالنسبة إلينا ملاحظات موضوعية جزئيًّا، وجزئيًّا ثرثرة مملة. حيث كان ما يزال لديهم رأي، بدوا وكأنهم تافهين، وحيثما لم يكونوا تافهين عادوا لا يعنون أي شيء. لم نطلب أي تحليل دلالي أو بناء جملة منطقية لتعرُّف ذلك. إلقاء نظرة سريعة على أبراج المراقبة، وشمّ دهون محترقة من محارق الجثث يكفي.

---

(1) إشارة إلى الفيلسوف الألماني الوجودي مارتن هايدغر، الذي نشأ في منطقة ألمانية في الغابة الجنوبية السوداء.

أعلن العقل في المعسكر، في كلّيته، عن نفسه على أنه غير كفؤ. لقد اعترف بالهزيمة، كأداة لحل المهام التي طرحت علينا. ومع ذلك، وهذه نقطة أساسية للغاية، يمكن استخدامها لإلغائه، وهذا في حد ذاته شيء. إذ لم يكن الأمر أن المثقف ـ إذا لم يكن قد دُمِّرَ جسديًا بالفعل ـ قد أصبح الآن غير عقلاني أو غير قادر على التفكير. على العكس من ذلك، نادرًا ما كان العقل يمنح نفسه فترة راحة. لكنه ألغى نفسه عندما اصطدم في كل خطوة تقريبًا بحدوده غير القابلة للعبور. ثم تحطمت محاور أُطُره المرجعية التقليدية. الجمال: ذلك كان وهمًا. المعرفة: التي اتضحت أنها لعبة بالأفكار. الموت: حجب نفسه بكل غموضها.

لو كنا نجلس معًا ونتحدث، ربما يسألني أحدٌ ما الذي أنقذه المثقف بالفعل من المعكسر وأعاده معه إلى عالمنا، الذي نطلق عليه افتراضًا «طبيعيًّا»، أي ملكية روحية احتفظ بها أيام وجوده في المعكسر. سأحاول الإجابة، إلى الحد الذي لم أتوقع عنده الإجابة مسبقًا فيما أشرت إليه.

سأبدأ ببعض النفي. لم نصبح أكثر حكمة في أوشفيتز، إذا كان المرء يفهم بالحكمة معرفة إيجابية عن العالم. لم نفهم أي شيء هناك لم نكن مسبقًا قادرين على إدراكه في الخارج، ولم يصبح أيٌّ منه دليلًا عمليًا. بل إننا لم نصبح «أعمق» في المعسكر، إلى الحد الذي يكون فيه هذا العمق المأساوي بعدًا فكريًا يمكن تحديده على الإطلاق. أعتقد أننا في أوشفيتز لم نصبح أفضل وأكثر إنسانية ونضجًا من الناحية الأخلاقية، وهذا واضح مما قيل. لا يكون المرء متفرجًا على أفعال الإنسان المجردة من إنسانيتها والآثام دون التشكيك في جميع مفاهيم الكرامة الإنسانية المتأصلة. لقد خرجنا من معسكر الاعتقال وقد جُردنا وسُرقنا وفُرّغنا من أنفسنا وشُوّشنا

ـ وقد مر وقت طويل قبل أن نتمكن من تعلم لغة الحرية اليومية مرة أخرى. ما زلنا نتحدث عنها حتى يومنا هذا بانزعاج ودون أن نثق حقيقةً بصلاحيتها.

ومع ذلك، لم يكن الوقت في المعكسر بلا قيمة لنا تمامًا (وعندما أقول لنا، أعني المثقفين غير الديّنين والمستقلين سياسيًّا). لأننا جلبنا معنا اليقين الذي لا يتزعزع أبدًا، وهو أن العقل بالنسبة إلى الجزء الأكبر هو «ludus»،[1] وأننا لسنا أكثر من ذلك ـ أو، من الأفضل القول، قبل دخولنا المعكسر لم نكن أكثر من أشخاص متدرّبين (ludentes homines). مع ذلك، فقد فقدنا قدرًا كبيرًا من الغطرسة والغرور الميتافيزيقي، ولكننا أيضًا فقدنا قدرًا كبيرًا من البهجة الساذجة في الفكر وما تخيلناه بشكل خاطئ إحساسًا بالحياة. في كتابه الجديد «الكلمات» قال جان بول سارتر في وقت من الأوقات إن الأمر استغرق ثلاثين عامًا لتخليص نفسه من المثالية الفلسفية التقليدية. يمكنني أن أضمن أن الأمر لم يستغرق منّا وقتًا طويلًا. في الغالب، كانت بضعة أسابيع في المعسكر كافية لإحداث خيبة أمل فلسفية حول هذا، والتي من أجله يجب على العقول الأخرى، التي ربما تكون أكثر موهبة وذكاءً، أن تكافح مدى الحياة.

ولذا أجرؤ على القول، إننا لم نترك أوشفيتز أحكم وأعمق، لكننا بلا شك كنا أذكى. قال آرثر شنيتزلر ذات مرة: «لم يوضّح العمقُ العالم أبدًا، ويبدو الوضوح أعمق في أعماقه». لم يكن من السهل في أي مكان استعياب هذا الفكر الذكي كما هو في المعسكر، ولا سيّما في أوشفيتز. إذا جاز لي أن أقتبس مرةً أخرى، ومن نمساوي ثانيةً، فعندئذ أود أن أستشهد

---

(1) للكلمة اللاتينية ludus في الثقافة الرومانية القديمة عدة معانٍ ضمن المجال الدلالي للغة: «اللعب، اللعبة، الرياضة، التدريب».

بالكلمات التي نطق بها كارول كراوس في السنوات الأولى للرايخ الثالث: «سقطت الكلمة في سبات، عندما استيقظ ذلك العالم». بينما قال ذلك بالتأكيد، بصفته مدافعًا عن هذه «الكلمة» الميتافيزيقية، كنّا نحن نزلاء المعسكر السابقون نستعير صياغة منه ونكررها بشك كحجة ضد هذه «الكلمة». تموت الكلمة، حيثما يكون الادعاء ببعض الحقيقة بشكل كامل. لقد حصل ذلك بالنسبة إلينا منذ وقت طويل. ولم يبقَ لدينا شعورٌ بأننا يجب أن نأسف لموتها.

التعذيب

كل من يزور بلجيكا كسائح ربما يحظى بفرصة زيارة Fort Breendonk [1] الألماني الذي يقع في منتصف الطريق بين بروكسل وأنتويرب. المجمع حصن من الحرب العالمية الأولى، ولا أعرف ماذا كان مصيره في ذلك الوقت. كانت بريندونك في الحرب العالمية الثانية، وخلال ثمانية عشر يومًا من المقاومة من قبل الجيش البلجيكي في أيّار 1940، آخر مقر للملك ليوبولد. ثم أصبحت تحت الاحتلال الألماني نوعًا من معسكرات الاعتقال الصغيرة، «معسكر استقبال»، كما كان يطلق عليه في مقاطعة الرايخ الثالث. أما اليوم فهو متحف وطني بلجيكي.

تترك قلعة بريندونك للوهلة الأولى انطباعًا قديمًا جدًّا، وتاريخيًّا تقريبًا. نظرًا إلى أنها تقع هناك تحت سماء فلاندرز الرمادية الأبدية، مع قبابها المغطاة بالعشب وجدرانها ذات اللون الأسود الرمادي، فإنها تولّد إحساسًا بالكآبة منقوشًا من حرب سبعينيات القرن التاسع عشر. يفكر المرء في غيرفلوت وسيدان وهو مقتنع أن الإمبراطور نابليون الثالث المهزوم والقبعة العسكرية في اليد، سيظهر على الفور في إحدى البوابات الضخمة والخفيضة. على المرء أن يقترب أكثر، حتى تُستَبدَل الصورة العابرة من

(1) منشأة عسكرية سابقة في بريندونك، بالقرب من ميكلين، في بلجيكا، والتي تحولت إلى معكسر اعتقال نازي أثناء الاحتلال الألماني لبلجيكا خلال الحرب العالمية الثانية.

الماضي بأخرى مألوفة لنا. تظهر أبراج المراقبة على طول الخندق الذي يحيط بالقلعة. وتلتفّ أسوارٌ من الأسلاك الشائكة حولها. فجأة حُجِبت اللوحة النحاسية لعام 1870 بسبب صور الرعب من العالم التي أطلق عليها ديفيد روسيت اسم «L'Univers Concentrationnaire». وقد ترك مبتكرو المتحف الوطني كل شيء على ما كان عليه بين الأعوام 1940 و1944. بطاقات الحائط ذات اللون الأصفر: «كلّ من يتجاوز هذه النقطة سيطلق عليه الرصاص». يُظهر النصب لحركة المقاومة المثير للشفقة الذي أقيم أمام القلعة رجلًا أُجبر على الركوع، لكنه يرفع رأسه بأخاديده السلافية بتحدٍّ. لم يكن هذا النصب ضروريًّا على الإطلاق ليوضّح للزائر مكان وجوده وما يمكن تذكره هناك.

يخطو المرء عبر البوابة الرئيسية وسَرعان ما يجد نفسه في غرفة كانت تسمى في تلك الأيام بشكل غامض «غرفة الأعمال». صورة لهينريش هيملر على الحائط، وعَلَم الصليب المعقوف ممدودٌ كقطعة قماش على طاولة طويلة، وعدد من الكراسيّ الخالية. غرفة الأعمال. عمل الجميع عملهم، وكان عملهم القتل. ثم الممرات الطويلة التي تشبه القبو مضاءة بشكل خافت بنفس المصابيح الرقيقة والمتوهجة ذات اللون الأحمر مثل تلك التي كانت معلقة هناك. وزنزانات سجن مغلقة بأبواب خشبية سمكها بوصة واحدة. يجب على المرء أن يمر، مرارًا وتكرارًا، عبر بوابات ثقيلة ذات قضبان، قبل أن يقف أخيرًا في سردابٍ بلا نوافذَ حيث توجد أدواتٌ حديدية مختلفة. لم تَنفذ أية صرخة من هناك إلى الخارج. هناك، عانيته بالتجربة: التعذيب.

إذا تحدث المرء عن التعذيب، فعليه الحرص على عدم المبالغة. ما أُلحِقَ بي في سرداب بريندونك الذي لا يوصف لم يكن إلى حد بعيد أسوأ

أشكال التعذيب. لم تُغرَز إبرٌ ملتهبة تحت أظافري، ولم تُطفَأ أي سيجارة مشتعلة على صدري العاري. ما حدث لي هناك سأتحدث عنه لاحقًا، إذ كان غير مؤذٍ نسبيًّا ولم يترك ندوبًا واضحة على جسدي. ومع ذلك، بعد اثنين وعشرين عامًا من حدوثه، وعلى أساس تجربة لم تسبر بأي شكل من الأشكال النطاق الكامل للاحتمالات، أجرؤ على تأكيد أن التعذيب هو أفظع حدث يمكن للإنسان أن يحتفظ به داخل نفسه.

لكن الكثير من الناس احتفظوا بمثل هذه الأشياء. ولا يمكن للرعب أن يدعي التفرد. لقد أُلغِيَ التعذيب في معظم الدول الغربية كمؤسسة ومنهج في نهاية القرن الثامن عشر. ومع ذلك، اليوم، وبعد مئتي عام، ما يزال هناك رجال ونساء ـ لا أحد يعرف عددهم ـ مِنْ مَن يستطيع أن يحدثنا عن التعذيب الذي عُرِّضوا له. بينما أُعِدّ هذه المادة، اطلعت على صفحة في إحدى الصحف بها صور تُظهر أفرادًا من الجيش الفيتنامي الجنوبي يعذبون متمردي الفيتكونغ الأسرى. كتب الروائي الإنجليزي جراهام جرين رسالة عن ذلك إلى صحيفة لندن ديلي تلغراف قائلًا:

«الجديد في صور التعذيب التي تظهر الآن في الصحافة البريطانية والأمريكية هي أنها التقطت بموافقة الجلادين ونشرت مع تعليقات لا تحتوي على أي إشارة للإدانة. كأنما الأمر يتعلق بملصقات عن حياة الحشرات من كتاب عن حديقة الحيوان... أيعني هذا أن السلطات الأمريكية تعتبر التعذيب وسيلة مشروعة لاستجواب أسرى الحرب؟ هذه الصور، إن شئت، دلالة على الصدق، لأنها تدل على أن السلطات لا تغلق أعينها عمّا يجري، لكنني أتساءل ما إذا كان هذا النوع من الصدق الخالي من الضمير يكون مفضّلًا حقًّا على النفاق القديم».

يجب أن يجيب كلّ واحد منا عن أسئلة غراهام غرين. إقرار التعذيب والجرأة ـ لكن أما تزال كذلك؟ الوقوف أمام الجمهور بمثل هذه الصور لا يمكن أن يتم إلا إذا افترضنا أن تمرد الضمير العام عاد لا يكون مخيفًا. كما لو أن الرأي العام قد وافق على ممارسة التعذيب. ويمكن أن يُقادَ المرءُ إلى الاعتقاد بأن الضمير قد اعتاد استخدام التعذيب. كان التعذيب وما يزال، بأي حال من الأحوال، يُمارَس في هذا العقد ليس في فيتنام فحسب. أفضّل أن لا أعرف ما يجري في سجون جنوب إفريقيا والأنغولية والكونغولية. لكني أعرف، وربما سمع القارئ أيضًا، ما حدث بين 1956 و1963 في السجون الفرنسية في الجزائر. هناك كتاب دقيق ورصين بشكل مخيف عنها، عنوانه السؤال لهنري أليج، عملٌ حُظِرَ تداوُله، تقريرُ شاهد عيان عُرّض شخصيًا للتعذيب أيضًا وقدم أدلة على الرعب، باعتدال ودون إثارة ضجة حول نفسه. ظهرت حوالي عام 1960 العديد من الكتب والنشرات الأخرى حول هذا الموضوع: دراسة علم الجريمة من قبل المحامي الشهير أليك ميلور، واحتجاج الناشر بيير هنري سيمون، والبحث الأخلاقي الفلسفي لعالم لاهوت يدعى فيالاتو. انتفض نصف الشعب الفرنسي ضد التعذيب في الجزائر. لا يمكن للمرء أن يقول في كثير من الأحيان وبشكل مؤكد أن الفرنسيين يكرمون من خلال هذا أنفسهم. واحتج المثقفون اليساريون. وحذّر النقابيون الكاثوليكيون وغيرهم من المسيحيين العاديين من التعذيب، وقاموا بنشاطات ضده تحت طائلة خطر سلامتهم وأرواحهم. رفع الأساقفة أصواتهم، على الرغم من أنها كانت بالنسبة إلى مشاعرنا بلطف شديد.

لكن تلك كانت فرنسا العظيمة والمحبة للحرية، والتي لم تُسلب

بالكامل من حريتها حتى في أثناء تلك الأيام المظلمة. وتغلغلت صرخات من أماكنَ أخرى من العالم بقدر ضئيل كما فعلت ذات مرة صرخاتي غير المألوفة والغريبة من سرداب بريندونك. في هنغاريا يترأس سكرتير أول للحزب، الذي يقال عنه إنه اقتُلِعَت أظافره في ظل نظام أحد جلاديه السابقين. وأين ومن هم كل الآخرين الذين لم نعرف عنهم أي شيء على الإطلاق، ومنهم لم نسمع، على الأرجح، أي شيء؟ شعوب، وحكومات، وسلطات، وأسماء معروفة، لكن لا أحد يقول بصوت عالٍ. في مكان ما، ربما يصرخ شخصٌ ما تحت التعذيب في هذه الساعة، وفي هذه الثانية.

وكيف أتحدث عن التعذيب المرتبط بالرايخ الثالث فقط؟ لأنني عانيت من ذلك تحت الأجنحة المنتشرة لهذا الطائر الجارح بالطبع. ولكن ليس لهذا السبب فقط، بدلًا من ذلك، أنا مقتنع، بخلاف كل التجارب الشخصية، أن التعذيب لم يكن صفةً عَرَضية لهذا الرايخ الثالث، بل كان جوهرُه. الآن أسمع اعتراضًا عنيفًا يُثَار، وأنا أعلم أن هذا التأكيد يضعني في موقف خطير. سأحاول إثبات ذلك لاحقًا. أولًا، ومع ذلك، أفترض أن عليّ أن أتحدث عن ما هو محتوى تجاربي في الواقع، وما الذي حدث في الهواء الرطب في سرداب قلعة بريندونك.

اعتُقِلتُ في تمّوز 1943 من قبل الجستابو. لقد كانت مسألة منشورات. المجموعة التي كنت أنتمي إليها، وهي منظمة صغيرة ناطقة بالألمانية داخل حركة المقاومة البلجيكية، كانت تنشر دعاية مناهضة للنازية بين أفراد قوات الاحتلال الألماني. لقد أنتجنا موادَّ تحريضٍ بدائية إلى حد ما، تخيلنا بواسطتها أننا نستطيع إقناع الجنود الألمان بالجنون الرهيب لهتلر وحربه. أعلم اليوم، أو على الأقل أعتقد أنني أعرف، أننا كنا نوجه رسالتنا

غير الفعالة إلى آذان صماء. لدي العديد من الأسباب لافتراض أن الجنود الذين يرتدون الزي الرمادي الميداني الذين وجدوا أوراقنا المطبوعة أمام ثكناتهم أدّوا التحية[1] ونقلوها مباشرةً إلى رؤسائهم، الذين قاموا بدورهم، وبنفس الجاهزية، بإخطار جهاز الأمن. وهكذا سَرعان ما سار هذا الأخير على دربنا وداهَمَنا. إحدى المنشورات التي كنتُ أحملها وقت توقيفي حملت رسالة كانت مقتضبة تمامًا كما كانت غير فعالة من الناحية الدعائية: «الموت لقطّاع الطرق من القوات الخاصة وجلادي الجستابو!». كل مَن أوقفه الرجال ذوو المعاطف الجلدية والمسدسات لبمشدودة، ومعه مثل هذه المواد، لم يكن ممكنًا لديه وجود أوهامٍ من أي نوع. ثم إنني أيضًا لم أسمح لنفسي بأي وهم ولو للحظة واحدة. لأنني، واللّٰه أعلم، كنت أيضًا أعتبر نفسي - بشكل خاطئ، كما أرى اليوم - خبيرًا قديمًا ومتمرسًا حول النظام ورجاله وأساليبه. كقارئ لـ Neue Weltbühne و Neues Tagebuch [2] في الأوقات الماضية، وعلى دراية جيدة بأدب معسكرات الاعتقال النازية للمهاجرين الألمان منذ عام 1933 وصاعدًا، حسبتُ أنني أستبق ما كان يُخَبّأ لي. في الأيام الأولى من الرايخ الثالث، سمعتُ عن أقبية ثكنات قوات الأمن الخاص SS في شارع الجنرال بابا Pape في برلين. بعد فترة وجيزة، قرأت ما كان على حد علمي أول وثيقة

(1) ترجمة غير حرفية لـ clicked their heels، وترجمتها الحرفية «ضربوا كعوبهم».

(2) Neues Tagebuch صحيفة صدرت في المنفى باللغة الألمانية في باريس من عام 1933 إلى عام 1944. أما Die Neue Weltbühne فهي مجلة أسبوعية كانت تركز على قضايا السياسة والفن والاقتصاد. وكانت قد صدرت منذ عام 1905 في برلين، إلا أنها منعت أيام صعود النازية منذ عام 1933، ثم صدرت في المنفى مجددًا.

ألمانية عن معسكر اعتقال، الكتاب الصغير Oranienburg [1] من تأليف جيرهارت سجيرز. ومنذ ذلك الوقت، وصلت إلى مسامعي العديد من التقارير من السجناء السابقين للجستابو لدرجة أنني اعتقدت أنه لا يمكن أن يكون هناك شيء جديد بالنسبة إليّ في هذا المجال. ما سيحدث بعد ذلك يجب إدراجه، إذا جاز التعبير، في الأدبيات ذات الصلة. سجن، تحقيق، ضربات، تعذيب، وفي النهاية، على الأرجح، الموت. على هذا النحو كُتِب، وبالتالي سيحدث. عندما أمرني بعد اعتقالي رجلٌ من الجستابو بالابتعاد عن النافذة ـ لأنه كان يعرف الحيلة، كما قال، إذ تفتح النافذة بيديك المقيدتين وتقفز على رصيف قريب ـ لقد شعرت بالإطراء بالتأكيد، لأنه نسب إليّ الكثير من التصميم والبراعة، لكن بإطاعة الأمر. أشرت بأدب إلى أن ذلك كان موضع تساؤل. وأتحت له أن يفهم بأنني لا أمتلك المتطلبات الجسدية الأساسية ولا النية على الإطلاق للهروب من مصيري بهذه الطريقة المغامِرة. كنت أعرف ما هو قادم ويمكنهم التعويل على قَبُولي به. لكن هل يعرف المرء حقًّا؟ جزئيًّا فقط. في مكان ما كتب بروست: «Rien n'arrive ni comme on l'espere, ni comme on Ie craint». لا شيء يحدث كما نأمل، ولا كما نخشى حدوثه. ولكن ليس لأن الحدوث، كما يقول أحدٌ، قد «يتجاوز الخيال» (إنه ليس سؤالًا كميًّا)، ولكن لأنه واقع وليس خيالًا. يمكن للمرء أن يكرس حياة كاملة للمقارنة بين المتخيل والحقيقي، ومع ذلك، لا يحقق أي شيء من خلالها. تحدث

---

(1) *Konzentrationslager Oranienburg* معكسر اعتقال أورانينبورغ، هو معسكر اعتقال ألماني وكان من أوائل مرافق الاعتقالات التي أنشأها النازيون في ولاية بروسيا بعد استلامهم للسلطة عام 1933. وقد احتجز فيه المعارضون السياسيون، ومعظمهم من الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين وعشرات غيرهم من غير المرغوب فيهم.

أشياء كثيرة بالفعل بالطريقة التي كانت متوقعة في الخيال: رجال جستابو يرتدون معاطفَ جلدية ومسدسًا موجهًا نحو ضحاياهم - ذلك صحيح، حسنًا. ولكن بعد ذلك، وبشكل مثير للدهشة تقريبًا، يتضح أن الرفقاء ليس لديهم المعاطف الجلدية والمسدسات فحسب، بل لديهم وجوه أيضًا: ليس «وجوه الجستابو» ذات الأنوف الملتوية والذقون المتضخمة والبثور وندوب السكاكين، كما قد تظهر في كتاب، بل الأحرى وجوه كأيّ وجوه أخرى. وجوه بسيطة وعادية. ويوضح لنا الإدراك الهائل في مرحلة لاحقة، الذي يدمر كل الخيال التجريدي، كيف تصبح الوجوه البسيطة العادية وجوهًا للجستابو أخيرًا، وكيف يغطي الشر ويتجاوز التفاهة. لأنه لا توجد «تفاهة للشر»، وحَنَّة آرندْت، التي كتبت عن ذلك في كتاب آيخمان، لم تكن تعرف عدو البشرية إلا من خلال الإشاعات، ولم تَرَه إلا من خلال القفص الزجاجي.

عندما يتطلب حدثٌ ما أقصى ما بوسعنا، فلا ينبغي للمرء أن يتحدث عن التفاهة. فعاد هناك في هذه القضية لا يوجد أي تجريد أو قوة خيالية يمكنها حتى الاقتراب من واقعها. إن أحدًا ما اقْتِيدَ مكبّلًا بالأغلال في سيارة هو «أمرٌ بديهي» فقط عندما تقرأ عنه في الجريدة، وتخبر نفسك بعقلانية، تمامًا كما تقوم في اللحظة التي تعبئ فيها المنشورات: حسنًا، بالتأكيد، وماذا بعد؟ يمكن وسيحدث لي هذا يومًا ما، أيضًا. لكن السيارة مختلفة، ولم يُشعَر بالأصفاد مقدَّمًا، والشوارع غريبة، وعلى الرغم من أنك قد تكون مشيتَ سابقًا بجوار بوابة مقر الجستابو الرئيسي مراتٍ لا تُحصى، فإن له مناظرَ أخرى، وزخارفَ مختلفة، وأحجارًا منحوتة أخرى، عندما تعبر عَتَبَته كسجين. كل شيء جليّ، ولا يوجد شيء واضح حالما

نندفع في واقعٍ يعمينا نورُه ويحرقنا حتى العظام. ما يميل المرء إلى تسميته «حياةً طبيعية» قد يتوافق مع الخيال التوقعي والتعبير التافه. أشتري صحيفة وأنا «رجلٌ يشتري صحيفة». لا يختلف الفعل عن الصورة التي توقعته من خلالها، ولا أكاد أميّز نفسي شخصيًا من الملايين الذين قاموا به قبلي. لأن خيالي لم يكن كافيًا لالتقاط مثل هذا الحدث بالكامل؟ لا، الأحرى أنه حتى في التجربة المباشرة فإن الواقع اليومي ليس سوى تجريد مقنّن. في لحظات نادرة من الحياة فقط، نقف حقًّا وجهًا لوجه مع الحدث، ومعه، الواقع.

لا ينبغي الذهاب إلى حد استخدام التعذيب. يكفي إلقاء القبض، وإذا لزم الأمر الضربة الأولى. قال لي الرجال ذوو الوجوه البسيطة والعادية: «إذا تحدثتَ، فستوضع في سجن الشرطة العسكرية. إذا لم تعترف، فستُرسَل إلى بريندونك، وأنت تعرف ماذا يعني ذلك؟». كنتُ أعرف، ولم أعرف. على أي حال، لقد تصرفت تقريبًا مثل الرجل الذي يشترى صحيفة وتحدثت كما كان مخططًا. سيكون من دواعي سروري الشديد أن أتجنب بريندونك، الذي كنت على معرفة به تمامًا، وأقدم الشهادة المطلوبة مني. إلا أنني لسوء الحظ لم أكن أعرف شيئًا، أو لا شيء على وجه التقريب. شركاء؟ أستطيع أن أذكر أسماءهم المستعارة فقط. أماكن الاختباء؟ ولكن يُرشَد المرء إليها في الليل فقط. ولم نُطْلَع على العناوين الدقيقة مطلقًا. لكن كان ذلك كلامًا فارغًا مألوفًا للغاية بالنسبة إلى هؤلاء الرجال، ولم يُدفَع إليهم للخوض فيه. ضحكوا بازدراء. وفجأة شعرت ـ *بالضربة الأولى*.

ليس للضرب في الاستجواب سوى أهمية إجرامية ضئيلة. إنه يمارس

ويُقبل ضمنيًا، وهو إجراء عادي يُمارَس ضد السجناء العنيدين الذين يرفضون الاعتراف. وإذا كان لنا أن نصدق المحامي المذكور أعلاه، أليس ميللر وكتابها «التعذيب»، تكون ممارسة الضرب بالتالي، بجرعات أكثر أو أقل حدّة، قد استخدمت من قبل جميع سلطات الشرطة تقريبًا، بما في ذلك سلطات الدول الديمقراطية، باستثناء بريطانيا وبلجيكا. في أمريكا يجري الحديث عن «الدرجة الثالثة» من تحقيق الشرطة، والذي يفترض أنه ينطوي على شيء أسوأ من بضع لكمات. في فرنسا وجد المرء كلمة متداولة تقلل بلطف من قيمة الضرب من قبل الشرطة، حيث يجري الحديث عن «*تقديم التبغ*» للسجين (*passage a tabac*). حتى بعد الحرب العالمية، ما يزال محقق جنائي فرنسي رفيع المستوى، يشرح لمرؤوسيه بتفاصيل مسهبة أنه لن يكون من الممكن التخلي عن الإكراه الجسدي أثناء الاستجواب «ضمن حدود القانون».

لا يبرهن الجمهور، في الغالب، أنه كثير التدقيق، عندما يُكشَف بين الحين والآخر في الصحافة عن مثل هذه الحوادث في أقسام الشرطة. قد يكون هناك، في أحسن الأحوال، استجوابٌ في البرلمان من قبل نائب ذي توجه يساري. لكن القِصَص تختفي بعد ذلك. لم أسمع قطّ عن ضابط شرطة ضرب سجينًا ولم يُضغَطّ عليه بقوة من قبل رؤسائه. لذلك إذا كانت الاختراقات البسيطة، والتي لا يمكن في الواقع قياسها تمامًا مع التعذيب الفعلي، لا تولد ردة فعل بعيدة المدى أبدًا بين الجمهور، فهي تجارِب مميزةٌ للغاية بالنسبة إلى أولئك الذين يعانون منها ـ إذا لم يستنفدوا بالفعل الكلمات الكبيرة ويقولون بوضوح: فظائع. تُشعر الضربة الأولى السجين بفكرة أنه عاجز، وبالتالي فهي تحتوي على بَذرة كل ما سيحدث لاحقًا.

قد يكون المرء على علم بالتعذيب والموت في الزنزانة، دون أن يكون لهذه المعرفة مسحة الحياة، ولكن من المتوقع أن تكون احتمالات حقيقية عند الضربة الأولى، بلى، كحقائق. يُسمح لهم بلكمي في وجهي، يشعر الضحية بمفاجأة مخدرة ويستلخص بنفس الخدر اليقين: سيفعلون معي ما يريدون. مَن يندفع لمساعدة السجين ـ زوجة، أو أم، أو أخ، أو صديق ـ لن يصل إلى هذا.

لا يقال الكثير عندما يقدّم شخص لم يُعَرض للضرب قط تصريحًا أخلاقيًّا ومثيرًا للشفقة بأن السجين يفقد كرامته الإنسانية عند الضربة الأولى. عليّ أن أعترف أنني لا أعرف بالضبط ماذا تعني: كرامة الإنسان. أحد الأشخاص يحسب أنه يُفَرّط فيه عندما يجد نفسه في ظروف تجعل من المستحيل عليه أن أن يأخذ حمامًا يوميًّا. ويعتقد آخر أنه يضيّع كرامته عندما يتعين عليه أن يتحدث إلى مسؤول عن شيء آخر بلغة غير لغته الأم. ترتبط الكرامية الإنسانية، في إحدى الحالات، براحة جسدية، وفي حالة أخرى بالحق في حرية التعبير، وفي حالة أخرى ربما تتعلق بتوافر شركاء إيروتيكيين من نفس الجنس. لا أعرف فيما إذا كان الشخص الذي عُرّض للضرب من قبل الشرطة يفقد الكرامة الإنسانية. مع ذلك، فأنا على يقين من أنه يفقد مع الضربة الأولى التي تنزل عليه شيئًا ربما نطلق عليه مؤقتًا «الثقة بالعالم». الثقة بالعالم تشمل كل أنواع الأشياء: قد يكون الاعتقاد غير المبرر منطقيًّا وعقلانيًّا بالسببية المطلقة، أو الاعتقاد الأعمى كذلك بصحة الاستدلال الاستقرائي. ولكن الأهم من ذلك كعنصر من عناصر الثقة في العالم، وما هو ملائم في حالتنا فحسب، اليقين في أنه بسبب العقود الاجتماعية المكتوبة وغير

المكتوبة، سيجنّبني الشخص الآخر ـ وبدقة أكبر، أنه سيحترم جسدي، ومعه أيضًا كينونتي الميتافيزيقية. حدود جسدي هي أيضًا حدود ذاتي. يحميني سطح بشرتي من العالم الخارجي. إذا كانت لدي ثقة، فيجب أن أشعر بها فقط بما أريد أن أشعر.

لكن هذه الثقة في العالم تنهار عند الضربة الأولى. يفرض الشخص الآخر الذي أعيش جسديًا مقابله في العالم، والذي يمكنني أن أعيش معه فقط ما دام لا يلمس سطح بشرتي كتخوم، جسديّته عليّ بالضربة الأولى. إنه يكون على حسابي وبالتالي يدمرني. وهو كالاغتصاب، فعل جنسي دون موافقة أحد الطرفين. بالتأكيد، تُوضَع آليةٌ تمكنني من تصحيح انتهاك الحدود من قبل الشخص الآخر، إذا كان هناك حتى حد أدنى من احتمال المقاومة الناجحة. من ناحيتي، يمكنني التوسع بشكل عاجل دفاعًا عن النفس، وإضفاءً للطابع الجسدي على جسدي، واستعادةً للثقة بوجودي المستمر. وعليه يتضمن العقد الاجتماعي على نص آخر وبنود أخرى: العين بالعين والسن بالسن. يمكنك أيضًا تنظيم حياتك وفقًا لذلك. لا يمكنك القيام بذلك عندما يكون الشخص الآخر هو الذي ينزع السن، ويدفن العين في كتلة منتفخة، وأنت نفسك تعاني على جسدك من الشخص المقابل الذي أصبح رفيقك الإنسان. إذا لم يكن من الممكن توقع أي مساعدة، يصبح الاستحواذ الجسدي من قبل الآخر بالتالي استكمالًا وجوديًا كليًّا للدمار.

تَوُقّع المساعدة، يقينُ المساعدة، هو في الواقع إحدى الخبرات الأساسية للبشر، وربما الحيوانات أيضًا. وقد قُدِّمَ هذا بشكل مقنع منذ

عقود من قبل كروبوتكين العجوز،[1] الذي تحدث عن «المساعدة المتبادلة في الطبيعة»، ومن قبل كونراد لورينز،[2] عالم السلوك الحيواني الحديث.

إن توقع المساعدة هو عنصر نفسي أساسي كما هو الصراع من أجل الوجود. تقول الأم لطفلها الذي يَئِنّ من الألم، لحظةً فقط، ستأتي زجاجة ماء ساخن، وفنجان شاي قادم على الفور، لن نتركك تعاني من ذلك! سأصف لك دواءً، أكَّدَ الطبيب، وسيساعدك! حتى في ساحة المعركة، تجد سياراتُ إسعافِ الصليب الأحمر طريقها إلى الجريح. في جميع مواقف الحياة تقريبًا، حيثما توجد إصابة جسدية، هناك توقع للمساعدة أيضًا، يُعَوَّض الأول من قبل الثاني. ولكن مع الضربة الأولى من قبضة شرطي، والتي لا يمكن أن يكون هناك دفاعٌ ضدها، ولا يمكن لأي يد مساعدة أن تمنعها، ينتهي جزء من حياتنا ولا يمكن إحياؤه مرة أخرى.

وهنا يجب أن نضيف بالطبع أنه يجب قَبول حقيقة الضربات البوليسية أولًا، لأن الخوف الوجودي من الضربة الأولى يتلاشى بسرعة وما يزال هناك متسع في النفس لعدد من الاعتبارات العملية. حتى مفاجأة بهيجة يُشعَر بها، لأن الألم الجسدي لا يكون بأي شكل من الأشكال غير محتمل. تتميز الضربات التي تنزل علينا بخاصية مكانية وصوتية ذاتية: مكانية، بقدر ما يكون لدى السجين، الذي يُضرب على وجهه وعلى رأسه، انطباعًا بأن

(1) إشارة إلى بيتر كروبتوكين (1842 ـ 1921) السياسي الروسي، والسوسيولوجي، والخبير في عالم الحيوان، الذي نادى بشيوعية فوضوعية.

(2) هو كونراد لورينز (1903 ـ 1989)، عالم حيوانات وسيكولوجي ألماني، وُلد وتُوُفيّ في فيينا. وقد حاز جائزة نوبل عام 1973 في علم وظائف الأعضاء لاكتشافاته المتعلقة بنمط السلوكيات الفردية والاجتماعية مشاركةً مع نيكولاس تينبرغن وكارل فون فريش.

المكان وكل الأشياء المرئية فيه تغير موقعها بهزّات. وصوتيًا، لأنه يعتقد أنه يسمع رعدًا خفيفًا، فيغمره أخيرًا هدير عام.

تعمل الضربة كمخدر خاص بها. لا يظهر الشعور بالألم الذي يمكن مقارنته بألم شديد في الأسنان أو الجرح النابض لجرح متقيّح. لهذا السبب، تفكر الضحية التي تُعرّض للضرب على هذا النحو تقريبًا: حسنًا، الآن، هذا يمكنني تحمّله. اضربني بقدر ما تريد، فلن يوصلك هذا إلى نتيجة.

لن يوصلهم إلى أي نتيجة، وتعبوا من ضربي. بقيت أكرّر فقط أنني لم أكن أعرف شيئًا، ولذلك، لم أُرسَل حالًا، كما هددوا، إلى سجن بروكسل الذي يديره الجيش، ولكن إلى «معسكر الاستقبال في بريندونك»، الذي كانت تسيطر عليه قوات الأمن الخاصة. سيكون من المغري هنا التوقف والتحدث عن رحلة السيارة من بروكسل إلى بريندونك عبر خمسة وعشرين كيلومترًا من الريف الفلمنكي، عن أشجار الحور التي أحْنَتْها الرياح، والتي رآها المرء بسرور، حتى ولو كانت الأغلال تؤذي معصميه. لكن هذا من شأنه أن يبعدنا عن مسارنا، ويجب أن نصل بسرعة إلى الغرض. دعوني أذكر فقط مراسم الدخول عبر البوابة الأولى فوق الجسر المتحرك. لقد اضطُرّ هناك حتى رجال الجستابو إلى تقديم أوراق هُويتهم إلى حراس قوات الأمن الخاص، وإذا كان السجين، على الرغم من كل شيء، قد شك في خطورة الوضع، هنا، أسفل أبراج المراقبة ورؤية المدافع الرشاشة، كان عليه أن يدرك أنه وصل، في طقوس الدخول، التي لم تفتقر إلى احتفالية مظلمة معينة، إلى نهاية العالم.

وسرعان ما اصطُحِبَ أحدهم إلى «غرفة الأعمال»، التي تحدثت عنها مسبقًا. من الواضح أن العمل الذي أُجرِيَ هنا كان عملًا عامرًا. تحت

صورة هملر وعينيه الباردتين خلف prince ـ nez،[1] كان الرجال الذين يرتدون الحروف الأولى SD المنسوجة على طيّة صدر بدلاتهم السود يدخلون ويخرجون، ويغلقون الأبواب بقوةٍ ويُحْدِثون جلبةً بأحذيتهم. ولا يتنازلون للتحدث لا مع الجستابو ولا مع السجناء. يسجّلون بكفاءة عالية المعلومات الواردة المزورة وسرعان ما يخلصونني من ممتلكاتي التافهة. تُصادَرُ محفظتي وأزرار الأكمام وربطة عنقي. أثار سوارٌ ذهبيٌّ رفيع اهتمامًا ساخرًا، وشرح رجل فلمنكي من قوات الأمن الخاصة، الذي أراد الظهور بمظهر مهم، لرفاقه الألمان أن هذه كانت علامة الثوار. سُجِّلَ كل شيء كتابةً بدقةٍ تتناسب مع الحوادث في «غرفة الأعمال». حدّق الأب هملر برضًا إلى العلم الذي غطى الطاولة الخشبية الخشنة، وإلى شعبه. كانوا جديرين بالثقة.

لقد حان الوقت لإنجاز وعدٍ أعطيته. يجب أن أشرح لماذا كان التعذيب، وفقًا لقناعاتي الراسخة، جوهرًا للاشتراكية القومية ـ وبصورة أدق، لماذا تجسد الرايخ الثالث بكل كثافة وجوده بالضبط في التعذيب. أن يكون التعذيب قد مُورِس وما يزال يمارس في أماكن أخرى، أمرٌ تُنُووِل مسبقًا. بالتأكيد. فيتنام منذ عام 1964. الجزائر عام 1957. من المحتمل أن تكون روسيا بين أعوام 1919 و1953. في هنغاريا عام 1919 عُذِّب البيضُ والحُمر. كان هناك تعذيب في إسبانيا للسجناء من قِبَل الكتائب الفَلانخية والجمهوريين. كان الجلادون منهمكين في دول أوروبا الشرقية شبه الفاشية، في بولندا، وفي رومانيا، ويوغوسلافيا، في الفترة ما بين الحربين

(1) زوج من النظارات مع مشبك أنف بدلاً من سماعات الأذن.

العالميتين. لم يكن التعذيب من اختراع الاشتراكية القومية، لكنها كانت تمجده. لم يحقق تابع هتلر هُويته الكاملة بعدُ إذا كان بسرعةِ ابْنِ عرس وخشنًا مثل الجلد، وصلبًا كحديد كروب. ولم تجعل منه شارة الحزب الذهبية ممثلًا صالحًا تمامًا للفوهرر وإيديولوجيته، ولا أي نظام سلالة أو صليب حديدي. كان عليه أن يعذب ويدمر لكي يكون عظيمًا في إنتاج عذاب الآخرين. كان عليه أن يكون قادرًا على التعامل مع أدوات التعذيب، حتى يضمن له هِملر شهادة الاستحقاق في التاريخ، وستعجب به الأجيال اللاحقة لأنه ألغى مشاعر الرحمة لديه.

مرةً أخرى أسمع اعتراضًا غاضبًا يُثار، أسمعه يقول إن هتلر لا يجسد التعذيب، لكن شيئًا غير واضح، هو «الشمولية». أسمع بشكل خاص مثال الشيوعية الذي يُشهر في وجهي. ألم أقل بنفسي إن التعذيب كان يُمارس في الاتحاد السوفييتي لمدة أربعة وثلاثين عامًا؟ ألم يقم بذلك آرثر كوسلر مسبقًا...؟[1] أوه نعم، أعرف، أعرف. من المستحيل أن نناقش هنا بالتفصيل «الارتباك السياسي» لفترة ما بعد الحرب والتي عُرفت فيها الشيوعية والاشتراكية القومية لنا كمظهرين مختلفين لشيء واحد تمامًا، حتى أُشِير إلى أن هتلر وستالين، أوشفيتز وسيبيريا، حائط غيتو وارشو وحائط وولبرشت برلين، أمور سُمِّيَت معًا مثل غوته، وشيللر، وكلوبستوك، وڤيلاند. اسمحوا لي، إذن، أن أكرر هنا باسمي ومع خطر مواجهة الإدانة، ما قاله توماس في مقابلة عُرِّضت بالمناسبة لهجوم شديد:

---

(1) آرثر كوستلر (1905 ـ 1983) روائي وصَحَفي وناقد إنكليزي من أصل هنغاري، وهو صاحب رواية «ظلام في الظهيرة»، التي صَدَرت عام 1940، يصوّر فيها تحوّله عن الشيوعية وانتقاده للفكر الشمولي.

أعني أن الشيوعية، بغض النظر عن مدى قسوة ظهورها في بعض الأحيان، فإنها على رغم ذلك ترمز إلى فكرة الإنسان، في حين أن فاشية هتلر لم تكن فكرةً على الإطلاق، بل كانت محض انحطاط. أخيرًا، ليس هناك من ينكر أن الشيوعية حررت نفسها من الستالينية، وأن التعذيب عاد لا يُمارَس في مجال النفوذ السوفييتي اليوم، إذا أمكننا وضع الثقة في التقارير المتزامنة. يمكن لرئيس الوزراء أن يترأس في هنغاريا، وهو الذي كان نفسه ذات مرة ضحيةً للتعذيب الستاليني. ولكن مَن يستطيع أن يتصور اشتراكيةً قومية غير هتلرية، وأن أحد أتباع روم،[1] الذي سُحِلَ تحت التعذيب في تلك الأيام كقائدٍ بارزٍ في أوربا نازية أُعيد تنظيمها حديثًا؟ لا أحد يمكنه تخيل ذلك. كان ذلك مستحيلًا. فالاشتراكية القومية ـ التي لا يمكن، بالتأكيد، أن تَدّعي فكرةً واحدة، بل امتلكت ترسانةً كاملةً من المفاهيم المشوّشة والمُظَلّلة ـ كانت النظام السياسي الوحيد في هذا القرن الذي لم يمارس حتى الآن حكمًا ضد الإنسان فحسب، كما فعلت أنظمة الإرهاب الأحمر والأبيض أيضًا، بل أسّسته كمبدأ بشكل صريح. لقد كرهت كلمة «إنسانية» مثلما يكره الرجل المتدين الخطيئة، ولهذا تحدثت عن «الإنسانية العاطفية». لقد أبادت واستعبدت. ويتضح هذا ليس فقط من خلال الجُرم المادي فقط، ولكن من خلال عدد كافٍ من التأكيدات النظرية أيضًا. عَذّب النازيون، كما فعل الآخرون، لأنهم أرادوا عن طريق التعذيب الحصول على معلومات ذات أهمية للسياسة الوطنية. لكن بالإضافة إلى ذلك فقد عذّبوا بالتعذيب

---

(1) إشارة إلى إرنست يوليوس روم. (1887 ـ 1934). ضابط في الجيش الألماني الإمبراطوري، وبعد ذلك أصبح قائدًا نازيًّا. وقد شارك في تأسيس كتيبة العاصفة SA التي أصبح لها قائدًا فيما بعد. أُعدِمَ عام 1934 بأمر من هتلر، كمنافس محتمل.

بضمير من السفالة كفؤ. لقد قتلوا سجناءهم لأغراض محددة عُيِّنَت بدقة في كل حالة. وفوق كل ذلك، عذّبوا لأنهم جلادون. لقد وضعوا التعذيب في خدمتهم. لكنهم كانوا، حتى بحماسة أكبر، خُدَّامَه.

ما زلت أرى أمامي، عندما أتذكر تلك الحوادث الماضية، الرجل الذي دخل فجأةً إلى غرفة الأعمال وبدا أنه من المعدودين ضمن بريندونك. كان يحمل على بدلته الرسمية الرمادية الْيَاقة السوداء لقوات الأمن الخاصة، لكنه كان يُخاطَب «بالسيد لوتنانت». كان قصيرًا، مملوءَ الجسم، ذا وجه مُتوَرِّد يطلق عليه بتعبير علم الفراسة الشعبي «حَسَن المظهر بشكل فظ». كان صوتُه خشنًا، وكانت اللهجة مصبوغةً بلهجة برلين. لكن لماذا يتوجب عليّ، حقًّا، أن أحجب اسمه، الذي صار فيما بعدُ مألوفًا لي؟ ربما يكون في هذه الساعة بالذات، ناجحًا بصورة جيدة ويشعر بالرضا عن حالته الصحية التي عُرِضت لضربة شمس وهو في عودته من نزهة يوم الأحد. لا أملك سببًا لعدم ذكره. السيد لوتنانت، الذي لعب دور اختصاصيِّ تعذيبٍ هنا، كان اسمه بروستT ـ S ـ U ـ A ـ R ـ P . قال لي بطريقة هادئة وسريعة: «إنه قادم الآن». ثم قادني عبر الممرات التي كانت مضاءة بشكل خافت بمصابيحَ ضاربةٍ إلى الحمرة، والتي بقيت تُفتح فيها البوابات ذات القضبان وتُغلق بصرير، إلى القبو الذي وصفته سابقًا، إلى الخندق المحصّن. كان معنا رجال الجستابو الذين اعتقلوني.

إذا كنت أريد أخيرًا الوصول إلى تحليل التعذيب، فأنني لسوء الحظ لا أستطيع أن أعفي القارئ من الوصف الموضوعي لما حدث الآن، لا يسعني إلا أن أحاول أن أجعله مختَصَرًا. ثَمّتَ سلسلة معلقة من السقف المقوّس للمعقل. كان يحمل في نهايته السفلية خُطافًا حديديًّا ثقيلًا منحنيًا

باتساع. أُخِذتُ إلى الآلة. أمسك الخطّاف بالقيد الذي حافظ على بقاء يديّ معًا خلف ظهري. ثم رُفعت بالسلسلة حتى عُلّقت حوالي مترًا فوق الأرض. في هذا الوضع، أو بالأحرى، عندما تتدلى بهذه الطريقة، مع وضع يديك خلف ظهرك، يمكنك البقاء نصفَ مائلٍ لفترة قصيرة من خلال القوة العضلية. خلال هذه الدقائق القليلة، عندما تُنفق بالفعل أقصى قوتك، وحين يكون العرق قد ظهر على جبينك وشفتيك بالفعل، وأنت تتنفس بلهاث، فلن تجيب عن أي أسئلة. شركاء؟ عناوين؟ أماكن الاجتماع؟ بالكاد تسمعه. تتجمع كل حياتك في منطقة واحدة محدودة من الجسم، أي مفاصل الكتف. لا تتفاعل، لأنها استهلكت نفسها تمامًا في إنفاق الطاقة. لكن هذا الأمر لا يستمر طويلًا، حتى مع الأشخاص الذي لديهم بنية جسدية قوية. بالنسبة إليّ كان عليّ الاستسلام بسرعة. والآن كانت هناك طقطقة وتشقق في كتفي لم ينسَها جسدي حتى هذه الساعة. انخلعت أكتافي. تسبّب وزنُ جسدي بخلع أكتافي عن مفاصلها، وسقطتُ في فراغٍ وتدلّيتُ الآنَ بذراعيّ المخلوعتين، اللتين تَمَزّقتا بشكل بالغ من الخلف، وهما الآن معقودتان فوق رأسي. التعذيب، من اللاتينية *torquere*، بمعنى يلوي.[1] أيُّ درس بَصَري في أصل الكلمة! وكانت ضربات السوط تنهمر في الوقت نفسه على جسدي، وبعضها اخترقت بسهولة السروال الخفيف الصيفي الذي كنت أرتديه في الثالث والعشرين من تمّوز 1943.

سيكون من العبث تمامًا هنا محاولة وصف الألم الذي أصابني. «هل كان مثل حديدة ملتهبة في كتفي»، مثل «عمود خشبي ثقيل دُفِع في مؤخرة رأسي»؟ تحلُّ المقارنات محل الأخرى، وفي النهاية يصبح كل شيء

(1) ولها معانٍ عديدة أخرى: يثني، يحني، يقوس، يفتل، يجدل، يحرف، إلخ.

دُوامة ميؤوسة من المقارنات. كان الألم كما كان. وليس هناك ما يقال أبعد من ذلك. نوعيات الشعور لا تضاهى بقدر ما لا يمكن وصفها. إنها تحدد حدود قدرة اللغة على التواصل. إذا أراد شخصٌ ما أن يُفصح عن آلامه الجسدية، فسيجبر على الإصابة بها، وبالتالي يصبح هو نفسه مُعذَّبًا.

ما دامت طريقة الألم تقاوم التواصل من خلال اللغة، فربما يمكنني على الأقل تحديد ما كان عليه على وجه التقريب. كان يتضمن كل ما أثبتناه سابقًا فيما يتعلق بالضرب من قبل الشرطة. انتهاك حدود نفسي من قبل الآخر، والذي لا يمكن تحييده من خلال توقع المساعدة ولا تصحيحه من خلال المقاومة. التعذيب هو كل ذلك، وإضافة إلى ذلك أكثر بكثير. كل من استحوذ عليه التعذيب، يجرب جسده كما لم يحدث من قبل. يصبح بدنه، في إنكارٍ للذات، حقيقةً كاملة. جزئيًّا، التعذيب هو إحدى تجارب الحياة التي تقدم نفسها بشكل أكثر اعتدالًا أيضًا إلى وعي المريض الذي ينتظر مساعدةً، والمثل الشائع الذي نشعر وفقًا له بصورة جيدة ما دمنا لا نشعر بجسدنا يعبّر في الواقع عن حقيقة لا يمكن إنكارها. لكن فقط في التعذيب يكتمل تحول الفرد إلى جسد. ضعيف في وجه العنف، ويصرخ من الألم، دون انتظار إغاثة، وغير قادر على أيّ مقاومة، فإن المعذَّب ليس سوى جسد، ولا شيء غير ذلك. إذا كان ما وصفه توماس مان منذ سنوات في «*الجبل السحري*» صحيحًا، أي أنه كلما أُخضع جسد الإنسان بشكل يائس للمعاناة، كان بدنيًّا أكثر، فالتعذيب، إذن، هو الأفظع من بين جميع المناسبات الجسدية. احتُفِلَ بالمهرجان بالنسبة إلى مرضى أمراض الصدر في حالة من النشوة، لأن الشهداء هم طقوس الموت.

من المغري إجراء المزيد من التأمل. لقد قلنا إن الألم هو أقصى

تكثيفٍ يمكن تخيله لوجودنا الجسدي. ولكن ربما يكون أكثر من ذلك: إنه الموت. ليس هناك طريق يمكن أن نسلكه عبر المنطق يقودنا إلى الموت، لكن قد يكون مسموحًا للفكر أنه يمكن من خلال الألم تمهيد طريق إحساسٍ وقلقٍ لنا إليه. في النهاية سنواجه المعادلة: الجسد = الألم = الموت، وفي حالتنا يمكن اختزال هذا إلى الفرضية القائلة إن التعذيب، الذي نُحَوَّل من خلاله إلى جسد من قبل الآخرين، يزيل تناقض الموت ويسمح لنا أن نجربه شخصيًّا. لكن هذا تهرب من السؤال. ليس لدينا له سوى عذر تجربتنا الخاصة ويجب أن نضيف، شرحًا، أن التعذيب له طابَع لا يُمحى. مَنْ عُرِّض للتعذيب يبقى معذَّبًا. لقد حُرق التعذيب فيه بلا هوادة، حتى عندما لا يمكن اكتشاف آثار موضوعية سريريًّا. إن دوام التعذيب يعطي الحق لمن خضع له برحلاتٍ تأملية، التي لا يلزم أن تكون سامية وربما ما تزال تَدّعي صدقًا معينًا.

أتحدث عن الشهداء. ولكن حان الوقت لقول شيء ما عن المُعذَّبين أيضًا. لا يوجد جسر بينهما. لا يعرف تعذيب الشرطة الحديث التحالف اللاهوتي الذي كان يربط أثناء محاكم التفتيش الطرفين معًا. لقد وحّدهم الإيمان حتى في لذة أن تتعذب وألم أن تكون معذَّبًا. اعتقَدَ الجلادُ أنه يمارس عدلَ الله، لأنه كان، برغم كل شيء، يطهّر روح الجاني، فالزنديق المعذب أو الساحرة لم يحرماه هذا الحق على الإطلاق. كان هناك تعاون رهيب شاذ. لم يبقَ في التعذيب في الوقت الحاضر شيء من هذا. بالنسبة إلى المعذبين، الجلاد هو الآخر فحسب، وهنا سيعتبر كذلك.

من هم الآخرون، الذين علّقوني من ذراعي المخلوعة وعاقبوا جسدي المتدلي بالسياط؟ يمكن للمرء أن يتبنى، كبداية، وِجهة نظرٍ مُفادها أنهم

كانوا مجرد برجوازيين صغارٍ مُضطَهدين وبيروقراطيي تعذيبٍ مُؤتَمِرين. لكن ينبغي التخلي عن وجهة النظر هذه على الفور إذا رغب المرء في التوصل إلى نظرة ثاقبة إلى الشر بأنه أكثر من مجرد فكرة تافهة. هل كانوا ساديين، إذن؟ وفقًا لقناعتي الراسخة، لم يكونوا ساديين بالمعنى الضيق المَرَضي ـ الجنسي. لا أعتقد أنني بشكل عام واجهتُ ساديًّا حقيقًا واحدًا من هذا النوع خلال عامين من السجن لدى الجستابو وفي معسكرات الاعتقال. لكن ربما كانوا ساديين، إذا تركنا علم الأمراض الجنسية جانبًا وحاولنا الحكم على الجلادين وفقًا لمفاهيمِ فلسفة ماركيز دو صاد بمهارة. السادية كوجهة نظر غير منظمة للعالم هي غير السادية في كتيّبات علم النفس المعتادة، وأيضًا بخلاف تفسير السادية لتحليل فرويد. لهذا السبب، سيُستَشهَد هنا بعالِم الأنثروبولوجيا الفرنسي جورج باتاي، الذي فكر جيدًا بالشاذ ماركيز. بعد ذلك، ربما سنرى ليس فقط أن معذِّبِيَّ عاشوا على تخوم الفلسفة السادية، بل أن الاشتراكية القومية بمجملها خُتِمَت بخاتم *السادية* أكثر من خاتم *الشمولية* الذي يصعب تعريفه.

ينبغي أن لا تُفهم السادية، حسب جورج باتاي، في ضوء علم الأمراض الجنسية بل بالأحرى في ضوء علم النفس الوجودي، التي تظهر فيه على أنها إنكارٌ للآخر، على أنها إنكار للمبدأ الاجتماعي والمبدأ الواقعي كذلك. من الواضح أن العالم الذي ينتصر فيه التعذيب والدمار والموت لا يمكن أن يوجد. لكن السادي لا يهتم بالوجود المستمر للعالم. على العكس من ذلك: يريد أن يبطل هذا العالم، وبالنسبة إليه، بإلغاء أخيه الإنسان الذي هو بمعنًى محدد تمامًا «الجحيم»، فإنه يريد أن يحقّق سيادته الكاملة. يتحول الإنسان الرفيق إلى جسد، وفي هذا التحول يكون بالفعل

قد جُلب إلى حافةِ الموت، وإذا حصل الأسوأ، فإنه يُساق إلى أبعد من حدود الموت إلى العدم. بهذا يدرِك الجلادُ والقاتل وجودَه المدمر، دون أن يُضطر إلى فِقدان نفسه فيه تمامًا، مثل ضحيته الشهيدة. يمكنه، برغم ذلك، أن يوقف التعذيب، عندما يناسبه الأمر. يتحكم في صراخ الآخر من الألم والموت: إنه سيد الجسد والروح والحياة والموت. وبهذه الطريقة يصبح التعذيب عكسَ العالم الاجتماعي، الذي يمكننا أن نعيش فيه فقط، لو ضَمنّا لرفيقنا الإنسان حياةً، وخفّفنا من معاناته، وقلّلنا من رغبةِ غرورنا في التوسع. لكن في عالَم التعذيب لا يوجد الإنسان إلا من خلال تدمير الشخص الآخر الذي يقف أمامه. ضغطٌ خفيف بواسطة اليد الممكسة بالأدوات يكفي لتحويل الإنسان - إلى جانب رأسه الذي قد خُزن فيه كانط وهيجل، وكل السمفونيات التسع، والعالم كإرادة وتمثّل[1] - إلى خنزير صغير يصرخ بشدّة عند الذبح. عندما يحدث ذلك، ويتوسع الجلاد في جسد رفيقه الإنسان ويطفئ ما كانت روحه، يمكنه بعد ذلك تدخين سيجارة أو الجلوس لتناول الإفطار أو، إذا كانت لديه رغبة، إلقاء نظرة على (كتاب) العالم كإرادة وتمثل.

اكتفى الرجال في بريندونك بالسيجارة، وتركوا شوبنهاور العجوز في سلام عندما كانوا يتعبون من التعذيب. لكن هذا لا يعني بعدُ أن الشر الذي أصابوني به كان عاديًّا. وإذا أصرَّ أحدٌ عليه، فإنهم بيروقراطيّو تعذيب. ومع ذلك، كانوا أكثر من ذلك بكثير أيضًا. لقد رأيت ذلك في وجوههم الجادة المتوترة، ولنقل التي لم تكن متسمة ببهجة جنسية سادية، بل بالأحرى بتحقيق ذاتٍ قاتلة. كانوا يمارسون أعمالهم بأرواحهم وقلوبهم، وكان

(1) إشارة إلى كتاب شوبنهاور «العالم إرادةً وتمثلاً».

اسمها القوة والسيطرة على الروح والجسد وانغماس مفرط في التمدد الذاتي غير المنضبط. ثم إنني لم أنسَ أنه كانت هناك لحظاتٌ شعرت فيها بنوع من الإعجاب البائس للسيادة المؤلمة التي مارسوها عليّ. أليس من يستطيع اختزال شخص بشكل كامل إلى جسد وفريسة الموت المتذمرة إلهًا أو على الأقل نصفَ إله؟

لكن من الطبيعي أن جهود التعذيب المركزة لم تجعل أولئك الناس ينسون مهنتهم. لقد كانوا «رجال شرطة»، كانت تلك حِرفة وروتينًا. ولذلك واصلوا طرح الأسئلة عليّ، نفس الأسئلة باستمرار: المشاركون، والعناوين، وأماكن الاجتماع. وللتعبير عن ذلك بصراحة: لم يكن لدي سوى الحظ، ففيما يتعلق بابتزاز المعلومات خاصةً، كانت مجموعتنا منظّمة بشكل جيد إلى حد ما. ما أرادوا سماعه مني في بريندونك ببساطة لم أكن نفسي أعرفه. فلو كنتُ قادرًا على ذكر الأسماء الحقيقية بدلًا من الأسماء المستعارة، فربما حدثت كارثة، وعلى الأرجح أنني سأقفُ هنا الآن كضعيفٍ إلى حد بعيد، ومن المحتمل أن أكون كخائن كذلك. ومع ذلك، لم يكنِ الأمرُ على الإطلاق أنني قاومتُهم بالصمت البطولي المزعوم الذي يلائِم الرجل الحقيقي في مثل هذه الحالة، والذي يمكن أن يقرأ المرء عنه (دائمًا تقريبًا، بالمصادفة، في تقارير الأشخاص الذين لم يكونوا أنفسهم هناك). لقد تحدثت. اتهمتُ نفسي بارتكاب جرائمَ سياسيةٍ مختلَقة وتافهة، وحتى الآن لا أعرف على الإطلاق كيف أمكن أن تقع لي، أنا الحُزمة bundle[1] المتدلية التي كنتُها. كما يبدو، كان لديّ أملٌ في أنه بعد مثل هذه الاعترافات الجُرمية، أن ضربةً موجهة بشكل جيد إلى رأسي

(1) يمكن أن تترجم أيضًا إلى الصرة، الرزمة، الربطة، إلخ.

ستضع حدًّا لبؤسي وتعجّل بموتي، أو على الأقل فِقدان الوعي. أخيرًا، لقد أصبحت فاقدًا للوعي فعلًا، ومع ذاك توقف التعذيب لفترة من الوقت، لأن رجال الشرطة امتنعوا عن إيقاظ ضحيتهم المحطمة، لأن الهراء الذي قدّمته إليهم بشكل زائف كان يشغل رؤوسهم الغبية.

لقد انتهى هذا لهذه المرة: إلا أنه لم ينتهِ بعدُ. فبعد اثنين وعشرين عامًا، ما زلت متدليًا على الأرض بذراعين مخلوعتين، لاهثًا ومتَّهِمًا نفسي. لا يوجد في مثل هذه الحالة «قمع». فهل يكبت شخص وحمة[1] بشعة؟ يمكن للمرء أن يزيلها بجراحةٍ تجميلية، لكن الجلد الذي يُزرَع في مكانها ليس الجلد الذي يشعر به المرء بشكل طبيعي.

يمكن للمرء أن يتخلص من التعذيب بقدر ضئيل مثل مسألة إمكانيات حدود مقاومته. لقد تحدثت مع العديد من الرفاق حول هذا الأمر وحاولت إعادة إحياء كل أنواع التجارب. هل يقاوم الرجل الشجاع؟ لستُ متأكدًا. كان هناك، على سبيل المثال، ذلك الشاب الأرستقراطي البلجيكي الذي تحول إلى الشيوعية وكان شيئًا ما كالبطل، وبالتحديد في الحرب الأهلية الإسبانية، حيث قاتل إلى جانب الجمهوريين. لكن عندما أخضعوه للتعذيب في بريندونك، فقد «نتق»،[2] كما ورد في لغة المجرمين العاديين، ولأنه كان يعرف الكثير، فقد خان منظمة بأكملها. ذهب الرجل الشجاع إلى حد بعيد جدًّا في استعداده للتعاون. وقد توجه مع رجال الجستابو إلى منازل رفاقه وشجعهم بحماسة شديدة على الاعتراف بكل شيء، لا أكثر ولا أقل، كان الاعتراف هو أملهم الوحيد، كما قال، بأي ثمن لتجنب

(1) بمعنى علامة خلقية على الجسد.

(2) نتق الشيء من الحلق بالسعال بمعنى أخرجه أو نطق به مكرهًا.

التعذيب. وعرفت آخر، وهو بلغاري ثوري محترف، عُرض لتعذيب بشكل قاسٍ بحيث إن ما عُرّضت له كان بالمقارنة مجرد رياضة شاقة، وقد بقي صامتًا، صامتًا ببساطة وثبات. وينبغي ذكر جان مولان أيضًا هنا، الذي لا يُنسى، والذي دُفِنَ في البانثيون في باريس. لقد اعتُقل كأول رئيس لحركة المقاومة الفرنسية. لو اعترَف لكانت المقاومة بأكملها قد دُمّرت. لكنه حمل استشهاده أبعد من حدود الموت ولم يَخُن اسمًا واحدًا.

من أين تأتي القوة ومن أين يأتي الضعف؟ لا أعرف. ولا أحد يعرف. لم يتمكّن أحدٌ حتى الآن من أن يضع حدودًا واضحة بين القوة «الأخلاقية» لمقاومة الألم الجسدي والمقاومة «بشكل جسدي»، والتي يجب وضعُها أيضًا بين علامتَي اقتباس. هناك أكثر من بضعة اختصاصيين يختزلون مشكلة تحمّل الألم بأكملها إلى عنصر فسيولوجي بحت. وهنا أذكر فقط، رينيه ليريش، أستاذ الجراحة الفرنسي وعضو كلية فرنسا، الذي غامر بالحكم. يقول الأستاذ كالتالي:

«ردود فعلنا غير متساوية تجاه ظاهرة الألم. فبينما أحدٌ يعاني بالفعل لا يبدو الآخر شاعرًا بأي شيء. يتعلق هذا بالنوعية الشخصية لعصَبِنا السمبثاوي وهرمون الغدة الدرقية والمواد المضيّقة للأوعية في الغدد الكظرية. ولا يمكننا أن نتجنّب، في الملاحظة الفسيولوجية للألم أيضًا، مفهوم الشخصية. يُظهر لنا التاريخ أننا أناس اليوم أكثر حساسية نحو الألم مما كان أسلافنا، وهذا من وجهة نظر فسيلوجية بحتة. أنا لا أتحدث هنا عن أي قوة أخلاقية افتراضية للمقاومة، لكنني ما زلت في نطاق علم وظائف الأعضاء. لقد ساهمت علاجات الألم والتخدير في زيادة حساسيّتنا أكثر من العوامل الأخلاقية. ثم إن ردود الفعل على الألم من قبل مختلف الناس ليست هي نفسها على

الإطلاق. لقد منحتنا حَرْبان الفرصة لنرى كيف تختلف الحساسيات الجسدية بين الألمان، والفرنسيين، والإنكليز. وفوق كل شيء، هناك اختلاف كبير في هذا الصدد بين الأوربيين من جهة والآسيويين والأفارقة من جهةٍ أخرى. فالأخير يتحمل الألم الجسدي أفضل بما لا يقاس من الأول.

هكذا هو حكم السلطة الجراحية. من النادر أن تكون محل نزاع من خلال التجارب البسيطة لشخص غير محترف في مهنته، رأى العديد من أفراد وأعضاء المجموعات العرقية يعانون من الألم الجسدي والحرمان. ما أذهلني في هذا الصدد هو أمر لاحظته في معسكر الاعتقال، أن السلاف وخاصة الروس كانوا يتحملون الظلم الجسدي بسهولة وصلابة مقارنةً بما يفعل، على سبيل المثال، الإيطاليون والفرنسيون والهولنديون أو الإسكندنافيون. نحن في الواقع لسنا متساوين كجسد عند مواجهة الألم والتعذيب. لكن هذا لا يحمل مشكلتنا المتعلقة بقوة المقاومة، ولا يعطينا إجابة قاطعة عن سؤال ما هو نصيب العوامل الأخلاقية والمادية فيها. وإذا وافقنا على الاختزال إلى الحدّ الجسدي البحت، فإننا سنخاطر بالعفو في النهاية عن كل نوع من ردود الفعل الوخيمة والجبن الجسدي. لكن إذا ركّزنا حصريًّا على ما يسمّى بالمقاومة الأخلاقية، فسنُضطر إلى قياس تَلميذ إعدادية بعمر سبعة عشر عامًا ضعيفٍ يفشل في تحمل التعذيب بنفس المعايير التي يتحملها عامل يبلغ من العمر ثلاثين عامًا ذو بنية رياضية معتادٌ العمل اليدوي والصعوبات. وعليه، من الأفضل أن نترك السؤال جانبًا، تمامًا مثلما لم أقم في ذلك الوقت بتحليلٍ إضافي لقوّتي على المقاومة، عندما اضطجعتُ في الزنزانة، محطَّمًا ويديّ ما تزالان مقيَّدتَيْن، في اجترار التفكير.

بالنسبة إلى الشخص الذي نجا من التعذيب وبدأت آلامُه تهدأ (قبل أن تتدلع مرةً أخرى)، يمر بسلام عابر يحفز الأفكار. من ناحية، يكتفي الشخص المعذَّب بأنه كان جسدًا فقط ولذلك السبب، كما يعتقد، فهو خالٍ من كل هم سياسي. أنت هناك في الخارج، يقول لنفسه، وأنا هنا في الزنزانة، وهذا يمنحني تفوقًا كبيرًا عليك. لقد عانيت ما لا يوصف، وأنا مملوء به تمامًا، والآن الأمر متروكٌ لكم في كيفية التعامل مع أنفسكم، ومع العالم، ومع اختفائي. من ناحية أخرى، فإن تلاشي الجسد الذي كشف عن نفسه في الألم والتعذيب، ونهاية الاضطراب الهائل الذي انفجر في الجسد، واستعادة الاستقرار الأجوف، مُرضٍ ومريح. حتى إن هناك لحظاتٍ مبهجة، حيث يُحَسّ بعودة قوى العقل الضعيفة على أنها سعادة غير عادية. حزمة الأعضاء التي تسترد ببطءٍ المظهرَ البشري تشعر بالحاجة إلى التعبير عن التجربة فكريًّا، للحين، على الفور، دون إضاعة أقل ما يمكن من الوقت، لأنه ببضع ساعات بعد ذلك قد يكون قد فات الأوان.

التفكيرُ ليس سوى دهشةٍ عظيمة. الدهشة من أنك قد تحملت ذلك، وأن الاضطراب لم يؤدِّ على الفور إلى انفجارٍ في الجسد أيضًا، وما يزال لديك جبهة يمكنك ضربها بيديك المقيدتين، وعين يمكنك فتحها وإغلاقها، وفم يمكن أن يظهر الخطوط المعتادة إذا كان بإمكانك رؤيته الآن في المرآة. ماذا؟ أنت تسأل نفسك: هل كان نفس الشخص الذي كان فظًّا مع عائلته بسبب ألم في أسنانه قادرًا على التعلُّق هناك بذراعيه المخلوعتين وما يزال يعيش؟ الشخص الذي كان لساعاتٍ في حالة مزاجية سيئة بعد حَرْق أُصبُعه بسيجارة، هل مُزِّقَ هنا بالسياط، والآن بعد أن انتهى كل شيء، بالكاد يشعر بجروحه؟ ثم إن الدهشة من حقيقة أن ما

حدث لك، بحق، كان من المفترض أن يصيب فقط أولئك الذين كتبوا عنه في كتيّباتٍ اتّهاميّة: التعذيب. لقد ارتكبت جريمة قتل، لكنها جزء من الصحيفة التي نقلت عنها. وقع حادث طائرة، لكن ذلك يُهمّ الأشخاص الذين فقدوا أقاربَ لهم فيها. الجستابو يعذّبون. لكن ذلك الأمر يتعلق حتى الآن ببعض الأشخاص الذين عُرّضوا للتعذيب والذين كشفوا عن ندوبهم في المؤتمرات المناهضة للفاشية. وعليه، أن تكون نفسك فجأةً شخصًا ما، أمرٌ لا يُستَوعَب إلا بصعوبة. ذلك، أيضًا، هو نوع من الاغتراب.

إذا بقيت أي معرفة من تجربة التعذيب على الإطلاق تتجاوز الكابوس البسيط، فهي دَهْشة كبيرة وغريبة في العالم الذي لا يمكن تعويضه بأي نوع من التواصل البشري اللاحق. جرب الشخص المعذب بدهشة أنه يمكن أن يكون الآخر هنا في هذا العالم صاحب سلطة مطلقة، والسلطة تكشف عن نفسها كقوةٍ لإلحاق المعاناة والتدمير. إن سيطرة الجلاد على ضحيته ليس لها علاقة بالسلطة التي تمارَس على أساس العقود الاجتماعية، كما نعرفها. إنها ليست سيطرة شرطي المرور على المشاة، ولا سلطة موظف الضرائب على دافعي الضرائب، والملازم الأول على الملازم الثاني. ثم إنها ليستِ السيادة المقدسة للزعماء والملوك المطلقين السابقين. لأنهم حتى لو أثاروا الخوف، كانوا في نفس الوقت موضعَ ثقةٍ أيضًا. قد يكون الملك رهيبًا في غضبه، لكنه عطوفٌ في رحمته. كان استبداده ممارسةً للسلطة. لكن سلطة الجلاد التي تشتكي تحتها الضحية، ليست سوى انتصار الناجي على الشخص الذي غرق من العالم في العذاب والموت.

الدهشة من وجود الآخر، الذي يؤكد نفسه بلا حدود من خلال التعذيب، والدهشة مما يمكن أن يُختزل الإنسان ذاتُه إليه: الجسد والموت. لا يكف

المُعذَّب أبدًا عن الاندهاش من أن كل تلك الأشياء التي يفضّل تسميتَها روحه، حسب ميوله، أو نفسه، أو روحه، أو وعيه، أو هويته، تصبح مدمَّرةً عندما تُشَقّ الأكتاف وتُفصَم. أن تكون الحياة هَشّةً هي حقيقة بديهية لطالما عرفها، وأنه يمكن إنهاؤها، كما يقول شكسبير، «بدبوس صغير». لكن أن يُحَوَّل إنسانٌ حيٌّ من خلال التعذيب فقط بشكل فعال إلى جسد محض، ويصبح جزئيًّا، ولمّا يزل على قيد الحياة، فريسةً للموت، فهو أمر لم يختبره إلا من خلال التعذيب.

إن هذا الذي عاش التعذيب لن يشعر أبداً بأنه في وطنه في هذا العالَم. لا يمكن محو الشعور بالعار بأنه دُمِّر. الثقة في العالم، التي انهارت بالفعل جزئيًّا، عند الضربة الأولى، لكنها انهارت كليًّا بسبب التعذيب، لا يمكن استعادتها. أن يُختبَر أخوك الإنسانُ باعتباره معادٍ للإنسان، أمرٌ يبقى في الشخص المُعذَّب كرعبٍ مكبوت، يحجب النظرة إلى عالم يحكمه مبدأ الأمل. يُسَلَّم المُعَذَّب بلا حماية إلى الخوف. إنه الخوف الذي يسيطر عليه من الآن فصاعدًا. الخوف، وما يُسَمّى بالسخط أيضًا. إنهما باقيان، وبالكاد لديهما فرصة لكي يُرَكِّزا إلى عطشٍ هائج ومطهِّرٍ للانتقام.

إلى كم وطنٍ يحتاج الإنسان؟[1]

مرَّ الطريق عبر الليل الشتوي في إيفل، على طريق المُهَرّبين إلى بلجيكا، التي سيرفض مسؤولو الجمارك ورجال الشرطة فيها عبورنا الحدود بشكل قانوني، لأننا جئنا إلى البلاد كلاجئين، دون جوازٍ أو تأشيرة دخول، ودون أي هُوية وطنية صالحة. لقد كان طريق طويل خلال الليل. كان الثلج يصل إلى الركبة. لم يكن التنوب الأسود يبدو مختلفًا عن إخوته في الوطن، لكنه كان التنوب البلجيكي فعلًا. كنا نعرف أنهم لا يريدوننا. يهودي عجوز في خُفّ مطاطي، كان ينزلق من قدميه باستمرار، تَشَبّث بحِزَامٍ مِعطفي، تأوّه ووعدني بكل ثروات العالم إذا سمحتُ له بالتشبث بي فحسب، قال إن شقيقه في أنتوِيرب كان رجلًا مهمًّا وذا سلطة. في مكان ما، ربما في القرب من مدينة يوبين، حملتنا شاحنة ومضت بنا إلى عمق البلاد. في صباح اليوم التالي، وقفتُ أنا وزوجتي الشابة في مكتب البريد في محطة السكك الحديد في أنتويرب وأرسلنا التلغراف بلغة فرنسية مدرسية ركيكة أننا وصلنا بأمان. Heureusement arrive ـ ذلك كان في بداية كانون الثاني

---

(1) هذه ترجمة للعنوان الألماني: «wie viel heimat braucht der mensch?». هناك ترجمات مختلفة للعنوان، فيمكن ترجمته حرفيًا: إلى كم منزل يحتاج الإنسان؟ ومنها الترجمة النرويجية التي تجعله: «ما مقدار الانتماء الذي يحتاج إليه الإنسان؟». أفضّل ترجمتي المشار إليها طبقًا لما يرد في الفصل، عن قضية الهُوية الفردية، إلخ. فمفردة heimat يمكن أن تُترجم إلى وطن، دار، بيت، منزل، إلخ.

1939. بعد ذلك عبرتُ حدودًا عديدة بشكل غير قانوني لدرجة أن الأمر ما يزال حتى الآن يبدو غريبًا ورائعًا بالنسبة إليّ عندما أمر بمركز جمركي بسيارتي، مزوَّدًا بجميع أوراق السفر اللازمة. في هذه الأثناء، يخفق قلبي دائمًا بقوة إلى حد ما، ويطيع ردَّ فعلٍ بافلوفيًّا.

بعد أن وصلنا بأمان إلى أنتويرب وأكّدنا ذلك في برقية لأفراد عائلتنا الذين بقوا في المنزل، واستبدلنا النقود المتبقية معنا، ما مجموعه خمسة عشر مارك وخمسين فنغًا، إذا كنت أتذكر بشكل صحيح. كانت تلك هي الثروة التي كُنا سنبدأ بها حياةً جديدة، كما يُقال. القديم قد هَجَرنا. أإلى الأبد؟ إلى الأبد. لكنني أعرف ذلك الآن فقط، بعد نحو سبعةٍ وعشرين عامًا تقريبًا. دخلنا المنفى بعدد قليل من الأوراق النقدية والعملات المعدِنية الأجنبية. يا له من بؤس. من لم يكن يعرف ذلك، فقد علمته الحياة اليومية في المنفى لاحقًا أن أصل الكلمة الألمانية للبؤس، والتي يشير معناها السابق إلى المنفى، ما تزال تحتوي على تعريفها الأدق.

أي شخص مطّلع على المنفى قد اكتسب الكثير من المعرفة في الحياة لكنه اكتشف أنه يحمل المزيد من الأسئلة. من بين الإجابات، هناك الإدراك، الذي يبدو للوهلة الأولى تافهًا، وأنه ليس هناك عودة، لأن تكرار الدخول إلى مكان لا يُعدّ استردادًا للوقت الضائع أيضًا. ومع ذلك، من بين الأسئلة التي ترهق المنفى من اليوم الأول، إذا جاز التعبير، ولا تتركه مرةً أخرى، سؤالٌ سأحاول إلقاء الضوء عليه في هذا النص دون جدوى، كما أعرف مسبقًا قبل أن أبدأ حقًا: إلى كم وطن يحتاج المرء؟ ما يمكنني اكتشافه في هذا السياق لن يكون له سوى القليل من الصلاحية العامة، لأنني أطرح السؤال من وضعٍ محدد للغاية لشخص نُفِيَ من الرايخ الثالث،

عِلاوةً على ذلك، شخص غادر وطنه، بالتأكيد، لأنه أراد، بأي حالٍ من الأحوال، أن يغادرها في ظل الظروف المعنية، ولكن بالإضافة إلى ذلك ذهب إلى المنفى، لأنه كان مرغمًا على ذلك. ستعارض اعتباراتي بشكل واضح جدًّا، لأسباب عديدة، إذن، مع اعتبارات أولئك الألمان، على سبيل المثال، الذين طُردوا من بلدانهم في الشرق. لقد فقدوا ممتلكاتهم، ومنازلهم، وأعمالهم، وثرواتهم، وربما وظيفة متواضعة فقط، وأبعد من ذلك، فقدوا الأرض والمروج والتلال والغابة وصورة مظلّلة للمدينة والكنيسة التي عُمِّدُوا فيها. لقد فقدنا كل هذا أيضًا. لكننا فقدنا كذلك الناس، وزميل المدرسة في نفس المقعد، والجار، والمعلم. لقد أصبحوا مخبِرين أو فتوّات، وفي أحسن الأحوال كانوا انتهازيين مُخزِيين. وفقدنا لغتنا. لكن «سأتحدث» عن ذلك لاحقًا.

ثم إنه لا يمكن مقارنةُ منفانا بالمنفى الذاتي لأولئك المهاجرين الذين فروا من الرايخ الثالث بسبب إيديولوجيتهم. فالبنسبة إليهم، كان من الممكن التصالح مع الرايخ الثالث والعودة ـ سواء كان ذلك ندمًا، أو بولاء صامت فقط ـ ، وهو ما فعله بعضُهم مثل الروائي الألماني إرنست جلايسر. تبدو المشكلة بالنسبة إلينا، الذين لم يسمح لهم بالعودة في تلك الأيام، وبالتالي الذين لا يمكنهم العودة اليوم، بطريقة أكثر إلحاحًا وإلزامًا. هناك حكايةٌ حول هذا الأمر، وسيُستَشهَد بها هنا، ليس لقيمتها الفكاهية ولكن بسبب فائدتها كتوضيحٍ فقط. يقال إن الروائي إريك ماريا ريمارك زِيرَ مرارًا بعد عام 1933 في منزله في تيسين (Tessin) من قبل مبعوثي وزارة غوبلز، لأنهم أرادوا حَثّ الكتاب المهاجرين الذين كانوا «آريين»، وبالتالي لم يسيطر الشر عليهم تمامًا، على العودة إلى الاهتداء. عندما بقي

ريمارك منعزلًا، سأله مبعوثُ الرايخ أخيرًا: بحق اللّٰه، يا رجل، أليس بك حنينٌ إلى الوطن؟ يقال إن ريمارك قد ردّ: حنينٌ إلى الوطن، ماذا تقصد؟ هل أنا يهودي؟

وبقَدْر ما يتعلق الأمر بي، كنتُ بالتأكيد يهوديًا، كما بلغ بي أن أدرك في عام 1935 بعد إعلان قوانين نورمبرغ، ولهذا فقد كان بي حنين وما زلت أعاني من الحنين إلى الوطن، وهو مرضٌ مرهق وناخر، ليس له جَودة تشبه الأغنية الشعبية، ولا تتمتع بجَودة منزلية، ولا تُقرّها الأعرافُ العاطفية على الإطلاق، التي لا يستطيع المرء أن يتحدث عنها بنبرة آيخندورف.[1] شعرت بذلك لأول مرة بشكل خارق، عندما وقفتُ عند مكتب الصِّرافة في أنتويرب بخمسة عشر مارك، خمسين، ولم يترك لي سوى القليل من ذكرى أوشفيتز، أو عن التعذيب، أو عن عودتي من معسكر الاعتقال، عندما عدتُ مرةً أخرى إلى العالم بوزن حيٍّ يبلغ خمسة وأربعين كيلوغرامًا، مرتديًا بدلة سجين مقلمة ـ بعد وفاة الشخص الذي تمسكت بالحياة لمدة عامين من أجله ـ ورغبة مزدوِجة.

ماذا كان، ما هذا الحنين إلى الوطن لأولئك الذين طردوا من الرايخ الثالث على حد سواء بسبب إيديولوجيتهم أو أصلهم؟ أستفيد، في هذا الصدد، على مضضٍ من مفهومٍ كان بالأمس فقط صرعةً، وربما لم يكن هناك مفهومٌ أكثر ملائمة: حنيني إلى الوطن كان اغترابًا عن الذات. وفجأة دُفن الماضي وعاد لا أحد يعرف من كان هو. لم أحمل في ذلك الوقت بعدُ الاسم الفرنسي المستعار الذي أوقّع به أعمالي اليوم. كانت هُويتي

---

(1) يوزيف فون آيخندورف (1788 ـ 1857) شاعر ورومانسي ألماني وروائي وناقد أدبي.

مرتبطة باسم ألمانيّ بسيط وباللهجة الخاصة بمكان أصْلِيَ المباشر. ولكن منذ اليوم الذي منعني فيه مرسوم رسمي من ارتداء الزي الشعبي الذي كنت أرتديه بشكل حصري منذ الطفولة المبكرة تقريبًا، عدتُ لا أسمح لنفسي باللهجة. ثم عاد لا يكون للاسم الذي كان أصدقائي ينادونني به دائمًا، بصبغة دارجة، معنًى كبيرٌ أيضًا. كان الأمر جيدًا بما يكفي للدخول في سجل الأجانب غير المرغوب فيهم في قاعة مدينة أنتويرب، التي نطقها المسؤولون الفلمنكيون بطريقة غريبة لم أفهمها كثيرًا، وأصدقائي أيضًا، الذين كنت أتحدث معهم بلهجتي الأصلية، مُحُوا. هم فقط؟ أوه، لا، كل ما ملأ وعيي ـ من تاريخ بلدي، الذي ما عاد لي، إلى صور المناظر الطبيعية، التي كبتُّ ذكراها ـ أصبح منذ ذلك الصباح في 12 آذار 1938 لا يُحتمل بالنسبة إليّ، حيث قد لوّح فيه الثوب الأحمر القاني مع العنكبوت السوداء على حقل أبيض حتى من نوافذ المزارع النائية. كنتُ شخصًا عاد لا يكون بوسعه أن يقول «نحن»، ولذلك قال «أنا» لمجرد العادة، ولكن ليس بإحساس الامتلاك الكامل لنفسي. حَدَثَ في بعض الأحيان أنه في محادثة مع مُضيفي أنتويرب الخيرين إلى حد ما، أن تدخلت بشكل عرضي: معنا في الوطن يكون الأمر مختلفًا. «معنا» (Bij ons). بدا الأمر للأشخاص الذين كنتُ أتحدث معهم كأنه أكثر الأشياء طبيعيةً في العالم. ومع ذلك، خجلت، لأنني علمت أن ذلك كان افتراضًا. عدتُ لا أكون كـ«أنا»، ولم أكن أعيش داخل «نحن». لم يكن لدي أي جواز سفر، ولا ماضٍ ولا مال ولا تاريخ. لم يكن هناك سوى سلالة الأجداد، إنما تألفت من فرسان حزينين بلا أرض، مصابين باللعنة. بالإضافة إلى ذلك، فقد حُرموا لاحقًا حقهم في الإقامة، واضطُررت إلى اصطحاب أشباحهم إلى المنفى.

«V'n wie kimmt Ihr?» ـ من أين أنت، سألني يهوديٌّ بولندي مرةً باللغة اليديشية، الذي كان الترحال والطرد بالنسبة إليه بمثابة تاريخ عائلي، وأصبحت ديمومةُ المسكن بالنسبة إليّ بلا معنًى. لو أنني أخبرته أنني جئت من Hohenems، فمن الطبيعي أنه لا يستطيع معرفة ذلك المكان. ألم يكن أصْلِيّ، في النهاية، لا أهمية له تمامًا؟ كان أسلافه يمشون مع صررهم عبر القرى المحيطة بـ(لفوف ـ Lvov)، وأسلافي في القُفاطين بين فيلدكيرش وبريغنز. عادَ لا يوجد أي فرق. لم يكن رجال جيش الإنقاذ وقوات الأمن الخاصة بجودة القوزاق. والرجل الذي أطلقوا عليه اسم الفوهرر في الوطن كان أسوأ بكثير من القيصر. واليهودي الرحالة كان لديه أكثر من المنزل مني.

إذا كنتُ سأسمح لنفسي بالفعل بأن أقدم إجابة أولية ومؤقتة عن السؤال حول مقدار الانتماء[1] الذي يحتاج إليه الإنسان، فسأقول: إنه يحتاج إلى المزيد كلما كان ما يحمله معه أقل. لأنه يوجد، مع ذلك، شيءٌ يشبه الوطن المتنقل، أو على الأقل بديلٌ عن الوطن. يمكن أن يكون دينًا، كالديانة اليهودية. وَعَد اليهود لأجيال أنفسهم خلال طقوس عيد الفصح: «العام المقبل سنكون في القدس»، لكن الأمر لم يكن يتعلق حقًّا بالوصول إلى الأرض المقدسة، بل الأحرى حول نُطق الصيغة معًا، وبالتالي تأكيد العلاقة مع الموطن السحري لإله القبيلة يهوه. يمكن أن يكون المال بديلًا عن الوطن. ما زلتُ أرى أمامي اليهوديّ من أنتويرب، الذي كان أثناء فراره من الألمان في عام 1940، جالسًا في مرج فلمنكي يُخرج الأوراق النقدية

(1) يمكن أن تُترجم إلى وَطَن او بيت.

الأمريكية من حذائه ويعدّها ببطء وجِدّية. كم أنت محظوظ بحمل الكثير من النقود معك! قال له رجلٌ آخر حسدًا. أجابه حاسب الأوراق النقدية وبطريقة جليلة بلغته الفلمنكية التي كانت ممزوجة باليديشية: «In dezen tijd behoord de mens bij zijn geld» ـ في هذه الأوقات ينتمي الرجل إلى ماله. لقد حمل معه وطنه بعملة أمريكية جيدة: ubi Dollar ibi patria [أين كان الدولار وُجِد الوطن].

الشهرة والمنزلة، أيضًا، يمكن أن يكونا مقابلًا مؤقتًا للوطن. قرأتُ الأسطر التالية في مذكرات هاينش مان Ein Zeitalter wird besichtigt: «لقد ذُكر اسمي لرئيس بلدية باريس. لقد جاء إليّ بذراعين ممدوتين: C'est vous, l'auteur de I' Ange BIeu! (هذه هي أعلى ذروة شهرة أعرفها). كان الكاتب العظيم يقصدها بشكل ساخر، لأنه شعر على ما يبدو بالإهانة لأن شخصية فرنسية عرفت عنه فقط أنه كتب رواية استند إليها فيلم «الملاك الأزرق». الى أي حدّ يمكن أن يكون الكُتّاب الكبار عديمي الشكر! كان هاينريش مان مَصُونًا ويتمتع بالأمان في بلاد الشهرة، حتى لو كان من الممكن تعرُّف هذه الشهرة جزئيًا فقط بطريقة كوميدية في أرجل مارلين ديتريش.

أما بالنسبة إليّ، فقد كنت مقتلَعًا تمامًا، ضائعًا في طابور اللاجئين الذين اصطفّوا أمام لجنة الإعانة اليهودية في أنتويرب لاستلام مساعدتهم الأسبوعية. الكُتّاب المهاجرون ذوو اللغة الألمانية، الذين كانوا في ذلك الوقت مشهورين، أو على الأقل معروفين إلى حد ما، والذين كانت وثائقُهم عن المنفى قد جُمِعَت الآن في مجلد Verbannung وصدرت عن دار نشر Wegner Publishers. كانوا يجتمعون في باريس، وأمستردام، وزيورخ،

وساناري سور مير، ونيويورك. كان لديهم أيضًا مخاوفُ وتحدثوا عن التأشيرات وتصاريح الإقامة وفواتير الفنادق. لكن تناولت محادثاتهم أيضًا مراجعة كتاب نُشر مُؤخرًا، أو اجتماعًا لجمعية الكتاب، أو مؤتمرًا دوليًا مناهضًا للفاشية. لقد عاشوا، عِلاوة على ذلك، في الوهم بأنهم صوت «ألمانيا الحقيقية»، وهو صوتٌ يمكن رفعه بصوت عالٍ في الخارج من أجل الوطن الأم الذي تقيّده الاشتراكية القومية. لا شيء من ذلك القبيل مجهول بالنسبة لنا. ليس هناك لعبة مع ألمانيا الحقيقية المتخيَّلة، التي جلبناها معنا، ولا طقوس رسمية للثقافة الألمانية محفوظة في المنفى لأيام أفضل. عاش اللاجئون المجهولون حياةً اجتماعية كانت أصدق للواقع الألماني والعالمي. وقد حدد هذا وعيًا سمح وطالب وفرض اعترافًا أشمل بالواقع. كانوا يعرفون أنهم منبوذون وليسوا أمناء متحف غير مرئي للتاريخ الثقافي الألماني. لقد فهموا بشكل أفضل أنهم أصبحوا بلا مأوًى، ولأنهم لا يمتلكون أي نوع من البدائل المتنقلة للوطن، يمكنهم أن يدركوا بوضوح مدى احتياج الشخص إلى وطن.

بالطبع، لم تكن لدي رغبة في أن يُقبَض علي بسبب التخلف عن جيش الدم والتربة، لهذا السبب أريد أن أوضّح بشكل صريح أنني على دراية جيدة أيضًا بالثراء والفُرَص التي قَدّمها لنا التشرد. أعرف كيف أقدّر النظرة الأوسع للعالم التي منحتنا إياها الهجرة. سافرتُ إلى الخارج ولم أكن أعرف عن بول إيلوار أكثر من اسمه، في حين اعتبرتُ كاتبًا اسمه هاينريش فاغرل شخصية أدبية مهمة. لدي سبعة وعشرون عامًا في المنفى خلفي، وأبناء وطني الروحيون هم بروست وسارتر وبيكيت. إلا أنني ما زلت مقتنعًا بأنه يجب أن يكون للمرء مواطنون في شوارع القرية والمدينة

إذا أردنا الاستمتاع الكامل بالروحانيين، وأن تزدهر الأمية الثقافية جيدًا فقط في تربة الأمن القومي. عاش توماس مان وألقى محاضراته في أجواء كاليفورنيا الأنجلو ـ ساكسونية، وكَتَب بقوة من الثقة بالنفس القومية دكتور فاوست الألماني بشكل نموذجي. على المرء أن يقرأ فقط كتاب سارتر الكلمات (*Les mots*) ويقارنه بالسيرة الذاتية لتَلميذه المهاجر أندريه غورز: في حالة سارتر، الفرنسي الأصيل، منح التجاوز والاستيعاب الديالكتيكي لتراث السارتريين والشْفايتزريين وزنه وقيمته العالمية. أما في حالة غورز، المهاجر النمساوي نصف اليهودي، البحث المحموم عن الهوية، الذي لا يوجد وراءه سوى التوق فحسب إلى جذور وطن حرّر سارتر نفسه منه بطريقة رجولية وفخورة. ينبغي أن يملك المرء وطنًا كي لا يحتاج إليه، تمامًا كما هو الحال في الفكر، إذ يجب أن يكون المرء متمكنًا في مجال المنطق المنهجي من أجل المضيّ قُدمًا إلى مناطقَ أخصب للعقل.

ولكن حان الوقت لأوضّح ماذا أعني بالفعل بهذا الوطن الذي يبدو ضروريًّا جدًّا بالنسبة إليّ. يجب أن نحرر أنفسنا، عندما نفكر في الأمر، من المفاهيم النمطية الرومانسية التقليدية، والتي سنواجهها، بالتأكيد، مرةً أخرى في شكل متغيّر، كمفاهيم معدّلة، عند نقطة أعلى في دُوامة الفكر. الوطن، مختزَلًا إلى المحتوى الأساسي النفسي الإيجابي للفكرة، هو *الأمان*. إذا فكرتُ في الأيام الأولى من المنفى في أنتويرب، فما تزال لدي ذكرى مشوشة على أساسٍ مهزوز. إن مجرد حقيقة أن المرء لا يستطيع فكّ رموز وجوه الناس أمرٌ مخيف. كنتُ أتناول البيرة مع رجل ضخم، خشن العظام، ذي جمجمة مربعة، ربما كان مواطنًا فلمنكيا محترمًا، وربما

أرستقراطيًا، ولكن كان من الممكن أن يكون أيضًا فظًا حقودًا مشبوهًا على وشك أن يلكمني في وجهي ويستولي على زوجتي. كانت الوجوه، والإيماءات، والثياب، والبيوت، والكلمات (حتى لو فهمتها جزئيًا) حقيقة حسيّة، لكنها ليست إشاراتٍ قابلةً للتفسير. لم يكن هناك نظام لي في هذا العالم. هل كانت ابتسامة ضابط الشرطة الذي دقّق أوراقنا طيبة الطباع، أو لا مبالية، أو ساخرة؟ هل كان صوته العميق مستاءً أو مفعمًا بالنية الحسنة؟ لم أعرف. هل كان اليهودي الملتحي العجوز، الذي فهمت أصواته المقرقرة، مع ذلك، على أنها جملٌ، تعني أنه معنا أو أنه كان يكرهنا، لأننا حرّضنا بمجرد وجودنا في شوارع المدينة السكان الأصليين ضده، الذين سئموا فعلًا من الأجانب، ويعانون من مشاكل اقتصادية وبالتالي يميلون إلى معاداة السامية؟ ترنحت في عالم أعيدت تسمية علاماته على أنها مبهمة بالنسبة إلي مثل الكتابة الإترورية.[1] لكن، على خلاف السائح، الذي قد تكون مثل هذه الأشياء بالنسبة إليه شكلًا حادًّا من الاغتراب، كنتُ رهنًا بهذا العالم المملوء بالألغاز. فقد كان الرجل ذو الجمجمة المربعة، العميل السياسي ذو الصوت الغاضب، واليهودي صاحب الصوت المقرقر، هم سادتي ولورداتي. وقد شعرتُ أحيانًا بالضعف أمامهم أكثر مما كنتُ عليه أمام رجل القوات الخاصة SS في الوطن، فبسببه على الأقل كنتُ أعرف على وجه اليقين أنه كان غبيًّا ولئيمًا، وأنه كان يلاحق حياتي.

(1) إشارة إلى الحضارة الإترورية أو الإتروسكية. وقد غطت هذه الحضارة في إيطاليا القديمة، في أقصى حد لها، ما يُعرف الآن بتوسكانا، وأمبريا الغربية، وشمال لاتسيو، إضافة إلى أجزاء أخرى. يرجع أقدم دليل يمكن تعرّفه على الثقافة الإترورية إلى حوالي 900 قبل الميلاد.

أقول إن الوطن هو الأمن. في الوطن نتحكم بشكل كامل بديالكتيك المعرفة والاعتراف، والثقة والاطمئنان. نظرًا إلى أننا نعرفهم، فإننا نتعرف إليهم ونثق بأنفسنا للتحدث والعمل ـ فقد تكون لدينا ثقةٌ مبررة بمعرفتنا وتقديرنا. المجال الكامل للكلمات المترابطة: مُخْلِص، ومألوف، وواثق، وأن تثق، وأن تؤتمن، والثقة، كلها تعود إلى المساحة النفسية الأوسع للشعور بالأمان. ومع ذلك، يشعر المرء بالأمان، حيث لا يتوقع حدوث أي عارض، وحيث لا يكون هناك شيء غريب تمامًا يمكن الخوف منه. إن العيش في وطننا يعني أن ما هو معروف لدينا بالفعل يحدث أمامنا تكرارًا ومرارًا بأشكال طفيفة. يمكن أن يؤدي ذلك إلى عزلة وإلى ذبول ثقافي في المحلية ـ لو كان المرء يعرف وطنه فقط ولا شيء آخر. ومع ذلك، إذا لم يكن للمرء وطن، يصبح عرضة للاضطراب والتشوش والتفكك.

يمكن الاعتراض، على أبعد تقدير، على أن المنفى قد لا يكون مرضًا عضالًا، ما دام يستطيع المرء أن يجعل من البلدان الأخرى وطنًا له من خلال العيش الطويل فيها ومعها: ذلك يسمى العثور على وطن جديد. وهو صحيح بقدر ما يتعلم المرء ببطء فك الرموز. من المحتمل أن يكون المرء في بلاد غريبة في وطنه إلى درجة كبيرة لدرجة أنه في النهاية تكون لديه القدرة على تحديد الناس اجتماعيًا وفكريًا على أساس كلامهم وملامحهم وملابسهم، وأن يتعرف المرء منذ النظرة الأولى العُمُرَ والوظيفة والقيمة المالية لِسَكَنٍ، وأن يربط دون عناء مواطنيه الجدد بتاريخهم وفلكلورهم. ومع ذلك، لن يكون اختراقُ الرموز عملًا عفويًا بل فعلًا فكريًا، عملًا مقترنًا باستهلاك معين للجهد العقلي حتى في هذه الحالة المواتية بالنسبة إلى الشخص المنفي الذي جاء إلى البلد الجديد كشخص بالغ مسبقًا.

تصبح تلك الإشارات فقط التي استوعبناها في وقت مبكر جدًّا، التي تعلمنا تفسيرها في نفس الوقت الذي كنا نتملّك فيه عالمنا الخارجي، عناصر بنيوية وثوابتَ في شخصيتنا. مثلما يتعلم المرء لغته الأم دون معرفة قواعدها، فإنه يجرب محيطه الوطني. تنمو اللغة الأم والعالم الوطني معنا، وينموان في داخلنا، وبالتالي يصحبان الألفة التي تضمن لنا الأمن.

وهنا نواجه مرةً أخرى المفهوم التقليدي للوطن، الذي نُقل إلينا من خلال الأغاني الشعبية وحكمة الأمثال المبتذلة، والتي تجنبتها بشكل مؤقت. يا لها من ذكريات غير مرحب بها تندفع معنا! حكايات الجدّة الخرافية، ووجه أم عليٍّ السرير، ورائحة الليْلَك من حديقة الجار. ولماذا لا تدور المغازل أيضًا ونغنّي تحت أشجار الزيزفون في القرية، على النحو الذي ما زلنا عليه من خلال الأدب فقط؟ يود المرء أن يبدد النغمات الحلوة المحرجة تلك التي ارتبطت بكلمة الوطن والتي تستدعي سلسلة من المفاهيم المربكة إلى حد ما: الحرف والفنون الإقليمية، والأدب الإقليمي، والحماقة الإقليمية بجميع أنواعها. لكنها عنيدة وتبقى في أعقابنا وتفرض تأثيرها. لا يحتاج المرء، لا سمح اللّه، إلى أن يفكر في الدونية الثقافية فور سماع كلمة الوطن. ليكن كاروسا[1] الكاتب الوسط الذي كان عليه. لكن ماذا سيكون جويس دون دبلن، وجوزيف روث دون فيينا، وبروست دون إيليرز؟ قصص مدبرة المنزل فرانسواز والعمة ليوني في ريشرش هي أيضًا أدب محلي. ذلك التبلد الرجعي الذي هيمن على كل مجموعة الأفكار المرتبطة بالوطن لا يُلزمنا بتجاهلها. لذلك، وبوضوح شديد، مرةً أخرى: ليس هناك «وطنٌ جديد». الوطن هو أرض طفولة المرء وشبابه. من فَقَده،

(1) إشارة إلى الشاعر والروائي الألماني هانس كاروسا الذي عاش في الفترة 1878 ـ 1956.

يبقى فاقدًا نفسه، حتى لو تعلّم أن لا يتعثر في البلد الأجنبي كما لو كان مخمورًا، بل أن يطأ الأرض ببعض الشجاعة.

من المهم بالنسبة إليّ هنا أن أحدد مدى وعواقب فِقدان الوطن الذي أصابنا نحن الذين كنا في المنافي من الرايخ الثالث، وبالتالي يجب أن أشرح بمزيد من التفصيل ما ذكرته حتى الآن بإيجاز فقط. كل تداعيات هذه الخسارة لم تتضح لي حقًّا إلا عندما تعقبني الوطن في عام 1948 في شكل القوات الغازية الألمانية. حدثت لي تجربة مخيفة بشكل خاص، مررتُ بها عام 1943، قبل وقت قصير من القبض عليّ. كان لمجموعتنا المقاومة في تلك الأيام قاعدة في شقة فتاة، احتُفِظَ بِمَكِنَةِ النسخ التي أنتجنا منشوراتنا غير القانونية بها. ذكرت الشابة في مناسبة، التي لا تعرف الخوف، والتي دفعت حياتها لاحقًا، عَرَضًا في محادثة أنّ هناك جنودًا ألمانًا يعيشون في منزلها أيضًا. ومع ذلك، بدا لنا هذا الأمر، فيما يتعلق بأمن مقرنا، أفضل من عدمه. في الواقع، حدث في أحد الأيام أن شعر الألماني الذي يسكن تحت مخبئنا بالانزعاج في فترة استراحته ما بعد الظهيرة بسبب حديثنا وأفعالنا. صَعِد السلالم، وطرق على الباب بعنف واندفع عبر العتبة صاخبًا: رجل من القوات الخاصة SS مع صديرة السترة السوداء وشارة منسوجة لكل شيء للخدمة السرية! كان كل واحد منا شاحبًا، وأصابه خوفٌ مميت، لأن أدوات عمل الدعاية لدينا كانت موجودة في الغرفة المجاورة، والتي لم تهدد وجود الرايخ كثيرًا. ومع ذلك، لم تكن لدى الرجل، الذي كان يرتدي سترته الرسمية المفكوكة الأزرار، بشعره الأشعث، وحدق إلينا بعيون مخدرة نائمة، أي نيّاتٍ مناسبة لمهنته ككلب صيد. طلب بزمجرةٍ السلامَ لنفسه ولزميله الذي كان تَعِبًا من الواجب الليلي. لقد طرح طلبه ـ

وقد كان هذا بالنسبة إليّ الجزء المخيف حقًّا من الحدث بلهجة مِنْطَقتي الأصلية الأكثر مباشرة. لم أسمع هذه اللهجة منذ فترة طويلة، ولهذا السبب أثارت في داخلي الرغبة المجنونة في الرد عليه بلهجته الخاصة. كنت في حالة عاطفية متناقضة، حالة عاطفية نَزِقة تقريبًا من الخوف المرعب، وفي الوقت نفسه، تَنَامت ودّية حميمية، فبالنسبة إلى الزميل، الذي لم يكن في هذه اللحظة يتعقب بالضبط حياتي، ولكن مهمته الناجزة بفرح كانت أخذ أشخاصًا مثلي بأعداد كبيرة على قدر الإمكان إلى معسكر الموت، بدا لي فجأةً كصديق ممكن. ألم يكن كافيًا مخاطبته بلغته، لغتي، للاحتفال بوطنيّتنا المحلية وتصالحنا على كأس نبيذ؟

لحسن الحظ، كان الخوف والسيطرة على العقل قويّيْن بما فيه الكفاية لتردعاني عن الخطة السخيفة. لقد تلعثمت بعباراتِ اعتذارٍ فرنسية، مما هدّأه على ما يبدو. غادر الرجل صافقًا الباب مكان التخريب وأنا، الطريدة المُعَدّة لواجبه العسكري الذي أحياهُ شغفُ الصياد. أدركتُ في تلك اللحظة تمامًا، وإلى الأبد، أن وطني كان بلدًا معاديًا، وأن الرفيق الطيب قد أُرسل من الوطن المعادي إلى هنا ليبيدني.

لقد كانت تجربةً عادية إلى حد ما. لكن لم يكن من الممكن أن يحدث شيءٌ مماثل لأي لاجئ ألماني من الشرق، مثلما حدث لمهاجر من هتلر كان يبني قلاعًا للثقافة الألمانية في الهواء في نيويورك أو كاليفورنيا. يعرف اللاجئ الألماني من الشرق أن قوةً أجنبية سَلَبت بلاده منه. حَسبَ المهاجر الثقافي، الذي كان يعيش في أمان، أنه ما يزال يحيك خيطَ مصير الأمة الألمانية، التي غلبتها مؤقتًا فقط وبالمثل قوةٌ أجنبية، الاشتراكية الألمانية. مع ذلك، لم نخسر بلدنا، لكن كان علينا أن ندرك أنه لم يكن بلدنا أبدًا. كان

كل ما كان مرتبطًا بهذه الأرض بالنسبة إلينا سوءَ فهمٍ وجوديًا. ما اعتقدنا أنه حُبّنا الأول، كما قالوا هناك، كان شُبّة عرقية. وما كنا نظن أنه يشكل طبيعتنا ـ هل كان شيء آخر سوى التقليد؟ بافتراض بعض الصدق الفكري، كان من المستحيل تمامًا بالنسبة إلينا، نحن الذين عشنا في أثناء الحرب تحت الاحتلال من وطن معادٍ، أن نفكر في بلادنا على أنها مضطَهَدة من قبل قوة أجنبية: كان يحدث أن نلتقي مواطنينا، نحن المختبئين وراء اللغات البلجيكية ومتنكرين بملابسَ ذات طراز وذوق بلجيكي، في الشوارع والحانات في حالة مزاجية جيدة. كانوا يعلنون أنفسهم، إذا دخلنا معهم في محادثة بلغة ألمانية ركيكة عن عمد، بالإجماع أنهم مع الفوهرر ونشاطاته. كانوا يغنون بأصوات قوية للشباب الواثق، أنهم يريدون السير نحو إنكلترا. وردّدوا، في كثير من الأحيان أثناء المسيرة، أغنيّةً غبيةً تقول إن اليهود كانوا يطوفون ذهابًا وإيابًا عبر البحر الأحمر حتى اجتاحتهم الأمواجُ ونَعم العالم بسلام. كان ذلك أيضًا قويًا بشكل إيقاعي وحَظِي بالموافقة. بهذا الشكل كان وطننا قد أسَرَنا، وبهذه الطريقة رَنّ صوتُ جرسٍ لغتنا الأمّ في آذاننا.

سيفهم المرء الآن بشكل أفضل ما قصدته عندما تحدثت عن طبيعة حنيننا إلى الوطن، الذي كان جديدًا تمامًا ولم تحدده أيّ مشاعر تقليدية مسجلة في الأدب. الحنين التقليدي، حسنًا، نعم، كان لدينا ذلك أيضًا، كإضافة صغيرة. استقيناه من داخلنا بحنين مُدّعٍ إلى الماضي (لأننا لم نكن مستحقين له) كلّما تحدثنا مع الأهالي عن وطننا. إذن كان موجودًا وتضخّم في هناء دامع، لأنه كان علينا أن نتصرف أمام البلجيكيين، سواء أحببنا ذلك أو لا، كأنّنا ألمان أو نمساويون، وبدقة أكبر: لقد كنا في تلك اللحظات حقًّا (ألمانًا)، لأن الأشخاص الذين كنا نتحدث معهم أجبروا

وطننا علينا ووصفوا الدور الذي كان يتعين علينا القيام به. كان الحنين التقليدي بالنسبة إلينا، وهو لكل من يسعد بحلاوته المرّة، رثاءً ذاتيًا مُعَزٍّ. لكن كان هناك تيار خفيٌّ دائمٌ من الوعي بأننا استولينا عليه بشكل غير شرعي. كانت هناك أوقاتٌ نغني فيها، عندما كنا نشعر بالاسترخاء بسبب الكحول، الأغاني المحلية لمعارفنا في أنتويرب بلهجتنا، مخبرينهم عن الجبال والأنهار في الوطن، وكنا نمسح في السر دموعَنا. يا له من احتيالٍ عاطفي! رحلاتٌ إلى الوطن بأوراقٍ مزوّرة وأصول مسروقة! كان علينا تمثيلُ ما كُنا عليه، لكن لم يكن لدينا الحق في أن نكون ذلك. يا له من عمقٍ أحمقَ زائفٍ!

كان الحنين الحقيقي إلى الوطن، الـ«Hauptwehe»، إذا سُمح لي، مع كل الاحترام، أن أسرق من توماس مان، من نوع مختلف وأثّر فينا عندما كنا وحيدين. من ثَمّ عادت لا توجد أغانٍ، ولا إثارة متدفقة من المناظر الطبيعية المفقودة، ولا عينٌ دامعة ترمش في نفس الوقت وتطلب المشاركة. لم يكن الحنينُ الصادق إلى الوطن رثاءً للذات، بل بالأحرى تدميرًا ذاتيًا. كان يتألف من تدمير ماضينا جزءًا جزءًا، وهو ما لا يمكن القيام به دون احتقار وكراهية الذات المفقودة. دُمِّرَ الوطنُ العدواني من قبلنا وطمسنا في نفس الوقت الجزء المرتبط به من حياتنا. مزيج الكراهية لوطننا وكراهية الذات مؤلمٌ، ويتفاقمُ الألم بشكلٍ لا يطاق عندما كان الحنينُ التقليدي للوطن بين الحين والآخر، أثناء المهمة الشاقة لتدمير الذات، يتفاقم ويستحق مكانه. ما كنا نتمناه بشكل ملح، وما كنا ملزَمين به اجتماعيًّا، أن نكره، تجلى فجأةً أمامنا واستدَعى حنينًا. حالةٌ عصابية مستحيلة تمامًا ولا يوجد علاجٌ نفسي لها. كان يمكن أن يكون العلاج الوحيد هو التاريخ في الممارسة. أعني

الثورة الألمانية ومعها رغبةُ الوطن الشديدة في عودتنا. لكن الثورة لم تحدث، وكانت عودتُنا لا شيء سوى إحراجٍ لوطننا عندما سُحِقت القوة الاشتراكية القومية من الخارج.

كانت علاقتنا بوطننا شبيهةً بتلك العلاقة مع لغتنا الأم أثناء سنوات المنفى. وبمعنًى محددٍ للغاية، فقد فقدناها أيضًا ولا يمكننا بدء إجراءات الاسترداد. في الكتاب السابق Verbannung، وهو مجموعة من الوثائق لكتّاب ألمان، قرأتُ ملاحظاتٍ للفيلسوف غونتر أندرس يقول فيها: «لا يمكن لأحد أن يتنقل حصريًّا في لغاتٍ لم يتقنها وفي أحسن الأحوال يكررها مثل الببغاء بشكل سيئ، دون الوقوع ضحية لخطابه الرديء... بينما لم نتعلم بعدُ لغتنا الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الإسبانية، بدأت لغتنا الألمانية في الانحطاط جزءًا فجزءًا، وفي الغالب بشكل غير محسوس وتدريجي لدرجة أننا لم نلاحظ الخسارة». ومع ذلك، فإن هذا لا يشمل إلى حد بعيد مشكلة اللغة بأكملها للمنفيين. بدلًا من «انهيار» اللغة الأم، أفضّل التحدث عن تقلصها. لقد تنقلنا ليس في اللغة الأجنبية فحسب، ولكن أيضًا، في تضييق حدود قاموس المفردات التي تكرر نفسها باستمرار، عندما استخدمنا اللغة الألمانية. دارتِ المحادثاتُ مع رفاقنا في المحنة، بحكم الضرورة، حول نفس المواضيع: في البداية حول قضايا كسب العيش، وتصاريح الإقامة، وأوراق السفر، وفي وقت لاحق، تحت الاحتلال الألماني، حول الخطر المحدق بالموت. أولئك الذين تحدثوا معنا لم يزوّدوا لغتنا بأي مادةٍ جديدة، لقد عكسوا لغتنا فقط. كنا دائمًا ندور في حلقة من نفس المواضيع، ونفس الكلمات، ونفس العبارات، وفي أحسن الأحوال،

أثرينا خطابنا بطريقة قبيحة من خلال توليد عباراتٍ بلا مبالاة من لغة البلد المضيف.

هناك في الوطن المعادي، اتبعت اللغة مسارها الخاص، ليس لأنها لغة جميلة نشأت هناك، ليس ذلك. لكنها كانت ـ جنبًا إلى جنب *قنابلها العدوانية، ونشاطها الحربي، ومحطة سيطرة أمامية، بل حتى مع كل التعابير من اللغة العامية النازية* ـ لغةً تنتمي إلى الواقع. كل الكلام المطوّر تصويري، سواء كان يخبرنا عن شجرة تمتد بتحدٍّ بغصنٍ عارٍ نحو السماء، أو عن اليهودي الذي ينفث سُمّه الآسيوي في الجسد الألماني. تُوَفَّر مادةُ الاستعارة دائمًا بواسطة واقعٍ بيّن. لقد استُبعِدنا من الواقع الألماني، وبالتالي أيضًا عن اللغة الألمانية. أنكر معظمُ المنفيين على أنفسهم أجزاء منها كانت تنجرف من ألمانيا إلى البلدان المحتلة على أي حال، بحجة صحيحة نظريًّا، ولكن عمليًّا مفيدة جزئيًّا فقط، وهي أن اللغة الألمانية هناك كانت فاسدة وكان لديهم مهمة إبقائها «طاهرةً». وتحدثوا بنفس الوقت جزئيًّا عن «صينيّتهم» المهاجرة، وهي جزئيًّا لغة اصطناعية شُوّهت أمام أعيننا بشوائبِ العصر القديم. وبالإضافة إلى ذلك، لم يشكّوا في مقدار التراث اللغوي، أو إذا صح التعبير، فإن القمامة اللغوية من هذا الزمن ستبقى على قيد الحياة لفترة طويلة بعد انهيار هتلر، وهي ستنتقل بدورها إلى اللغة الأدبية.

قام آخرون مثلي بمحاولة يائسة للتشبث باللغة الألمانية المتقدمة. كنتُ أقرأ يوميًّا جريدة «Brusseler Zeitung» على الرغم من النفور الشديد، وهي لسان حال قوة الاحتلال الألمانية في الغرب. إنها لم تفسد لغتي، لكن لم تدعمها أيضًا. لأنني استُبعدتُ من مصير المجتمع الألماني،

وبالتالي من لغته أيضًا. «قنابل عدوّةٌ»، نعم، لكن كانت قاذفات القنابل الألمانية بالنسبة إليّ هي التي تدمّر مدن إنكلترا، وليس القلاع الأمريكية الطائرة، التي قامت بنفس العمل في ألمانيا. لقد تغير معنى كل كلمة ألمانية بالنسبة إلينا، وفي النهاية، سواء قاومنا أو لا، أصبحت لغتنا الأم معادية تمامًا مثل اللغة التي يتحدثون بها من حولنا. كان مصيرنا، هنا أيضًا، مختلفًا تمامًا عن هؤلاء المهاجرين الذين عاشوا بأمان في الولايات المتحدة، وفي سويسرا، وفي السويد. كانت الكلمات محمَّلة بواقع معين، وهو التهديد بالموت. «أنت تملأ ثانية الخميلة والوادي» ـ لا توجد هنا كلمة واحدة بحيث إن القاتل الذي يقف أمامنا بخنجر مُشْهَر لا يمكنه استخدامها أيضًا بشكل متكرر.[1] الخميلة والوادي، ذلك هو المكان الذي ربما حاول المرء الاختباء فيه، ولكن تُعُقِّبَ أحدهم في البريق الضبابي. وهل أحتاج إلى أن أقول إن مضمون الواقع القمعي جدًّا لِلُغتنا الأم، الذي خنقنا في منفًى تحتله ألمانيا، كان له استمرار رهيب وما يزال يُثقل كاهل لغتنا؟

ومع ذلك، حتى لو تَبيّن أن اللغة الأم معادية، فلن تصبح اللغة الأجنبية أبدًا بنفس القدر صديقًا حقيقيًّا. لقد تصرفت وما تزال تتصرف بطريقة متحفّظة ولا تستقبلنا إلا في زيارات مجاملات قصيرة. يستدعيها أحدهم، *تعالوا في زيارة أيها الأصدقاء des amis*، وهي ليست نفس الشيء كما يكون بين الأصدقاء. فالطاولة *La table* لن تكون أبدًا الطاولة *der Tisch* ـ يمكن للمرء في أحسن الأحوال أن يأكل كفايته عليها. حتى حروف العلة الفردية، وعلى الرغم من أنها كانت تتمتع بنفس الصفات الملموسة مثل

---

(1) الصور موجودة في قصيدة غوته «an den Mond» ـ إلى القمر ـ التي تبدأ بأبيات: «مرةً أخرى تملأ الخمائل والوادي، بلمعان ضبابي».

مفرداتنا المحلية، كانت غريبةً وظلت كذلك. يمر على بالي كيف سمعت في الأيام الأولى للمنفى في أنتويرب فتى الحليب[1] يقول «ja»[2] عند باب المنزل بينما يسلم بضاعته. قالها بالهولندية بلكنة فلمنكية، ومع ذلك الظلام بالضبط فإن الحرف A يشبه الحرف 0 الذي يكون عادةً في لهجتي المحلية. كانت كلمة «ja» مألوفة وغريبة في نفس الوقت، وفهمت أنني في اللغة الأخرى سأستحق دائمًا كرم ضيافة مؤقتًا فقط. كان فم الصبي، عندما قال «ja»، أجنبيًا لي. وقد بدا الباب الذي نطق أمامه الكلمة مختلفًا عن باب بيت في الوطن. لقد كانت السماء فوق الشارع سماءً فلمنكية. كل لغة هي جزء من واقع كامل يجب أن يكون للمرء حق ملكية راسخ إذا كان على المرء أن يدخل منطقة تلك اللغة بضمير صالح وخطوة واثقة.

لقد حاولت بحثَ وتعقّب معنى فِقدان الوطن واللغة الأم بالنسبة إلينا الذين نُفُوا من الرايخ الثالث. ومع ذلك، فإن السؤال عما يعنيه الوطن بشكل عام للإنسان المعاصر، وبصرف النظر عن المصير الشخصي، يطرح نفسه على المرء، ويتطلب عنوان بحثي إجابةً. إن مزاج العصر ليس مواتيًا لفكرة الوطن، ذلك واضح. كل من يسمع حديثًا عنها يفكر على الفور في القومية الضيقة، والدعوات الإقليمية من قبل جمعيات المطرودين، وبأشياء من الماضي. الوطن ـ أليس هو تلك القيمة المتلاشية، مفهوم سُحِبَ من أيامٍ ماضية، وما يزال محمّلًا بالعواطف، لكن أصبح بالفعل بلا معنًى وعاد لا يمتلك توافقًا ملموسًا في المجتمع الصناعي؟ سنرى. لكن يجب أولًا،

(1) في تلك الأيام، كان الحليب يوزع على البيوت التي تريد شراءه، وكان مع بائع الحليب صبيًا يسلّم قناني الحليب ويستلم الفارغة.
(2) فضّلت إبقاءها دون ترجمة، لأنها تفقد معناها الناقد والمتهكم في الترجمة.

وبكل إيجاز، توضيح العلاقة بين الوطن والوطن الأم،[1] لأن موقفًا واسع الانتشار يدّعي قَبُول فكرة الوطن بحدودها الإقليمية والفلكلورية على الأقل كقيمة فاتنة،[2] في حين أن الوطن الأم يشك به بشدّة باعتباره كلمة ديماغوجية وتصلبًا رجعيًا. أوروبا الأمم L'Europe des patries، التي لا تبدو جيدة، ليست سوى هوس جنرال عجوز سيتجاوزه مصير عصرنا بسرعة قريبًا.

أنا لست جنرالًا عجوزًا. ولا أحلم بالعظمة القومية، ولا أجد في ألبوم عائلتي أي ضبّاط جيش وموظفين حكوميين رفيعي المستوى. ولدي نفور عميقٌ أيضًا من تجمعات رجال السلاح والاحتفالات الكورالية ومهرجانات الأزياء الوطنية. أنا، بشكل عام، ما كان يطلق عليه، على وجه التحديد، في ألمانيا منذ وقت ليس ببعيد، واسع الاطّلاع egghead،[3] وأنا أعرف أنني لست خاليًا من الميول التدميرية. لكن لمّا كنتُ شخصًا مشردًا مؤهلًا، أجرؤ على الدفاع عن القيمة التي يرمز إليها الوطن، وأرفض التمايز الحاد بين الوطن homeland والوطن الأم fatherland، وأعتقد في النهاية أن شخصًا من جيلي لا يمكنه التعايش إلا بشكل سيئ دون كليهما، وهما واحد ونفس الشيء. وكل من ليس له وطن أم - أي ليس له مأوًى في

---

(1) ترجمة لـ fatherland، وهنا بمعنى منشأ أو أرض الأجداد. والكاتب يميز بين homeland الوطن الذي يمثل الانتماء، و fatherland الذي يحمل معنًى إيديولوجيًا مضافًا وسياسيًا كثيرًا ما يُحَرّف بتضخيمه نحو العنصرية القومية.

(2) ويمكن ترجمتها أيضًا تصويرية، رائعة، معبرة، خلابة.

(3) يمكن أن تترجم أيضا «مثقف» او رفيع الثقافة، ولكي لا تختلط هذه المفردة مع مفهوم «المثقف» الشائع عندنا الذي يعني الأديب أو الكاتب او المفكر، فقد اخترت بدلا من ذلك أن اترجمها بواسع الإطلاع.

هيئة اجتماعية مستقلة تمثل كيانًا حكوميًّا مستقلًّا ـ ليس لديه، كما أعتقد، وطنٌ أيضًا. «Kde domov muj» ـ أين وطني الأم؟ غَنّى التشيك، عندما لم يكن بإمكانهم في النظام الملكي النمساوي ـ المجري فوق الوطني، اعتبار أو الشعور بأن بلدهم التشيكي هو وطن أو وطن أم، ما دام لم يكن بلدًا مستقلًّا. لقد غنّوا هذه الأشعار لأنهم أرادوا أن يحصلوا على وطن أم، وبالتالي أن يدركوا وطنهم. طيب، يمكن للمرء أن يجادل، لكن هذا كان رد فعل شعب مضطهد ثقافيًّا واقتصاديًّا، «استُعمر» من قبل مجموعة ألمانية حاكمة في النمسا. أينما شكلت الأمم ذات الحقوق المتساوية بشكل طوعي نظامًا سياسيًّا أكبر، يمكنها الحفاظ على وطنها من خلال الحفاظ على الخصوصية اللغوية الوطنية، دون الحاجة أكثر إلى وطن أم في شكل حكومي. سيكون وطنهم أكبر: غدًا أوروبا الصغيرة، وبعد غدٍ أوروبا الكبرى، وفي مستقبل لا يمكن التكهن به بعد، ولكنه يقترب بسرعة، العالم.

إنني أعرض شكوكي. من ناحية، أعتقد أنني قد جربت بوضوح كافٍ كيف يكف الوطن عن أن يكون وطنًا حالَمَا لا يكون في نفس الوقت وطنًا أمًّا. عندما فقدتْ بلادي استقلالها الوطني في 12 آذار 1938، وضُمَّت إلى رايخ ألماني شامل، أصبحت غريبة تمامًا عليّ. ملابس رجال الشرطة، وصناديق البريد على المنازل، والشعارات على مكاتب البلدية، والعديد من اللافتات، تُظهر وجوهًا جديدة، وحتى قوائم الطعام في المطاعم تُظهر أطباقًا أخرى غير معروفة لي. من ناحية أخرى، فإن الوطن الأم الأكبر يفقد قيمته كوطن أم إذا كبر إلى ما هو أبعد من المساحة التي ما تزال من الممكن أن تُعاش كوطن. ثم تصبح إمبراطورية تملأ سكانها بوعي

إمبراطوري وقومية قوة عظمى شديدة، كالاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية. إذا غزى الأميركيون القارة بأكملها غدًا، إلى جانب دول أمريكا اللاتينية، فسيظل وعيهم الإمبراطوري كما هو بالفعل اليوم. ثم ينتقلون مع عائلاتهم من نيويورك إلى لاباز، تمامًا كما ينتقلون اليوم من نيو إنجلاند إلى آيوا أو كاليفورنيا، مع الشعور المبتهج بأن كلّ هذه الأرض الواسعة ملكٌ لهم وخاضعة للرئيس في البيت الأبيض. عندئذ لن يستمدوا من وطنهم الأم والبلاد أكثر مما يفعلون اليوم، عندما ينظرون إلى إمبراطوريتهم بين تكساس ونيوجرسي ككيان اجتماعي شامل بفضل السلع الموحدة للصناعات العملاقة أكثر مما إلى اللغة. فيحثما يوجد جنرال موتُورز، يكون وطنهم الأم الزائف وبلادهم الزائفة.

بطبيعة الحال، يمكن للمرء أن يقول: ماذا في ذلك؟ فهي ليست كارثة كبيرة أن يفقد الإنسان بلاده ووطنه الأم. على العكس من ذلك، فهو يكبر مع المساحة التي يعتبرها كأمر واقع منطقته. أليست أوروبا الصغيرة الناشئة، التي لا تعتبر بالمعنى التقليدي وطنًا أمًّا ولا بلادًا، اليوم بالفعل ملكية مستحقة للألمان والفرنسيين والإيطاليين والبلجيكيين والهولنديين واللوكسمبورغيين؟ وبنفس الثقة، كما يقولون، يتنقلون في كارلسوه ونابولي وبريست وروتردام. إنهم يتخيلون أنفسهم في وضع الإنسان الثري وبالتالي فهو طليقٌ جدًّا ويعود العالم بالفعل له. وفي النتيجة، تنقله الطائرة بشكل أسرع من باريس إلى طوكيو، ومن نيويورك إلى تورنتو، مما نقلني بالكاد قبل أربعة عقود قطار بطيء من فيينا إلى قرية في تيرول. يستبدل الإنسان الحديث وطنه بالعالم. أيّ صفقة رائعة!

صفقة كبيرة! La belle affaire! لكن ليس من الضروري أن يكون

المرء ظلاميًّا بليدًا تمامًا وثابتًا في مكانه ليشك بهذا أيضًا. الشخص الذي يقايض ما كان يعنيه له بالأمس وطنًا بكوزموبوليتية من الدرجة الثانية يتخلى بالنسبة إلى العديد عن العصفور الموجود في اليد مقابل طير طنان kolibri في الأدغال. ولأن شخصًا ما يسافر فحسب في سيارة صغيرة من فيرث Fürth إلى الكوت دي أزور Côte d'Azur، وهناك يطلب من شرفة المقهى شراب deux martinis يحسب على الفور أنه كوزموبوليتي من النصف الثاني من القرن، وأنه قد حصل بالفعل على أرباح من تبادل العالم مقابل الوطن. فقط عندما يمرض ويصف له الطبيب علاجًا محليًّا، تخطر بباله أفكارٌ قاتمة حول علم الأدوية الفرنسي ويتحسر على منتجات باير والسيد الطبيب Herr Doktor. المعرفة السطحية بالعالم واللغات، المكتسبة من خلال السياحة ورحلات العمل، لا تُعوِّض عن الوطن. ثَبَتَ أن المقايضة مشكوك فيها.

لكن هذا لا يعني أن الأجيال القادمة لن تكون قادرة، ولن تُضطر، على التعايش بشكل جيد دون وطن. ما يسميه عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورتو بتحول الكائن البشري، الاستيعاب النفسي للثورة التكنولوجية ـ العلمية، أمر لا مفر منه. سيكون العالم الجديد أشمل بكثير من الحلم الجريء لأوربا الكبرى التي يصورها اليوم. ستكون الأشياء التي نستخدمها يوميًّا، والتي نصبغها بالعاطفة في الوقت الحاضر، قابلةً للاستبدال تمامًا. يفكر مخطِّطُو المدن الأميركية حقًّا في تحويل المنزل إلى سلعة استهلاكية في المستقبل. يسمع المرء أنه ستُهدَم أجزاء كاملة من المدينة ويُعاد بناؤها في فترات من عشرين إلى خمسة وعشرين عامًا، نظرًا إلى أن إصلاحات المنزل لن تكون مجدية كما هو الحال بالفعل مع بعض إصلاحات السيارات. لكن

كيف يستطيع المرء في مثل هذا العالم أن يبقى قادرًا على أن يشكّل مفهوم الوطن على الإطلاق؟ فستكون المدن والطرق السريعة ومحطّات الخدمة والأثاث والأجهزة الكهربائية المنزلية واللوحات والملاعق هي نفسها في كل مكان. سيكون من المعقول أيضًا أن لغة العالم المستقبلي وسيلة اتصال وظيفية بحتة كما هي بالفعل اليوم بالنسبة إلى عالم الطبيعة.

يتحاور الفيزيائيون بلغة الرياضيات. لحفلة كوكتيل في المساء، تكفي اللغة الإنجليزية الأساسية. إن عالم الغد النامي سيطرد بالتأكيد الوطن وربما اللغة الأم، ويسمح لهما بالوجود بشكل خارجي كموضوع للبحث التاريخي المتخصص فقط.

ومع ذلك، لم نصل إلى هذه النقطة بعد. ليس إلى حد كبير. ما تسميه الوطن ما يزال يمنحنا الوصول إلى واقع يتكون بالنسبة إلينا من الفهم من خلال الأحاسيس. وبخلاف الفيزيائي الذي يتعرف الواقع ليس في بندول جهاز التحكم بل الأحرى في صيغة رياضية، نحن نعتمد على الرؤية، والسمع، واللمس. ربما لا أتحدث إلا مع جيلي المتدهور مسبقًا من أولئك الذين يبلغون الخمسين تقريبًا عندما أقول بأننا متعودون العيشَ مع الأشياء التي تحكي لنا قصصًا. نحتاج إلى منزل نعرف من عاش قبلنا فيه، قطعة أثاث نتعرف في اختلالاتها الصغيرة الحِرَفيّ الذي اشتغلها. نحن بحاجة إلى مدينة تثير ملامحُها على الأقل ذكرياتٍ باهتةً عن اللوحة النحاسية القديمة المنقوشة في المتحف. ليس فقط لمخططي المدينة في المستقبل بل وأيضًا للسكان الذين يستقرون في مواقع طوبغرافية، لكنهم عرضة للإخلاء على أية حال، فإن واقع المدينة سيتكون من الجداول الإحصائية التي تتوقع تطورًا ديمغرافيًا، وفي خطط البناء ومخططات

الشوارع الجديدة. ومع ذلك، ما يزال واقعها الكلي، في وعينا، يخترق العين ـ نافذة جوتفريد كيلر الصغيرة العزيزة[1] ـ وتُستَوعَب في عملية عقلية نسميها التذكّر.

تذكُّر. تلك هي الإشارة، وتعود تأملاتنا ثانيةً من تلقاء نفسها إلى موضوعها الرئيسي: فِقدان الوطن من قِبَل مُبعَدٍ من الرايخ الثالث. لقد تَقَدَّم في السن، وفي فترة زمنية تمتد الآن إلى مدى عقود مسبقًا، كان عليه أن يتعلم أن ما أصابه ليس جرحًا، جرحًا سيشفى مع مرور الوقت، بل إنه بالأحرى يعاني من مرض خبيث يزداد سوءًا مع مرور السنين.

فالشيخوخة تجعلنا نعتمد بدرجة متزايدة على ذاكرة الماضي. إذا فكرت في العودة إلى السنوات الأولى من المنفى، فإنني أعرف، بالتأكيد، أنني شعرت بالفعل في ذلك الوقت بالحنين إلى الوطن والشوق إلى الماضي، لكنني أتذكر أيضًا أنها قد عُوِّضَت، إلى حد ما، بالأمل. يمنح الشابُّ نفسَه هذا الائتمان المسبق غير المحدود الذي يسمح له به العالم من حوله عادةً أيضًا. إنه ليس هو فقط من يكون، ولكن أيضًا مَن سيكون. هناك كنتُ مع خمسة عشر ماركًا، خمسون. هناك كنت ضائعًا في طابور متلَقّي الإغاثة، جاثمًا في قطار الترحيل، غارقًا حسائي من علبة. كيف أعرّف عن نفسي بالضبط لا أعرف. منذ أن صُودِرَ ماضيّ وأصلي مني، ولأنني لم أسكن في منزل بل في ثكنات رقمها كذا وكذا، ولأنني حملت الاسم الأوسط إسرائيل، الذي لم يمنحني إيّاه الوالدان بل رجلٌ اسمه غلوبك. ولم يكن ذلك جيدًا. لكن الأمر لم يكن كارثةً أيضًا. لأنه حتى لو كنتُ ماضيًا

(1) إشارة إلى قصيدة «أنشودة الماء» للشاعر السويسري جوتفريد كيلر، حيث يشبهُ عينيه بـ«نافذتيه الصغيرتين العزيزتين».

وحاضرًا قابلين للتفكيك، فقد كنتُ على الأقل مستقبلًا: ربما كنتُ رجلًا سيقتل جنرالًا في القوات الخاصة SS، ربما عاملًا في نيويورك، مستوطنًا في أستراليا، كاتبًا في باريس يكتب بالفرنسية، متسكعًا على رصيف السين يقضي وقتًا ممتعًا مع قنينة نبيذ.

لكن ائتمان الشخص الذي يتقدم في السن ينضُب. يضغط عليه أفقه، فلا الغد ولا بعد الغد لهما قوة أو يقين. إنه مجرد مَن يكون. عاد المستقبل لا يكون حوله، وبالتالي ليس في داخله أيضًا. لا يستطيع أن يدعو إلى التغيير. ويظهر إلى العالم حاضرًا عاريًا. لكنه يمكن أن يوجد مع ذلك، إذا كان يستقر في هذا الحاضر بشكل متجانس «كان مرةً». آه، يقول الشخص المتقدم في السن، الذي يخلو حاضره من المستقبل ولكنه يحتوي على ماضٍ لا يمكن إنكاره اجتماعيًا ـ آه، كما تعلمون، هنا يمكنكم أن ترون ربما كاتب الحسابات البسيط فقط، الرسام المتوسط، المصاب بالربو، الذي يصعد لاهثًا بشق الأنفس السلم. إنكم ترون الشخص الذي أنا عليه وليس الشخص الذي كنتُ عليه. لكن الشخص الذي كنتُ عليه ما يزال جزءًا منّي أيضًا. وهناك يمكنني أن أؤكد لكم بشرفي أن مدرس الرياضات الخاص بي قد وضع آمالًا كبيرة فيّ، وأن معرضي الأول قد لقيَ عروضًا نقدية رائعة، وأنني كنت متزلجًا بارعًا. يرجى تضمين ذلك في الصورة التي تكوّنونها عني. امنحوني بُعدًا لماضيّ، وإلا سأكون ناقصًا تمامًا. ليس صحيحًا، أو على الأقل ليس صحيحًا تمامًا، أن الإنسان هو ما حقّقه فقط. ما قاله سارتر ذات مرة ليس صحيحًا تمامًا: أنّه في حياةٍ تقترب من نهايتها، تكون النهاية هي حقيقة البداية. هل كانت قصتي مثيرة للشفقة؟ ربما. لكن لم يكن الأمر كذلك في جميع مراحله. إن إمكاناتي لمرة واحدة هي جزء مني مثلها مثل

فشلي اللاحق أو نجاحي غير الكافي. لقد انسحبت إلى الماضي، وهو مَعَاش الشيخوخة الذي أعيش منه. أنا أعيش بسلام معه، شكرًا لكم، وأنا لا أعمل بشكل سيئ. هذه هي تقريبًا كلماتُ شخص له حقٌّ في ماضيه.

الشخص الذي طُرد من الرايخ الثالث لن يستطيع أن يقول شيئًا كهذا، ولا حتى أن يفكر فيه. إنه ينظر إلى الوراء ـ لأن المستقبل ليس سوى أمر يلتقي به اليافعون وبالتالي فهو ملك لهم فقط ـ وهو لا يستبين نفسه في أي مكان. إنه يرقد بشكل لا يمكن تعرُّفه في أنقاض الأعوام 1933 ـ 1945. ولم يبدأ من اليوم قط. ما زلت أتذكر جيدًا جدًّا أولئك اليهود البسطاء فكريًّا من الحرفة التجارية، الذين بينما كانوا يشيرون في بداية المنفى إلى مواقعهم الاجتماعية في ألمانيا، كانوا يسكنون غرف انتظار قنصليات أجنبية دُمِّرَت للتو. كان أحدهم يمتلك متجرًا كبيرًا للملابس في دورتموند، والآخر كان يملك متجرًا صينيًّا راقيًّا في بون، في حين أن آخر عُيِّنَ مستشارًا للتجارة وعضوًا في المحكمة التجارية. وقد كفّوا بسرعة عن كل تفاخرهم وانضموا بصمت وتواضع إلى الآخرين، الذين لم يحملوا أبدا في أيديهم ورقة نقدية بقيمة ألف مارك. وسرعان ما أدركوا بشكل مذهل أن زبائنهم من دورتموند وبون ألغوا في عام 1933 جميع مشترياتهم. لقد أنكر المجتمع ماضيهم كظاهرة اجتماعية، وبالتالي كان من المستحيل الاحتفاظ به كملكية نفسية ذاتية. وكلما تقدموا في العمر، أصبحت خسارتهم أكبر، حتى لو كانوا يشتغلون بالأطباق والملابس في أعمال مربحة منذ فترة طويلة في نيويورك أو تل أبيب ـ التي نجح فيها، بالمناسبة، عدد قليل نسبيًّا منهم فقط.

لم يكُنِ الأمر بالنسبة إلى البعض يتعلق بسلع تجارية، بل بالأحرى

بممتلكات روحية وهمية، وهناك تحول فِقدان ما كان إلى خراب كامل للعالم. فقط أولئك الذين كانوا كبارًا في السن مسبقًا وقت طردهم لم يدركوا ذلك بوضوح. في معكسر غور في جنوب فرنسا، حيث أمضيتُ بضعة أشهر في عام 1941، دُفِنَ الشاعر ألفريد مومبير من كارلسروه، البالغ من العمر سبعين عامًا تقريبًا، والذي كان مشهورًا في وقته. كتب إلى صديق: «كل شيء يتدفق مني كمطر غزير... كل شيء ينبغي أن يبقى في الخلف، كل شيء. شقة مغلقة من قبل الجستابو. الإذن بأخذ مئة مارك الرايخ ـ فكر فحسب. أنا مع أختي التي تبلغ 72 عامًا، ومع جميع السكان اليهود في بادن وبالاتينات، من الرضيع حتى أكبر مُسِنّ، في غضون ساعات قليلة إلى محطة القطار، ثم رحلنا عبر مارسيليا، تولوز، إلى معكسر اعتقال كبير في جبال البرانس السفلية.[1] هل حدث أي شيء مشابه لشاعر ألماني؟». الأسطر التي لا تُطاق تقريبًا مذكورة هنا فقط من أجل الجُمَل الأولى والأخيرة، يتسع بين الاثنتين تناقضٌ يحتوي على كل مشاكل منفانا، والتي لم يكن من الممكن أن يطالب المرء بحلها من الرجل العجوز الذي توفي في سويسرا بعد عام من كتابة الرسالة. كل شيء يتدفق مثل مطر غزير، ذلك صحيح. تدفق ماضي شاعر الرومانسية الجديدة ألفريد مومبرت، مؤلف كتاب Der himmlische Zecher، من العالم في اليوم الذي رُحّل فيه رجل يبلغ من العمر سبعين عامًا اسمه ألفريد إسرائيل مومبرت من كارلسروه، ولم تُرفع يد لتدافع عنه. ومع ذلك، بعد حدوث ما لا رجعة فيه، كتب عن نفسه على أنه شاعر «ألماني». ربما عُرّض إلى الوحشية من قبل شرطي جاهل من حكومة فيشي في ثكنات غورس، الجائعة، التي ابتُليت بها الحشرات، لم

(1) أو تُلفظ بالفرنسية جبال البّيرينيه.

يكن بإمكانه أن يدرك ذلك الذي يحتاج العديد منا لأجله إلى سنوات من التفكير المكثف والتحقيق: فقط الشخص الذي يكتب الشعر ليس فحسب باللغة الألمانية، ولكن أيضًا للألمان، بناءً على رغبتهم الصريحة، يمكن أن يكون شاعرًا ألمانيًا، بحيث عندما يتدفق كل شيء، فإن آخر آثار الماضي ستُجتَاح أيضًا. اليد التي لم ترتفع لحمايته طردت الرجل العجوز. قرّاؤه أمس، الذين لم يحتجّوا على ترحيله، ألغوا قصائده. عادَ مومبرت، عندما كتب الرسالة المأساوية، لا يكون شاعرًا ألمانيًا أكثر من أن المستشار التجاري كان مستشارًا تجاريًا عندما جلب لنفسه معطفًا شتويًا قديمًا من لجنة الإعانة. لكي نكون أحدًا أو آخر، نحتاج إلى موافقة المجتمع. ولكن إذا تنكر المجتمع لنا نحو ما كنا عليه من قبل، إذن لم نكن كذلك أبدًا. لم يكن مومبرت شاعرًا ألمانيًا في ثكنات غورس. وتلك هي الطريقة التي أرادتها اليد التي لم تتحرك عندما اقتِيدَ. لقد مات بلا ماضٍ - ولا يسعنا إلا أن نأمل أنه مات بسلام، ما دام لم يعرف ذلك.

أن يكون كل شيء قد تدفق بشكل غزير جُرِّبَ بشكل عميق من قبل أولئك الذين نجوا من الرايخ الثالث وكان لديهم الوقت للتصالح مع أنفسهم. لقد فهموا ذلك، على أبعد تقدير، في اليوم الذي شعروا فيه لأول مرّة أنهم يتقدمون في السن. فالمرء يشيخ بصورة سيئة في المنفى. لأن الإنسان يحتاج إلى وطن. كم ثمن الواحد؟ لم يكن ذلك بالطبع سؤالًا حقيقيًا، بل مجرد صياغة عنوان يمكن للمرء أن يناقش نجاحه. لا يمكن تحديد مقدار الوطن الذي يحتاج إليه الشخص. ومع ذلك، في هذا الوقت بالتحديد، عندما يفقد الوطن بعض سمعته، يميل المرء إلى حد كبير إلى الإجابة عن السؤال البلاغي البحت والقول: إنه يحتاج إلى الكثير من

الوطن، أكثر على أي حال من يمكن أن يحلم به عالم من أناس لديهم وطن وفخرهم الكامل هو متعة عطلتهم الكوزموبوليتية. يجب على المرء أن يقاوم التصغيد غير المقبول للمشاعر، والذي من شأنه أن ينتزعنا من مجال التفكير إلى العاطفة. يتبادر إلى الذهن نيتشه، بغربانه الناعبة محلقة نحو المدينة بأجنحة طنانة، والثلج الشتوي الذي يهدد الشخص الأعزل. ويلٌ لمن ليس له بيت، تقول القصيدة.[1] لا يرغب في أن يبدو مسرفًا ويقمع ذكرياته الشاعرية. ما تبقّى هو أكثر الملاحظات واقعيةً: ليس من الجيد ألا يكون لك لديك وطن.[2]

(1) من قصيدة لفريدريك نيتشه بعنوان «وحيدا»، حيث يقول في الأبيات الأخيرة: «سينزل الثلج قريبًا، ويل لهذا الذي لا بيت له».

(2) مرة أخرى يمكن أن تُترجم home إلى بيت، منزل، سكن، دار، وأيضًا إلى وطن. والاحتمال وارد للاثنين. لكن من خلال سياق المعنى العام فقد اخترت ترجمتها إلى الوطن.

سخط

غالبًا ما يحدث أنني أسافر في الصيف عبر بلاد مزدهرة. لا داعي إلى ذكر النظافة النموذجية التي تميز المدن الكبيرة، أو البلدات والقرى الصغيرة المثالية، والإشارة إلى جودة البضائع التي يمكن شراؤها هناك، أو إلى براعة متينة للحرف اليدوية، أو المزج المثير للإعجاب لحداثة كوزموبوليتية ووعي تاريخي توّاق يمكن رؤيته في كل مكان. لطالما كان كل هذا أسطوريًّا لفترة طويلة ومصدر بهجة للعالم. نادرًا ما يحتاج المرء إلى الإسهاب في ذلك. إن هذا يسري، علاوة على ذلك، على الناس في الشوارع بشكل جيد للغاية، كما كنت أتمنى دائمًا أن يسري عليهم وعلى كل فرد في العالم، فتشير إليه الإحصائيات، ويعتبر نموذجيًّا لسنوات. ربما ما تبقى هو أنني لا أجد الكثير لأتحدث عنه مع الأشخاص الذين التقيتهم على الطرق السريعة، في القطارات، في بهو الفنادق، والذين يظهرون دائمًا أدبًا شديدًا ـ ولهذا السبب لا يمكنني الحكم على مدى وعمق تحضرهم الظاهري.

وبين الحين والآخر تكون لدي علاقة مع المثقفين. لا يمكن للمرء أن يتخيلهم أحسن تصرفًا وتواضعًا وتسامحًا. ولا أحدث، ودائمًا ما يبدو الأمر بالنسبة إليّ غير واقعي عندما أفكر في كم عدد الذين ينتمون إلى

جيلي، الذين أقسموا بالأمس ببلانك وجريس Blunck and Griese [1] لأنه لا يمكن العثور على أي أثر له في محادثاتنا عن أدورنو أو سول بيلو أو ناتالي ساروت.

تقدم البلاد التي أسافر خلالها أحيانًا مثالًا للعالم لا عن الازدهار الاقتصادي فحسب، بل وأيضًا عن الاستقرار الديمقراطي والاعتدال السياسي. لديها مطالبات إقليمية معينة وتكافح من أجل إعادة ذلك الجزء من جسدها الوطني الذي انفصل عنها بشكل غير طبيعي ويعاني الآن من الاستبداد الأجنبي. لكن سلوكها في هذه القضايا متحفظ بشكل يستحق الثناء، كما ثبت منذ فترة طويلة، فإن شعبها السعيد لا يريد أي قسم من الديماغوجيين والمحرضين القوميين.

أشعر بعدم الارتياح في هذه البلاد الجميلة المسالمة، التي يسكنها ناس مجتهدون وفعالون وحداثيون. لقد خمّن القارئ مسبقًا لماذا: إنني لحسن الحظ أنتمي إلى تلك الأنواع المختفية ببطء من التي يُطلق عليها، باتفاق عام، ضحايا النازية. الناس الذين أتحدث عنهم والذين أوجّه خطابي إليهم هنا يُبدون فهمًا صامتًا لضغينتي الاستذكارية. لكنني أنا نفسي لا أفهم تمامًا هذه الضغينة، ليس بعدُ. ولهذا السبب أود أن أوضح ذلك في هذا المقال. سأكون ممتنًا للقارئ إذا كان على استعداد لمتابعتي، حتى لو شعر في الساعة التي أمامنا أكثر من مرة بالرغبة في ترك الكتاب.

---

(1) إشارة إلى (1961 ــ 1888) Hans Friedrich Blunck، أحد كتّاب الرايخ الثالث البارزين من عام 1933 وحتى عام 1935، كان رئيسًا لـ Reichsschifttumskammer. أما الآخر فهو (1975 ــ 1890) Friedrich Griese، كاتب روائي وعضو شرف الأكاديمية الاشتراكية القومية الألمانية للشعر.

أتحدث كضحية وأبحث في استياءاتي. هذا ليس مشروعًا مسلّيًا، لا للقارئ ولا لي، وربما من الأفضل في البداية أن أعذر نفسي عن الافتقار إلى اللباقة التي ستظهر للأسف. اللباقة شيء جيد مهم - اللباقة المكتسبة في السلوك اليومي، وكذلك لباقة العقل والقلب. ولكن بغض النظر عن مدى أهميتها، فهي ليست مناسبة للتحليل الجذري الذي نسعى معًا إلى تحقيقه هنا، ولذا يجب أن أتجاهلها - مع المخاطرة بحذف شخصية عادية. قد يكون السبب هو أن الكثير من الضحايا فقدوا الشعور باللباقة تمامًا. الهجرة والمقاومة والسجن والتعذيب ومعسكرات الاعتقال - كل هذا ليس عذرًا لرفض اللباقة ولا يقصد به أن يكون واحدًا. لكنه تفسير سببي كافٍ. لتبدأ إذن: دون لباقة، مع هذا القدر من اللباقة الأدبية فقط، أسوة بجهودي في أن أكون صادقًا، إذ يفرض الموضوع نفسه عليّ ذلك.

ستكون مهمتي أسهل إذا أردت تغيير القضية إلى مجال الجدل السياسي. من ثَم يمكنني الاستشهاد بكتب كيمبنر وريتلينجر وحنّا أرندت، وأتوصل، دون أي جهد فكري إضافي، إلى نتيجة واضحة إلى حد ما. ويترتب على ذلك استمرار الاستياء لدى الضحايا، لأن الشخصيات المتحالفة مع الجلادين في المشهد العام في ألمانيا الغربية، تستمر في لعبِ دورٍ، ولأن المجرمين لديهم فرصة جيدة لبلوغ شيخوخة جليلة ويعمّرون أكثر منّا بانتصار، على الرغم من تمديد قانون التقادم بالنسبة إلى جرائم الحرب. يضمن نشاطهم خلال أيام المجد ذلك. لكن ما الذي يمكن أن يجنيه مثل هذا الجدل؟ لا شيء عمليًا. لقد دافع الألمان الكرام عن قضية العدالة باسمنا، أفضل وأقوى مما يمكن أن نفعله أنفسنا. لكنني لست مهتمًا على الإطلاق بالعدالة التي يمكن أن تكون افتراضية في هذه

الحالة التاريخية المعينة على أي حال. ما يهمني هو وصف الحالة الذاتية للضحية. ما يمكنني المساهمة به هو تحليل الاستياء المكتَسَب من التأمل الذاتي. مهمتي الشخصية هي تفسير حالة نفسية أدانها علماء الأخلاق وعلماء النفس على حد سواء. فقد اعتبرها الأولون عارًا، والأخيرون نوعًا من المرض. يجب أن أعترف بذلك، وأن أتحمل لطخةَ عارٍ اجتماعية، وأقبل المرض أولًا كجزء متكامل من شخصيتي ومن ثَم أُضفي الشرعية عليه. لا يمكن تخيل عمل اعتراف أقل مكافأة، بالإضافة إلى أنه سيُخضع قرّائي لاختبار صبرٍ غير عادي.

السخط باعتباره المهيمن الوجودي على أناس مثلي هو نتيجة تطور شخصي وتاريخي طويل. بأي حال من الأحوال، لم يكن مثل هذا السخط واضحًا في اليوم الذي غادرت فيه آخر معسكرات الاعتقال ـ بيرغن بيلسن ـ ، وعدت إلى منزلي في بروكسل، الذي لم يكن في الواقع منزلي. بَدَوْنا نحن الذين بُعثنا من الموت، جميعًا تقريبًا، بالطريقة التي تظهر بها الصور من تلك الأيام في نيسان وأيار عام 1945، والمخزّنة الآن في الأرشيف: هياكل عظمية أُحْيِيَت باللحم البقري الأنجلو ـ أمريكي المعلّب، أشباحًا بلا أسنان برؤوس حليقة، مفيدة فحسب بشكل كافٍ للإدلاء بشهادة سريعة، من ثَم توضيح المكان الذي ينتمون إليه حقًا. لكننا كنا «أبطالًا»، أي إلى المدى الذي يمكننا تصديقه باللافتات التي امتدّت على شوارعنا والتي تقول: «المجد لسجنائنا السياسيين! Gloire aux Prisonniers Politiques!».

إلا أن اللافتات تلاشت تمامًا، وسَئِم المختصون الاجتماعيون وممرضات الصليب الأحمر، الذين ظهروا في الأيام الأولى مع السجائر

الأمريكية، من جهودهم. ومع ذلك، فقد استمر ما كان بالنسبة إليّ وضعًا اجتماعيًا وأخلاقيًا غير مسبوق تمامًا، وقد أبهجني ذلك إلى أقصى الحدود: كوني ما كنت عليه ـ مكافحًا من المقاومة ما زال على قيد الحياة، يهوديًا، ضحيةَ اضطهاد من قبل نظام مكروه عالميًا ـ وكان هناك تفاهم متبادل بيني وبين بقية العالم. وكان أولئك الذي عذبوني وحولوني إلى حشرة، كما فعلت القوى المظلمة مرةً لبطل رواية كافكا المسخ، أنفسهم يلومون المعكسر المنتصر. لم تكن ألمانيا الاشتراكية القومية وحدها موضع شعور عام تيلور أمام أعيننا من الكراهية إلى الاحتقار. لن تهدد هذه البلاد «السلام العالمي» أبدًا مرةً أخرى، كما قالوا في تلك الأيام. دعها تعيش، لكن ليس أكثر من ذلك. وباعتبارها حقل بطاطا في أوروبا، فلتخدم هذه القارة بكدّها، ولكن ليس بشيء آخر غير ذلك. لقد كثر الحديث عن الذنب الجماعي للألمان. سيكون تشويهًا صريحًا للحقيقة إذا لم أعترف هنا دون أي مواربة أن هذا لا بأس به بالنسبة إليّ. بدا لي كما لو أنني عايشت فظائعهم كأعمال جماعية. كنت خائفًا من الجندي البسيط في زيه الرسمي الرمادي مثلما من المسؤول النازي باللون البني مع شارة الصليب المعقوفة. ثم إنني لم أستطع التخلص من مشهد الألمان على رصيف مسافرين صغير حيث فُرِّغَت الجثث وجُمِعَت من عربات الماشية في قطار ترحيلنا. لم أتمكن من اكتشاف تعبير عن الاشمئزاز على وجهٍ واحدٍ من وجوههم الحجرية. دَعِ الجريمةَ الجماعية والذنب الجماعي يوازنان بعضهما بعضًا وينتجان توازنًا في الأخلاق العالمية. *Vae victis castigatisque* [الويل والتوبيخ للمغلوبين].

لم يكن هناك سبب، وبالكاد احتمال حقيقي، لتشكُّل الاستياء. بالتأكيد،

لم أرغب في جزء من أي تعاطف مع شعب كان مثقلًا بالذنب الجماعي بالنسبة إليّ، وكنتُ بالأحرى بشكل غير مبالٍ ساعدتُ بعض الأشخاص الملهمين من الكويكرلي Quakerly [1] لتحميل شاحنة كانت تجلب ملابس مستعملة إلى ألمانيا الفقيرة. اليهود الذين كانوا يرتجفون مسبقًا بعواطف التسامح والتصالح، أكان اسمهم فيكتور جولانكز أم مارتين بوبر، كانوا مَقِيتين تقريبًا لي مثل أولئك الذين يُسَمّون المُعاد تأهيلهم من أمريكا وإنكلترا وفرنسا، الذين نادرًا ما يتمكنون من الانتظار للاندفاع إلى ألمانيا، الغربية أو الشرقية، كي يلعبوا دور معلِّمي ألمانيا the Praeceptores Germaniae. كنتُ منسجمًا لأول مرة في حياتي مع الرأي العام الذي كان يضجّ حولي. شعرتُ بأنني على ما يرام في دور المنصاع كليًّا غير المعتاد. بالنسبة لي كان حقل البطاطا وألمانيا الخَرِبة من الحرب منطقة مفقودة من العالم. لقد تجنبت التحدث بلغتها، لغتي، واخترت اسمًا مستعارًا بمسحة رومانسية. بأي تجاه كانت الريح السياسية العالمية تهب، لم أكن أعرف ذلك، بالتأكيد. فبينما كنت أتخيل نفسي للحظة منتصرًا على أولئك الذين عذّبوني بالأمس، كان المنتصرون الحقيقيون جميعًا مستعدون لوضع خطط للخاسرين، التي لا علاقة لها بأي شيء، بأي شيء على الإطلاق بحقول البطاطا. وفي نفس اللحظة التي كنت أتخيل فيها أنه من خلال المصير الذي عانيت منه، تمكنت أخيرًا من اللحاق بالرأي العالمي، كان الأخير على وشك أن يتجاوز نفسه. ظننتُ أنني كنت في منتصف الواقع الحديث تمامًا، وأرِخْتُ بالفعل إلى الوهم.

كانت لدي شكوكي الأولى عام 1948، عندما كنتُ أعبر عبر ألمانيا على

---

(1) إشارة إلى بعض أفراد طائفة الفرندز المسيحية.

متن قطار. لقد عثرت على صفحة من صحيفة قوات الاحتلال الأمريكية وتصفّحتُ رسالةً إلى المحرر، قال فيها الكاتب المجهول للجنود الأمركيين: «لا تتصرفوا بهذه الضخامة هنا، ستصبح ألمانيا عظيمة وقوية مرة أخرى. ارحلوا، أيها المحتالون». لم تكن لدى كاتب الرسالة الذي ألهمه غوبلز جزئيًا وآيخندورف جزئيًا، سوى فكرة بسيطة في ذلك الوقت مثلي بأن هذه الألمانيا كان، في الواقع، مقدّرًا لها أن تحتفل بأكبر قدر من قيامة العظمة، ليس في معارضة الجنود عابري الأطلسي ذوي ملابس الكاكي، بل معهم.

لقد شعرتُ بالحيرة فقط لأنه كان هناك بالفعل كاتب رسالة على هذا النحو، ولأنني سمعت صوتًا ألمانيًا يبدو مختلفًا عن الطريقة التي اعتقدت أنه كان عليه أن يبدو بها لفترة طويلة قادمة: أعني نادمًا. في السنوات التالية كان هناك حديث أقل فأقل عن الندم. أولًا، قُبِلَت ألمانيا المنبوذة في المجتمع الدولي، وبعد ذلك تُوُدِّدَ إليها، وأخيرًا كان لا بد من حسابها دون عاطفة في لعبة القوة.

في ظل هذه الظروف التي شهدت نهوضًا اقتصاديًا وصناعيًا وعسكريًا غير مسبوق ـ لا يمكن لأحد أن يطلب من شخص ما أن يستمر باقتلاع شعره ولطم صدره. رأى الألمان أنفسهم ضحايا تمامًا، لأنهم، على أي حال، أُجبروا على البقاء أحياءً، ليس في معارك الشتاء في لينينغراد وستالينغراد، وليس فقط خلال قصف مدنهم، وليس فقط في محكمة نورمبرغ، ولكن خلال تمزيق أوصال بلادهم. وهكذا، كما يمكن فهمه بسهولة، لم يكونوا يميلون إلى فعل أكثر من تناول ماضي الرايخ الثالث، وبطريقتهم الخاصة، «للتغلب» عليه، كما قال أحدهم في ذلك الوقت. في تلك الأيام، في نفس

الوقت الذي كان فيه الألمان يغزون الأسواق العالمية من أجل منتجاتهم الصناعية وكانوا مشغولين في الوطن ـ ليس دون رباطة جأش معينة ـ بالاجتياح، ازداد استياؤنا، أو ربما يجب أن أكبح جماح نفسي وأقول فقط إن استيائي ازداد.

لقد شهدتُ كيف ميّز السياسيون الألمان أنفسهم في حركة المقاومة، ما عدا عدد قليل منهم، إذا كنتُ مطلعًا جيدًا، وسعوا بسرعة وحماسة إلى الانتماء إلى أوروبا. انضموا دون عناء إلى أوروبا الجديدة، إلى الأخرى، التي كان هتلر، وفقًا لخطته الخاصة، قد بدأ مسبقًا في إعادة ترتيبها بنجاح بين الأعوام 1940 ـ 1944. فجأةً كان هناك سبب وجيه للسخط. لم يكن من الضروري إطلاقًا أن تُدَنَّس المقابر اليهودية ونُصُب مقاتلي المقاومة في جميع المدن الألمانية. كانت المحادثات التي أجريتها مع رجل أعمال ألمانيّ جنوبي في عام 1958 على الإفطار في فندق كافيةً. ليس دون الاستفسار بأدب عما إذا كنتُ إسرائيليًّا، حاول الرجل إقناعي بأنه عاد لا يكون هناك أي كراهية عرقية في بلده. وقال إن الشعب الألماني لا يحمل أي ضغينة على الشعب اليهودي، وكدليل على ذلك، استشهد بسياسة حكومته السمحة للتعويضات، والتي حظيت بالمناسبة بتقدير جيد من قبل دولة إسرائيل الفتيّة. شعرتُ بالبؤس في حضور هذا الرجل، الذي كان عقله مرتاحًا للغاية: شايلوك يطالب برطلٍ من لحمه. Vae victoribus! [ويلٌ للمنتصرين]. نحن الذين أوهمنا أنفسنا أن انتصار عام 1945 كان انتصارًا لنا أيضًا، حتى وإن كان في جزء صغير، أُجبِرنَا على التخلي عنه. عاد لا يكون لدى الألمان أي مشاعر متذمرة تجاه المقاومين واليهود. كيف ما يزال هؤلاء يجرؤون على طلب الكفّارة؟ أظهر الرجال

ذوو المولد يهودي، الذين يحملون نفس أصل غابرييل مارسيل، حرصًا أكبر على طمأنة معاصريهم الألمان ورفاقهم من البشر. وقالوا إن الكراهية المتعصبة تمامًا والمدانة أخلاقيًّا، والتي ينتقدها التاريخ مسبقًا، هي فقط ما يتعلق بماضٍ لم يكن سوى حادثٍ مؤسف في التاريخ الألماني لم يكن للجماهير العريضة من الشعب الألماني دور فيه.

لكن ما يزعجني أنني أنتمي إلى تلك الأقلية الرافضة بمشاعرها المتشددة. صمدت بعناد ضد ألمانيا لمدة اثني عشر عامًا تحت حكم هتلر. لقد حملت هذه الضغينة إلى الفردوس الصناعي لأوروبا الجديدة وإلى القاعات المهيبة في الغرب. لقد «تماسكت»، كما فعلت سابقًا في معسكر الاعتقال مرةً بسبب الموقف السيئ عند نداء الأسماء. لقد جذبتُ الانتباه الرافض - ليس أقل من زملائي السابقين في الصراع والمعاناة، الذين كانوا يتدفقون الآن على المصالحة، مقارنةً بانتباه أعدائي، الذين تحوّلوا للتو إلى التسامح. لقد حافظتُ على امتعاضاتي. ولمّا كنتُ لا أستطيع ولا أريد أن أتخلص منها، يجب أن أعيش معها وأنا ملزم بتوضيحها لأولئك الموجّهة نحوهم.

يبدو أن هناك اتفاقًا عامًّا على أن فريدريك نيتشه له الكلمة الأخيرة عندما يتعلق الأمر بالسخط أو الاستياء، الذي نقرأ في كتابه جنيا*لوجيا الأخلاق*: «يُعرّفُ الاستياءُ تلك المخلوقات التي تُحرم من رد الفعل الحقيقي، أي فِعْل الفعلِ، والذين يعوضون عنه من خلال الانتقام الوهمي... الشخص الساخط ليس مخلصًا ولا ساذجًا، ولا صادقًا وصريحًا مع نفسه. روحه تخزر، وعقله يحب الأماكن المخفية والأبواب الخلفية. كل شيء مخفي يمنحه الشعور بأنه عالَمه، وأمنه، وبلسمه». هكذا تكلم الرجل الذي حلم

بتوليف الوحشية مع الرجل السوبرمان. يجب أن يجيب عنه أولئك الذين شهدوا اتحاد الوحشية مع ما دون البشر؛ كانوا حاضرين كضحايا عندما احتفل نوع من الجنس البشري بفرح بمهرجان القسوة، كما عبر نيتشه بنفسه عن ذلك - في توقع لبعض النظريات الأنثروبولوجية الحديثة.

لكن هل أحاول الرد بأمرٍ كامل من قوى عقلي؟ بريبة أفحص نفسي. يمكن أن أكونَ مريضًا، لأنه بعد مراقبتنا نحن الضحايا، فالطريقة العلمية الموضوعية قد توصلت بالفعل، في تجردها الرائع، إلى مفهوم «أعراض متلازمة معسكر الاعتقال». قرأتُ في كتاب نُشر مؤخرًا عن «الآثار النفسية المؤجلة بعد الاضطهاد السياسي» أن كل واحد منا ليس متضررًا جسديًا فقط، ولكن نفسيًّا أيضًا. سمات الشخصية التي تشكّل شخصيتنا تكون محطمة. القلق العصبي والانسحاب العدائي إلى الذات هي العلامات النموذجية لمرضنا. يُقال إننا «مشوهون». ذلك يجعلني أتذكر بشكل عابر الطريقة التي كانت بها ذراعي ملتوية خلف ظهري عندما عذبوني. لكن هذا يطرح على عاتقي أيضًا مهمّة تحديد حالتنا المشوهة من جديد، أي كشكل من أشكال الحالة الإنسانية التي هي أخلاقيًّا وتاريخيًّا ذاتُ مرتبة أعلى من حالة القوام الصحي. لذلك يجب أن أحدد استياءنا من جانبين وأن أحميهما من تفسيرين: تفسير نيتشه، الذي يدين الاستياء أخلاقيًّا، وتفسير علم النفس الحديث، القادر على تصوير الاستياء على أنه صراع مزعج.

من المهم أن تكونَ هنا يقظًا. فالشفقة على الذات الغاوية والمعزية يمكن أن يغوي. مع ذلك، يمكن للمرء أن يصدّقني حين أقول إن هذه ليست مشكلة بالنسبة إليّ. لقد كرهنا جميعا أنفسنا في سجون ومعسكرات الرايخ الثالث أكثر مما أشفقنا عليها بسبب عجزنا وضعفنا الشامل. لقد نجا

الإغواء للرفض داخِل أنفسنا، وكذلك حصانة الإشفاق على الذات. نحن لا نؤمن بالدموع.

لم يفُتني في التفكير في هذا السؤال أن السخط ليس حالة غير طبيعية فحسب، بل وأيضًا غير متسقة منطقيًّا. إنه يَصْلب كل واحد منا على صليبِ ماضيه المُدَمَّر. وبعبثية يتطلّب الأمر ما لا رجعة فيه، والتراجع عمّا فُعِل. يعيق السخط الانصراف إلى البعد الإنساني الحقيقي، المستقبل. أعلم أن الإحساس بالزمن لمن يأسره السخط مشوّهٌ ومضطرب، إذا صح التعبير، لأنه يتطلب شيئين مستحيلين: النكوص إلى الماضي وإبطال ما حدث. لكن المزيد عن هذا لاحقًا. لا يمكن للإنسان المملوء بالسخط أن ينضم، لهذا السبب، على أي حال، إلى صرخة السلام الموحّدة التي ترتفع وتقترح بحماسة: النظر إلى الأمام وليس إلى الوراء، نحو مستقبل مشترك أفضل!

نجح جلّادو الأمس، بنفس الدرجة التي يصعب فيها عليّ أن أنظر نظرة جديدة وهادئة إلى المستقبل، في أن يجدوا الأمر سهلًا جدًّا. لكن يجب أن أعترف: أفتقر إلى الرغبة والموهبة والقناعة بشيء من هذا القبيل. فمن المستحيل بالنسبة إليّ أن أقبل مقارنةً من شأنها أن تسلك طريقي إلى جانب طريق الزملاء الذين جلدوني بالسوط. لا أريد أن أصبح شريكًا لمن يعذبونني، بل أطلب منهم أن ينكروا أنفسهم ويتساقوا معي في النكران. لا يمكن إزالة أكوام الجثث بينهم وبيني خلال عملية التطبيع، هكذا يبدو لي، ولكن على العكس من ذلك، من خلال إدراك، أو بشكل أقوى من خلال تسوية الصراع الذي لم يُحلّ في مجال الممارسة التاريخية.

لقد بلغت النقطة التي ينبغي للمرء أن يدافع فيها عن نفسه للتفكير بهذه الطريقة. أعلم أن أحدًا ما سوف يعترض على أن ما أطرحه شهوة بربرية

وبدائية للانتقام، أخفيتها في شكل لطيف أو غير لطيف، على أي حال، بعباراتٍ عالية المستوى، ولكن تم التغلّب عليها لحسن الحظ من خلال الأخلاقية التقدمية. رجل مُعترف ذاتيًا بالاستياء كما هو أنا، من المفترض أن أعيش في الوهم الدموي بأنه يمكن تعويضي عن معاناتي من خلال الحرية التي ضمنها لي المجتمع لإلحاق الأذى في المقابل. مزقتني السياط، ولذلك السبب، حتى لو لم أجرؤ على المطالبة بتسليم ذلك السفاح الأعزل حاليًا إلى يدي التي ترتجف من السوط، أريد على الأقل الرضا الوضيع لمعرفة أن عدوي وراء القضبان. عندئذ أتخيل أن تناقضَ إحساسي الزمني المشوّه بجنون قد حُلّ.

ليس من السهل رفض اللوم الذي يبسط المشكلة إلى هذا الحد، ويكاد يكون من المستحيل إضعاف الشك في أنني أغمر الحقيقة البشعة لغريزة شريرة في السيل اللفظي لأطروحة لا يمكن إثباتها. سأُضطر إلى المخاطرة عندما أقف إلى جانب استيائي، عندما أعترف أثناء مناقشة قضيتنا أنني «منحاز»، ما زلت أعرف أنني أسير *الحقيقة الأخلاقية* للصراع.

يبدو لي بلا معنًى من الناحية المنطقية المطالبةُ بالموضوعية في الجدل مع جلادي، ومع أولئك الذين ساعدوهم، ومع أولئك الذين وقفوا صامتين فحسب. القتل الجماعي والتعذيب والإيذاء من كل نوع ما هي إلا حلقات من الحوادث الجسدية يمكن وصفها باللغة الرسمية للعلوم الطبيعية. إنها حقائق داخل نظام مادي، وليست أفعالًا في داخل نظام أخلاقي. لم يكن لجرائمِ الاشتراكية القومية صفةٌ أخلاقية للفاعل، الذي كان يثق دائمًا في النظام المعياري لفوهررِهِ ورايْخِهِ. الوحش، الذي لا يقيده ضميره إلى فعله، ينظر إليه من وجهة نظره فقط كتجسيد لإرادته، وليس كحدثٍ أخلاقي.

شعر رجل الـ SS الفلمنكي وايس، الذي ألهمه سادته الألمان، وضربني على رأسي بمقبض مجرفة كلما لم أعمل بالسرعة الكافية، أن الأداة هي امتداد ليده والضربات انبعاثٌ من ديناميكيته النفسية ـ الجسدية. أمتلك فقط، وما زلت أمتلك، الحقيقية الأخلاقية للضربات التي تهدر حتى اليوم في جمجمتي، ولهذا السبب أنا أكثر أحقّية بالحكم، لا أكثر من الجاني فحسب، بل أكثر من المجتمع أيضًا ـ الذي يفكر في استمراره الوجودي. إن الجسد الاجتماعي منشغل فقط بحماية نفسه ولا يهتم كثيرًا بالحياة التي تضررت. إنه يتطلع، في أحسن الأحوال، إلى الأمام، حتى لا تحدث مثل هذه الأمور مرةً أخرى. ولكن استيائي موجودٌ لكي تصبح الجريمة حقيقةً أخلاقية للمجرم، ولكي ينجرف إلى حقيقة وحشيته.

رجل الـ SS، وايس من أنتويرب، قاتلٌ جماعي وجلاد بارع، كان عليه أن يدفع حياته ثمنًا. ما الذي يمكن أن يطلبه تعطشي البائس إلى الانتقام أكثر؟ لكن إذا تعمّقتُ في نفسي بما فيه الكفاية، فإن الأمر لا يتعلق بمسألة انتقام ولا بالكفّارة. فعيشُ تجربة الاضطهاد هو في العمق تجربة *عزلة شديدة*. ما يعنيه بالنسبة إليّ هو أن أتخلص من هذا الشعور الدائم بالخذلان الذي استمر منذ ذلك الوقت وحتى اليوم.

عندما وقف وايس رجل الـ ss أمام فرقة الإعدام، عاش الحقيقة الأخلاقية لجرائمه. في تلك اللحظة كان معي ـ وعُدْتُ لستُ وحدي مع مقبض الجرافة. أود أن أصدق أنه أراد في لحظة إعدامه، بالضبط بقدر ما أعود بالزمن إلى الوراء، إلغاء ما عُمِل. عندما قادوه إلى مكان الإعدام، أصبح عدو الإنسان مرةً أخرى إنسانًا. لو أن كل شيء حدث بيني وبين وايس رجل الـ SS فقط، لو كان لم يثقل عليّ هَرَمٌ كامل مقلوب من

رجال الـ SS، ومساعدي SS، والمسؤولين والكابو والجنرالات المزيَّنين بالميداليات، لَمِتُّ بهدوء ورَضِيت مع زملائي بوسام رأس الموت. هذا على الأقل ما يبدو لي.

لكن وايس من أنتويرب كان واحدًا فحسب من بين العديد. ما يزال الهرم المقلوب يقودني بنقطته إلى الأرض. وهكذا فإن النوع الخاص من الاستياء، الذي لم يكن بمقدور نيتشه ولا ماكس شيلر (الذي كتب عن هذا الموضوع عام 1912)، أن تكون لهما أية فكرة عنه. ولهذا فإن ميلي الضعيف إلى المصالحة، أو بدقة أكبر: القناعة بأن استعداد ضحايا النازية المعلن للمصالحة لا يمكن أن يتجذّر إلا في صراحة عاطفية ولا مبالاة بالحياة أو تحول ماسوشي لعطش حقيقي مكبوت للانتقام. كل من يغمر فرديّته في المجتمع وبوسعه أن يفهم نفسه فقط على أنها وظيفة من وظائف المجتمع، أي الشخص غير الحساس وغير المبالي، يستطيع حقًّا أن يغفر. إنه يسمح بهدوء لما حدث أن يظل كما كان. كما يقول المثل الشائع، يَترُك الزمن يشفي جراحَهُ. إحساسه بالوقت لا يكون مضطربًا، أعني القول إنه لم ينتقل من المجال البيولوجي والإجتماعي إلى المجال الأخلاقي. بصفته جزءًا من الآلية الاجتماعية، غير فرديٍّ وقابل للاستبدال، يعيش معها بموافقة، وعندما يسامح يكون سلوكه مشابهًا لردّ الفعل الاجتماعي على الجريمة كما وصفها محامي المحكمة الفرنسية موريس غاركون فيما يتعلق بالنقاش حول قانون التقادم. يقول لنا السيد المحامي: «الطفل الذي يُوبَّخ مسبقًا على قلة طاعته في الماضي، يجيب: لكن هذا ماضٍ حقًّا». يبدو هذا الماضي الموجود لفترة طويلة مسبقًا للطفل بأكبر طريقة طبيعية كعذر. ونحن أيضا نعتبر البُعد عبر الزمن مبدأ قانون التقادم. تُسبب الجريمة القلق

في المجتمع. ولكن بمجرد أن يفقد الوعي العام ذكرى الجريمة، يختفي القلق أيضًا. وتصبح العقوبة التي تتقادم زمنيًا عن الجريمة بلا معنًى».
هذا صحيح إلى درجة كونه وحيًا مكررًا ـ إلى الحد الذي نتعامل فيه مع المجتمع، أو مع الفرد الذي يدمج نفسه أخلاقيًا في المجتمع ويذوب في إجماعه. وليس له أيّ صلة على الإطلاق بالشخص الذي يرى نفسه فريدًا من الناحية الأخلاقية.

وعليه، فقد وضعتُ، بمساعدة حيلة، عدم قابليتي لقَبُول التصالح في الضوء الساطع للمصلحة العامة والأخلاق. سأُوَبَّخ دون شك على هذا، ويجب أن أردّ، لأنني أدرك منذ البداية أن الغالبية العظمى من غير ضحايا العالم بالكاد سيقبلون تبريري. لكن لا يُهم. خلال عقدين من التفكير فيما حدث لي، أحسب أنني أدركتُ أن التسامح والنسيان الناجمين عن الضغط الاجتماعي هما أمر لا أخلاقي. مَن يغفر بتكاسل وبثمن بخس، يُخضع نفسه للحس الزمني الاجتماعي والبيولوجي الذي يُسَمّى أيضًا «الطبيعي». إن الوعي الطبيعي للزمن متجذرٌ حقًّا في العملية الفسيولوجية لشفاء الجروح، وأصبح جزءًا من التصور الاجتماعي للواقع. ولكن لهذا السبب بالتحديد، فهو ليس خارجًا عن الأخلاق فقط، بل إنه ضد الأخلاق في طبيعته. للإنسان الحق والامتياز في إعلان نفسه بأن يكون في خلاف مع كل حَدَثٍ طبيعي، بما في ذلك العلاج البيولوجي الذي ينتجه هذا الزمن. ما حدث حدث. هذه العبارة صحيحة بقدر ما هي معادية تمامًا للأخلاق والعقل. القوة الأخلاقية للمقاومة تتضمن الاحتجاج، والتمرد على الواقع، الذي يكون عقلانيًا فقط ما دام أخلاقيًا. الشخص الأخلاقي يطالب بإلغاء الزمن في الحالة المعنية موضوع البحث ـ بتثبيت المجرم

بمسمار إلى فعلته. وبالتالي، ومن خلال إعادة الساعة إلى الوراء بشكل أخلاقي، يمكن للأخير أن ينضمّ إلى ضحيّته كإنسانٍ زميل.

لا يمكنني أن أطرِيَ نفسِيَ بأنني بتلك الحجج قد أقنعت أي شخص ينتمي إلى نفس الأمة التي ينتمي إليها المجرمون أو الذي ينتمي باعتباره غير ضحية إلى المجتمع الأكبر لكل غير المصابين في هذا العالم. لكنني لا أتحدث على الإطلاق بنية الإقناع، إنني ألقي كلامي بشكل أعمى على الميزان، مهما كان وزنه، وماذا سيكون وزنه؟ سيعتمد ذلك إلى حد ما على ما إذا كنتُ قادرًا على التحقق من استيائي ـ والذي يجب أن يشكّل بالضرورة جزءًا من تحليلهم ـ على الأقل إلى الحد الذي لا يتجاوزون فيه موضوعهم. إذا كنتُ أسعى إلى تحديد المنطقة التي ينشطون فيها، فيجب أن أعود مرةً أخرى إلى ما أسميتُه بشكل إيحائي ذنبًا جماعيًا. الكلمة ممنوعة، ليس فقط كما هو الحال اليوم، ولكن منذ عام 1946. فإذا لعب الألمان الدورَ الأوربي المَنُوط بهم، فلا يمكن لأحد أن يسيء إليهم. كان هناك صمت، عار لأنك صغت مثل هذا التعبير الذي يبدو أنه غير مدروس. على الرغم من أنني لا أجده سهلًا، يجب عليّ أن ألتزم به. لكن أولًا يجب أن أعرّفه بشكل مناسب، مهما كانَتِ المخاطر.

الذنب الجماعي. ذلك بطبيعة الحال محض هراء، إذا كان يعني ضمنًا أن مجتمعَ الألمان امتلك وعيًا مشتركًا، وإرادة مشتركة، ومبادرة مشتركة للعمل، وبالتالي أصبح مذنبًا. لكنها فَرْضية مفيدة إذا لم يُقصد بها شيءٌ آخرُ سوى المجموع الظاهر بشكل موضوعي للسلوك الفردي المذنب. عندئذ ينشأ من ذنب الألمان الأفراد ـ ذنب الفعل، وذنب الإغفال، وذنب الكلام، وذنب الصمت ـ الذنب التام للشعب. قبل إمكانية تطبيق مفهوم

الذنب الجماعي، يجب تحريره من الأسطورة والغموض، عندها سيفقد نبرته القاتمة المشؤومة، وسيكون مفيدًا بالطريقة الوحيدة الممكنة: كبيان إحصائي غامض.

أقول إحصائية غامضة بسبب عدم وجود أرقام دقيقة، ولا يمكن لأحد تحديد عدد الألمان الذين اعترفوا أو وافقوا أو ارتكبوا هم أنفسهم جرائمَ الاشتراكية القومية، أو سمح لهم في حالة اشمئزاز عاجز المرور بأسمائهم. لكن كل واحد منّا نحن الضحايا كان له تجربته الإحصائية الخاصة، حتى ولو كانت تقريبية فقط ولا يمكن التعبير عنها بالأرقام. وبرغم كل شيء، عشنا خلال السنوات الحاسمة وسط الشعب الألماني، سواء في الاختفاء تحت الاحتلال الألماني في الخارج، أو في ألمانيا ذاتها، نعمل في المصانع، أو معتقلين في السجون ومعكسرات الاعتقال. لذلك السبب، يمكنني القول إن جرائم النظام دخلت وعيِيَ كأفعالٍ جماعية للشعب. كان هناك أولئك الذين كانوا في الرايخ الثالث، وانفصلوا عنه، حتى ولو في صمت، حتى ولو عبر نظرة غاضبة إلى الضابط راكاس SS Roll Call، أو من خلال ابتسامة عطوفة علينا، أو من خلال خفض نظراتهم في حالة من الخزي، لكنهم لم يكونوا كثيرين بما يكفي في إحصائيّاتي التي لا حصر لها لترجيح كفة الميزان لصالحهم.

لم أنسَ أيَ شيء، بما في ذلك القليل من الأشخاص الشُّجعان الذين قابلتهم. إنهم معي: الجندي المُعاق هربرت كارب من دانزيج Danzig، الذي شاركني سيجارته الأخيرة في أوشفيتز ـ مونوفيتز، ووِلِي شنايدر، عامل كاثوليكي من إيسن، خاطبني باسمي الأول السابق المنسي وأعطاني خبزًا، وماتيوس، رئيس عمال الكيمياويات، الذي قال لي بتنهيدة حزينة في

6 حَزيران 1944: «لقد وصلوا، أخيرًا! لكن هل سيعيش أحدنا حتى يفوزوا مرة واحدة إلى الأبد؟». لديّ العديد من الرفاق الجيدين. كان هناك جنديٌّ *فيرماخت* Wehrmacht من ميونخ، ألقى سيجارة مشتعلة عبر قضبان الزنزانة بعد تعذيبي في بريندونك. كان هناك المهندس البلطيقي الشهم والتقني من غراس Graz، اللذان عدتُ لا أتذكرهما بالأسماء واللذان أنقذاني من الهلاك في انفصال سلك في بوخينفالد ـ دورا. أشعر في بعض الأحيان بالقلق بشأن مصيرهم، الذي ربما لم يكن، وعلى الأرجح، جيدًا.

ينبغي أن لا يُلقَى اللومُ على رفاقي الطيبين ولا عليّ، لأن وزنهم ضئيل للغاية حالما يقفون أمامي ليس في تفردهم بل وسط شعبهم. كتب شاعر ألماني في مقطوعة بعنوان «altbraun» يحاول أن يصف كابوس الأغلبية السمراء:

... إذا كان البعض هم أقلية، في العلاقة بالكثيرين أو الجميع،

إذن فهم أكثر ارتباطًا بالجميع مقارنةً بالكثيرين،

والجميع يشكلون أكثرية أقوى بالنسبة إلى البعض مقارنةً بالعديد...

كان عليّ أن أكتفي بالبعض، وفي العلاقة بهم يشكل العديد، الذين كانوا يجب أن يظهروا حقًا بالنسبة إليّ ككل، أغلبية ساحقة. إن الرجال الشرفاء، الذين كنت سأنقذهم بكل سرور، قد وقعوا بالفعل في كُتلة اللا مبالين، والخبثاء والشرسين، والنواشز، وكبار السن البدينين والشباب الجميلين، أولئك الذين تُسكرهم سلطتهم، الذين حسبوا أنها ليست جريمةً ضد الدولة فقط ولكن أيضًا ضد غرورهم لو تحدثوا مع أشخاص مثلنا بأي لغة أخرى ولكن بنبرة فظة متسلطة. لم تكن الغالبية من رجال

القوات الخاصة SS بل كانوا بالأحرى عمالًا، وكَتَبة ملفات، وتقنيّين، وكُتّابَ طابعة ـ وأقلية منهم فقط كانت ترتدي شارة الحزب. كانوا بالنسبة إليّ، على وجه العموم، الشعب الألماني. كانوا يعرفون بالضبط ما كان يدور حولهم ومعنا. لأنهم لاحظوا الرائحة المحترقة من معسكر الإبادة القريب كما فعلنا، وارتدى بعضهم ملابسَ أُخِذَت في اليوم السابق فقط في ساحات التعداد من الضحايا الذين وصلوا. قدم عامل قوي، رئيس جمعية فايفر، نفسه مرةً بفخر لي بمعطف شتوي، «معطف يهودي»، كما قال، مَكّنته مهارته في الحصول عليه. لقد وجدوا أن كل شيء على ما يرام، وأنا متأكد تمامًا أنهم سيصوّتون لهتلر وشركائه لو أنهم في ذلك الوقت، 1943، تقدموا إلى صندوق الاقتراع. العمال، والبرجوازيون الصغار، والأكاديميون، والبافاريون، والسارلاندرزيون، والساكسونيون: لم يكن هناك أي فرق. سواء أرادت الضحية ذلك أو لا، كان عليها أن تحسب أن هتلر هو حقًّا الشعب الألماني. لم تكن لدى وِلِي شنايدر وهربرت كارب وفورمان ماتيوس فرصة التغلب ضد جماهير الشعب.

لكن يبدو لي بالضبط كما لو أنني وصلت «لتحديد الكمية»، وهي خطيئة لا يمكن تبريرها ضد العقل، إذا كان على المرء أن يصدق الفلاسفة الأخلاقيين. والأمر لا يتعلق بالكميات، بل يتعلق برموزٍ محددة نوعيًّا وأفعال وعلامات رمزية. Quelle vieille chanson! يا لها من أغنيّة قديمة! وعلى الرغم من عمرها فإنها لم تصبح قيّمة. إذا كان أي شخص يأمل في أن يعرقلني باتهامي بتحديدٍ كمّي مرفوض، أسأله عما إذا كنّا نفعل شيئًا آخر غير القياس الكمي في الحياة السياسية والاقتصادية اليومية، وكذلك في الحياة الفكرية العالية والأسمى. من يملك مئة مارك ليس مليونيرًا.

من يخدش جلد خصمه في شجار لم يصبه إصابة خطيرة. «أنت أوربلد، يا بلدي» Du bist Orplid, mein Land، تعني أقل بالنسبة إلى مشاعر القارئ المعيارية من *الحرب والسلام*.[1] تعني الكمية بالنسبة إلى سياسي ديمقراطي نفس الشيء إلى الجرّاح الذي يجب أن يحكم على ورمٍ خبيث، أو إلى الموسيقي الذي يشرع في تكوين عمل أوركسترالي. بينما كان عليّ أيضًا أن أجد كمية الرفاق الجيدين من ناحية وعدد الأوغاد واللا مبالين من ناحية أخرى، توجّب علي أن أكون مستعدًّا وسط الشعب الألماني في كل لحظة، أن أسقط ضحيةً لطقوس القتل الجماعي. سواء أردت ذلك أو لا، كان عليّ أن أتبنى مفهوم الذنب الجماعي الإحصائي، وهو معرفة ثقيلة في عالم وزمن أعلن فيه البراءة الجماعية للألمان.

أنا مثقل بذنبٍ جماعي، وليس هُم. لقد دانَني العالم الذي يسامح وينسى، وليس أولئك الذين قتلوا أو سمحوا للقتل أن يحدث. أنا والآخرون مثلي هم شايلوكات، ليسوا مدانين أخلاقيًّا فحسب في نظر الأمم، بل خدعوا مسبقًا برطل اللحم أيضًا. لقد أنجز الزمن عمله بهدوء شديد. يشيخ جيلُ المدمِّرين بشرف، صانعو غرف الغاز، وأولئك المستعدون في أي وقت لتقديم ولائهم لمن يكون، الجنرالات الملزمون بواجبهم تجاه الفوهرر. سيكون اتهام الشباب، وفقًا للمفاهيم العالمية، غير إنساني للغاية، وغير تاريخي أيضًا. فما علاقة الطالب البالغ عشرين عامًا، والذي ترعرع في المناخ الهادئ للديمقراطية الألمانية الجديدة، بصنائع آبائه وأجداده!

---

(1) إشارة إلى رواية تولستوي «الحرب والسلام». أما الكلمات بالألمانية فهي السطر الأول من قصيدة بعنوان «أنشودة ڤَيْلا Gesang Weylas» للشاعر الألماني إدورد موركِه Eduard Morike.

فقط كراهية إنجيلية قديمة، متحجرة، يمكن أن تسحب حملها وتضعه على أكتاف الشباب الألماني البريء. ومع ذلك، فإن شرائح من الشباب، ولحسن الحظ ليس كلهم، يحتجّون بِحِسٍّ سليم بالعدالة لأولئك الذين يقفون على أرضية صلبة لإحساسهم الطبيعي بالزمن. قرأت في صحيفة أسبوعية ألمانية رسالة من شاب بشكل جليّ من مدينة كاسل، يعبّر ببلاغة عن سخط الأجيال الألمانية الجديدة من الكارهين والمستائين، الذين هم ـ نظرًا إلى أنهم عفّى عليهم الزمن من جميع النواحي ـ أيضًا سيئون. يكتب: «... لقد سئمنا في المحصّلة وتعبنا من السماع مرارًا وتكرارًا أن آباءنا قتلوا ستة ملايين يهودي. كم عدد النساء والأطفال الذين قتلهم الأميركيون بقنابلهم، وكم عدد البُوَيريين الذين قتلهم البريطانيون في حرب البوير؟».[1] هذا الاحتجاج يواجهنا بقوة أخلاقية واثقة من قضيتها. بالكاد يجرؤ المرء على الاعتراض على أن المعادلة «أوشفيتز ـ معسكر اعتقال بوير» هي حسابات أخلاقية خاطئة. فالعالم بأسره يفهم حقًّا استياء الشباب الألمان من أنبياء الكراهية الساخطين، وينحاز بشدّة إلى أولئك الذين ينتمي إليهم المستقبل. من الواضح أن المستقبل هو مفهوم قيّم. ما سيكون غدًا هو أكثر قيمة مما كان بالأمسِ. ذلك الشعور الطبيعي بالزمن. هذه هي الطريقة التي سيحصل بها الشعور الطبيعي بالزمن.

عندما أسأل نفسي فيما أحتفظ ضد الشباب الألماني بما أوقعه الجيل الأكبر سنًّا بي، لا أجد الإجابة بهذه السهولة. من المفهوم أن الشباب

---

(1) البوير مفردة هولندية تعني «مزارع»، وتستخدم لوصف الأفراد المتحدرين من المستوطنين الأصليين الأوائل، إلى جانب الأشخاص المرتبطين بثقافة البوير. ولهذا ليس من المدهش معرفة أن العديد من البوير كانوا بروتستانت هولنديين.

متحررين من الذنب الفردي والجماعي الناتج عن تراكمه. يجب عليّ، وأريد أن أضمن لهم الثقة مسبقًا، التي تعود إلى الشخص ذي التوجه المستقبلي. لكن من الممكن أن نتوقع من هؤلاء الشباب، أنهم لا يطالبون ببراءتهم بقوة ووقاحة كما ذكر كاتب الرسالة أعلاه. ما دامت لا تقرر الأمة الألمانية، بما فيها الفئات العمرية الشابة والأصغر، العيش دون تاريخ ـ وليس هناك ما يشير إلى أن المجتمع القومي الأكثر وعيًا بالتاريخ في العالم سيتخذ فجأةً مثل هذا الموقف ـ من ثَم عليه أن يستمر بتحمل المسؤولية عن تلك السنوات الاثنتي عشرة التي لم تلغِ نفسها بالتأكيد. ليس بوسع الشباب الألمان الاستشهاد بغوته وموريكي وبارون فون شتاين، وتجاهل بلانك وڤلهلم شِيِفر وهاينريش هملر. ليس من الممكن الاكتفاء بالمطالبة بالأجزاء المجيدة من التقاليد القومية، وإنكار التقليد الذي يقوم فيه الشخص الذي يجسد العار بدعم خصم وهمي محتمل، من الواضح أنه أعزل من المجتمع الإنساني. إذا كان كونك ألمانيا يعني أن تكون من نسل ماتياس كلوديوس، فمن المؤكد أن هذا يعني أيضًا أن لدى المرء في نَسَبِه شاعر الحزب النازي هيرمان كلوديوس. كان توماس مان يعرف ذلك عندما كتب في مقالته «ألمانيا للألمان»: من المستحيل على ألماني يفكر أن يعلن: أنا ألماني جيد، وعادل، ونبيل برداء أبيض... لا شيء مما قلته لكم عن ألمانيا جاء من معرفة أجنبية رصينة منفصلة، فأنا أحملها أيضًا في داخلي، لقد جربتها كليًّا بنفسي».

إن طبعة المجلد التي أقتبس منها تسمى Schulausgabe moderner Autoren. لا أعرف ما إذا كانت مقالات توماس مان تقرأ بالفعل في المدارس الألمانية وكيف يُعَلَّق عليها من قبل المعلمين. لا يسعني إلا

أن آمل أن لا يجد الشباب الألماني أن الارتباط الفكري مع توماس مان صعبٌ أكثر مما ينبغي، وأن غالبية الشباب لا يشاركون حنق المراسل أعلاه. لنكرر: سيظل هتلر وأفعاله أيضًا جزءًا من التاريخ الألماني والتقاليد الألمانية.

وبينما أتحدث أكثر عن استياء الضحية أدخل مجال التاريخ الألماني والتاريخانية. أنا مضطر، مع ذلك، إلى تحديد مهمتهم الموضوعية. ربما يتعلق الأمر بتنقية نفسي فقط، لكنني آمل أن استيائي ـ الذي هو احتجاجي الشخصي على عملية الشفاء الطبيعية المناهضة للأخلاق التي أسفر عنها ذلك الوقت، والتي أقدم من خلاله مطلبًا إنسانيًا وعبثيًا حقًا بإعادة الوقت إلى الوراء ـ سينجز وظيفة تاريخية أيضًا. إذا كان بالإمكان إنجاز المهمة التي حددتها، لكان يمكن أن تمثل تاريخيًا مرحلة في ديناميكية التقدم الأخلاقي، والثورة الألمانية التي لم تحدث. هذا المطلب ليس أقل عبثية ولا أقل أخلاقية عن المطالبة الفردية بأن تكون العمليات التي لا رجعة فيها قابلة للعودة.

من أجل توضيح وتبسيط ما أعنيه، أحتاج فقط إلى العودة إلى القناعة التي عُبِّر عنها مسبقًا بأن الصراع الذي لن يُحَلّ بين الضحايا والجزارين يجب أن يُعْلل ويُتَحَقّق منه، إذا كان كل من المهزومين وأولئك الذين هزموهم ينجحون في السيطرة على الماضي، الماضي الذي ما يزال لديهم قواسم مشتركة فيه، على الرغم من تناقضه الشديد. التعليل والتحقيق: لا يمكن بالطبع أن يتكوّنا من تنظيم عمل انتقامي يتناسب مع المتضررين. لا أستطيع إثباته، لكنني متأكد من أنه لا توجد ضحية ستفكر حتى في شنق الرجل بوجنر في محاكمة أوشفيتز، بالتعليق في أرجوحة ـ بوجنر. والأقل

احتمالًا حتى، أيمكن لأي شخص عاقل بيننا أن يغامر ذات مرة بالاستحالة الأخلاقية أن أربعة إلى ستة ملايين ألماني ينبغي أن يُساقوا بالقوة إلى حتفهم؟ لا يوجد مكان آخر يمكن أن يكون فيه قانون العين بالعين والسن بالسن *jus talionis* أقل إحساسًا تاريخيًّا وأخلاقيًّا مما كان عليه في هذه الحالة. لا يمكن أن يكون الأمر، من ناحية، مسألةَ انتقام، أو مسألة كفّارة إشكالية ذات معنًى لاهوتيٍّ فقط، من الناحية الأخرى، ولهذا فلا علاقة له بي تمامًا. بالطبع لا يمكن لأي شخص القيام بأي تطهير باستخدام القوة، فهو أمر غير وارد تاريخيًّا. ما القضية إذن ـ منذ أن تحدثت صراحةً عن حل الصراع في مجال الممارسة التاريخية؟

حسنًا، يمكن حل المشكلة بالسماح للسخط أن يستمر لدى أحد الطرفين، أمر من شأنه أن يثير عدم الثقة بالنفس في الطرف الآخر. سيظل الشعب الألماني، مستحثًّا بدوافع استيائنا ـ وليس على الأقل من خلال المصالحة التي غالبًا ما يكون مشكوكًا فيها من الناحية الذاتية ومعادية للتاريخ موضوعيًّا ـ، حسّاسًا إلى حقيقة أنهم لا يستطيعون السماح بتحييد جزء من تاريخهم القومي بمرور الوقت، بل ينبغي لهم أن يكمّلوه. إذا كنتُ أتذكر جيدًا، فقد كان هانز ماغنوس إنزينسبرغر هو من كتب ذات مرة أن أوشفيتز هو ماضي ألمانيا وحاضرها ومستقبلها. لكن الأمر لسوء الحظ لا يتعلق به، ما دام إنزينسبرغر والأشخاص الذين من طينته الأخلاقية ليسوا هم الشعب. لكن إذا استطاع سخطنا أن يرفع وسط صمت العالم إصْبَع اتهام، لاحتفظت ألمانيا ككلّ، وفي أجيالها القادمة أيضًا، بذكرى عن أنه ليس الألمان الذين أزالوا الحكم المقيت. بعد ذلك، كما آمل في كثير من الأحيان، أن تكون فرصة لألمانيا لتعلُّم أن تفهم أن موافقتها

السابقة للرايخ الثالث ليست أمرًا يُعدّ فقط النفي التام لعالم مَلأته بالحرب والموت، ولكنها أيضًا نفيٌ للجزء الأفضل من أصلها. حينها ستكفّ عن قمع أو التكتّم على اثنتي عشر سنة كانت بحق ألف سنة بالنسبة إلينا، بل ستواصل اعتبارها النفي المحقق لذاتها وللعالم، وخاصّيتها السلبية. سيحدث هناك في حقل التاريخ ما وصفته بشكل افتراضي سابقًا لحلقة محدودة خصوصية: ستلتقي مجموعتان من الناس، المهزومون وأولئك الذين هزموهم، عند نقطعة تقاطع الرغبة في أن يعود الوقت إلى الوراء، وبالتالي إضفاء الطابع الأخلاقي على التاريخ. إن مثل هذا الطلب من الألمان، المنتصرين الفعليين الذين أعاد الزمن تأهيلهم بالفعل، سيكون له وزن هائل، كبير بما يكفي لتلبية الطلب نفسه. وستكون الثورة الألمانية جيدة ويُرفَض. وفي النتيجة، لَبَلَغت ألمانيا ما لم يكن الشعب في يومٍ من الأيام يمتلك القوة والإرادة له، والذي عاد لا يبدو في الصراع على السلطة السياسية لاحقًا ضرورةً: وهو استئصال العار.

يمكن لكل ألماني أن يتخيل بنفسه كيف سيحدث هذا في الممارسة العملية. هذا الكاتب ليس ألمانيًا، وليس له أن يقدم النصيحة لهذا الشعب. يمكنه، في أحسن الأحوال، أن يتخيل بشكل غامض مجتمعًا قوميًا سيرفض كل شيء، إنما كل شيء بالتمام أُنجز في أيام تدهوره العميق، وما قد يبدو هنا وهناك أنه غير ضار مثل الأوتوبان Autobahns.[1] وقد عبر توماس مان ذات مرة عن ذلك، ضمن إطاره المرجعي الأدبي حصريًا، في رسالة كتبها إلى والتر فون مولو: «ربما هي خرافة، لكن الكتب التي أمكن طباعتها في ألمانيا بين الأعوام 1933 و1945 هي في نظري أقل من عديمة القيمة، وأن

---

(1) بالألمانية بمعنى الشوارع الرئيسية

تمسكها بيدك أمر مثير للاشمئزاز. تعلق بها رائحة دم وعار، ينبغي تحويلها كلها إلى عجينة». سيكون الاختزال الروحي من قبل الشعب الألماني لا للكتب وحدها إلى عجينة، بل لكل شيء نُفّذ في تلك الأعوام الاثني عشر، نفيًا مزدوجًا: فعل انعتاق وإيجابيًّا للغاية. عندها فقط يمكن تهدئة استيائنا ذاتيًّا فيصبح عديم الجدوى من الناحية الموضوعية.

لكن أي حلم يقظة أخلاقي مبالغ فيه قد تركت نفسي له! لقد رأيت مسبقًا وجوه الركّاب الألمان على رصيف المحطة عام 1945 تزداد شحوبًا عند رؤية أكوام جثث رفاقي المكدسة ويتحولون بشكل مهدد نحو جلادينا وجلاديهم. بفضل سخطي والتطهير الألماني الداخلي الناجم عن آثاره، رأيتُ بالفعل الزمن يعود إلى الوراء. ألم ينتزع ألماني من وايس رجل ss المجرفة التي استخدمها كأداة للضرب؟ ألم تستقبل امرأة ألمانية الرجل الذي أُصيب بالدُّوار وكان محطمًا بعد أن عُذّب لعلاج جروحه؟ وهو ما لم أره في الماضي، الذي كان يتجه بلا قيود إلى المستقبل، وكان متقنًا إلى الآن حقًّا وإلى الأبد!

لن يحدث شيء من هذا القبيل، كما أعلم، على الرغم من كل الجهود الجادة للمثقفين الألمان ـ وقد ينتهي بهمُ الأمر في المحصّلة إلى ما يتهمهم الآخرون به أن يكون الأسوأ: بلا جذور. تشير جميع العلامات التي يمكن تعرُّفها إلى أن الزمن الطبيعي سيرفض المطالب الأخلاقية لسخطنا ويقضي في النهاية عليها. هذه هي الثورة العظيمة؟ لن تُوَفَّق ألمانيا في هذا، وستكون ضغينتُنا من أجل لا شيء. سيستمرُّ رايخ هتلر، في الوقت الحالي، باعتباره حدثًا عمليًّا من التاريخ. أخيرًا، ومع ذلك، سيكون الأمر مجرد تاريخ محض وبسيط، لا أفضل ولا أسوأ من العصور التاريخية الدرامية التي قد يحدث أن تكون ملطخة بالدماء، لكن بالرغم

من ذلك، فإن رايخا كان له أيضًا حياته الأسرية اليومية. ستعلق صورة الجد الأكبر الذي يرتدي زي قوات الأمن الخاصة ss في الصالون، وسيتعلم الأطفال في المدارس عن ساحات التعداد أقل مما يتعلمون عن انتصار مدهش على البطالة العامة. هتلر، هملر، هايرش، كالتنبرونر ـ ستكون هذه أسماء مثل نابليون، وفوشيه، وروبسبير، ودي سانت جست.[1] على الرغم من ذلك، قرأتُ اليوم فعلًا في كتاب بعنوان Uber Deutschland يحتوي على حوارات خيالية بين أب ألماني وابنه الصغير جدًا، أنه في نظر الابن لا يوجد فرق بين البلشفية والنازية. ما حدث في ألمانيا بين الأعوام 1933 ـ 1945، كذلك سيعلّمون ويقولون، كان من الممكن أن يحدث مثله في أي مكان آخر وفي ظل ظروف مماثلة، ولن يصرّ أحدٌ أكثر على أن التفاهة حدثت في ألمانيا بالضبط لا في مكان آخر. كتب ضابط الأركان العامة الألماني السابق الأمير فرديناند فون دير لاين في كتابه Ruckkehr zur Mauerwald: «جاءت أخبار حتى أبشع من إحدى مفارزنا. اقتحمت وحدات القوات الخاصة المنازل هناك، وألقت الأطفال الذين ما زالوا غير قادرين على السير عبر النوافذ، من الطوابق العليا إلى الرصيف». لكن ما أنجزه هذا الشعب المتحضر للغاية بإبادة جماعية للملايين، نُفذت بمصداقية تنظيمية ودقة شبه علمية، سيكون أمرًا مؤسفًا، ولكنه ليس فريدًا بأي حال من الأحوال، إلى جانب الترحيل الدموي للأرمينيين من قِبَل الأتراك أو مع أعمال العنف المخزية من قِبَل الاستعمار الفرنسي:

---

(1) هو لويس أنتوني دي سانت جست، المعروف بملاك الموت. كان قائدًا يعقوبيًا خلال الثورة الفرنسية، وكان رفيقًا مقرّبًا ومحل ثقة روبسبير خلال فترة الحكم اليعقوبي في الفترة 1793 ـ 94.

كل شيء سيُضَمَّن تحت صفة موجزة: «قرن البربرية». وسنبدو نحن الضحايا كأشخاص لا يمكن إصلاحهم حقًا، ولا يمكن التصالح معهم، مثل الرجعيين المعادين للتاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، وسيبدو الأمر في النهاية كأنه نازِلةٌ تقنيّة التي بقي بعضٌ منا فيها على قيد الحياة.

أسافر عبر البلاد المزدهرة، وما زلت أشعر بعدم ارتياح متزايد. لا يمكنني الادعاء بأنني لم أُعامل بطريقة ودية وتفهُّم في كل مكان. ما الذي يمكن أن نطالب به أكثر من أن تقرّ لنا الصحف ومحطات الإذاعة الألمانية إمكانية مخاطبة الرجال والنساء الألمان بملاحظات عديمة اللباقة، وفوق هذا أن نحصل على مكافأة مقابل ذلك؟ أدرك أنه حتى أكثر الخيرين سينبغي له في النهاية أن ينفد صبرهم معنا مثل كاتب الرسالة الشاب الذي نقلت عنه سابقًا، الشخص الذي «سئم من الأمر». هأنذا مع سخطي في فرانكفورت وشتوتغارت وكولونيا وميونيخ. وإذا شئت، أحمل ضغينتي من أجل خلاصي الشخصي، بالتأكيد. ولكن من أجل الشعب الألماني أيضًا. لكن لا أحد يريد أن يريحني منه، ما عدا أجهزة صنع الرأي العام التي تشتريه. ما جردني من إنسانيتي أصبح سلعة أعرضها للبيع.

البلاد المصيرية، حيث يقف البعض في النور إلى الأبد، والبعض الآخر في الظلام إلى الأبد. لقد سافرتُ في عُرض البلاد وطولها في قطارات الإجلاء التي نقلتنا، تحت ضغط الهجوم السوفييتي الأخير، وحملتنا من أوشفيتز غربًا ولاحقًا من بوخنفالد شمالًا إلى بيرغن ـ بيلسن. عندما قادتنا الجنازير خلال الجليد عبر ركن من أركان الريف البوهيمي، جاءت الفلاحات راكضات إلى قطار الموت ومعهن الخبز والتفاح، وكان لا بدّ من مطاردتهن بطلقات نارية في الهواء من قِبَل حرس الحزب. لكن في

الرايخ: كانوا وجوهًا من حجر. شعب فخور. شعب فخور حتى يومنا هذا. الكبرياء قد ترسخ، يجب الاعتراف بهذا. عاد لا ينحسر بين فكوك طاحنة، بل يلمع من رضى الضمير الصالح والفرح المفهوم بكونهم صنعوه مرةً أخرى. عاد لا يقوم على أعمال الجندي البطولية في ساحة المعركة، ولكن على مقياس عالمي من الإنتاجية. ومع ذلك، فهو الكبرياء القديمة، ومن جهتنا العجز القديم. ويل للمقهورين.

عليّ أن أغلف سخطي. ما زلت أومن بقيمتهم الأخلاقية وصلاحيتهم التاريخية. ما أزال، ولكن إلى متى؟ مجرد أنني يجب أن أطرح على نفسي مثل هذا السؤال يوضّح مدى ضخامة ووحشية مرور الوقت الطبيعي. ربما أحكم على نفسي لهذا بالفعل غدًا، بأن أدرك أن المطلب الأخلاقي من أجل النقض على أنه ثرثرة نصف عقلانية، وهو أمر ذَكَره الخبراء المحنكون منذ فترة طويلة. سيكون هذا هو الانتصار النهائي للشعب الفخور الذي يغرق فيه هربرت كارب، ووِلِي شنايدر، وفورمان ماتيوس وعدد قليل من المثقفين اليوم. مخاوف نيتشه وشيلر لم يكن لها في الواقع ما يبررها. أخلاق العبيد لدينا لن تنتصر. سخطنا ـ مصدر عاطفي لكل أخلاق أصيلة، والتي كانت دائمًا أخلاقًا للخاسرين ـ لديه فرصة ضئيلة أو معدومة لجعل عمل الأكثرية مريرًا لهم. يجب علينا نحن الضحايا أن ننتهي من حقدنا بأثر رجعي، بنفس معنى لغة نظام kz الخاصة (معسكر الاعتقال) التي منحت ذات مرة لكلمة: «إنهاء»: كانت تعني بقدر ما «أن تَقتلَ». سننتهي ويجب أن ننتهي قريبًا. وإلى أن يحين ذلك الوقت، نطلب من الذين ينزعج سلامهم من ضغينتنا أن يتحلوا بالصبر.

حول ضرورة واستحالة أن تكون يهوديًا

ليس نادرًا، عندما يستدرجني شريكي في محادثة إلى صيغة الجمع - أي بمجرد أن يدرج شخصيتي في أي شأن ويقول لي: «نحن اليهود...» - لا أشعر بعذاب تمامًا، لكن مع ذلك بعدم راحة بليغ. لقد حاولت منذ فترة طويلة الوصول إلى أساس هذه الحالة النفسية المقلقة، ولم يكنِ الأمرُ بالنسبة إليّ سهلًا للغاية. هل يمكن أن يكون، هل من المعقول أنني، نزيل أوشفيتز السابق، الذي لم يفتقر في الحقيقة إلى فرصة لأعرف من هو وما ينبغي أن يكون - ما زلتُ أتجنب أن أكون يهوديًّا؟ كما كان الحال منذ عقود، عندما كنت أرتدي جوارب نصف بِيْض وسراويل جلدية حتى الركبة وكنت أنظر إلى نفسي بعصبيّة في المرآة لأرى فيما سيُظهر هذا شابًّا ألمانيًّا مثيرًا للإعجاب؟ بالطبع لا. إن حماقة تنكري باللباس النمساوي - رغم أنه كان في المحصّلة جزءًا من تراثي - ينتمي إلى الماضي البعيد. يوافقني جدًّا أنني لم أكن شابًّا ألمانيًّا ولستُ رجلًا ألمانيًّا. ومهما بدا القناع ملائمًا لي، فإنه يجد نفسه الآن في العلية. الانزعاج الذي ارتفع اليوم بداخلي بمجرد أن يعتبرني يهودي أنني جزء من مجتمعه كأمر مسلم به صادق، لا علاقة له بأمر أنني لا أريد أن أكون يهوديًّا، بل بأمر أنني لا أستطيع أن أكون. مع ذلك يجب أن أكون واحدًا. وأنا لا أخضع لهذه الضرورة فحسب، بل أطالب بها بصراحة كجزء من شخصيتي. ضرورة واستحالة أن أكون يهوديًّا، هذا ما يسبب لي

معاناة لا يمكن تحديدها. مع هذه الضرورة، هذه الاستحالة، هذا الاضطهاد، هذا العجز هو ما يجب أن أتعامل معه هنا، وفي القيام بذلك، لا يسعني إلا أن أتمنى، دون يقين، أن تكون قصتي الشخصية مثالًا جيدًا بما يكفي بحيث ينطبق على أولئك الذين ليسوا يهودًا ولا يجب أن يكونوا كذلك.

بادئ ذي بدء، بخصوص الاستحالة، إذا كان كوني يهوديًا يعني المشاركة في عقيدة دينية مع يهود آخرين، والمشاركة في الثقافة اليهودية والتقاليد الأسرية، وتربية نموذج قومي يهودي، فأنا أجد نفسي في وضع ميؤوس منه. أنا لا أومن بإله إسرائيل. وأعرف القليل جدًا عن الثقافة اليهودية. وأرى نفسي كصبي في عيد الميلاد، أتجول في قرية تغطيها الثلوج حتى قُدّاس منتصف الليل، ولا أرى نفسي في كنيس. أسمع أمي تتضرع إلى يسوع، وماريا، ويوسف عندما كانت تحدث مصيبة منزلية بسيطة، لم أسمع مناشدة الرب بالعبرية. صورة والدي ـ الذي بالكاد أعرفه، منذ أن بقي في المكان الذي أرسله القيصر إليه وحيث اعتبره الوطنُ في أكثر الأماكن أمانًا ـ لم تُظهر لي حكيمًا يهوديًا ملتحيًا، بل الأحرى رجل سلاح إمبراطوريًا تيروليًا في زمن الحرب العالمية الأولى. كانت سنّي تسعة عشر عامًا عندما سمعت بوجود لغة يديشية، على الرغم من أنني، من ناحية أخرى، كنتُ أعرف جيدًا أن الجيران كانو يعتبرون عائلتي المختلطة دينيًا وعرقيًا يهودية، ولم يفكر أحدٌ في بيتنا في إنكار أو إخفاء ما هو غير قابل للإخفاء بأي شكل من الأشكال. كنتُ يهوديًا تمامًا كما كان أحد زملائي في المدرسة ابنًا لصاحب فندق مفلس: عندما كان الصبي وحيدًا، ربما لم يعنِ الخراب المالي لعائلته شيئًا بالنسبة إليه، وعندما انضم إلينا نحن الآخرين تقهقر، كما فعلنا، في ارتباك ساخط.

إذا كان كوني يهوديًا يعني وجود تراث ثقافي أو روابطَ دينية، فأنا لم أكن واحدًا ولا يمكنني أن أصبح كذلك أبدًا. يمكن القول، بالتأكيد، إنه يمكن اكتساب التراث وإقامة الروابط، وبالتالي فأن تكون يهوديًا يمكن أن تكون مسألة قرار طوعي.

من الذي يمكن أن يمنعني من تعلم اللغة العبرية، ومن قراءة التاريخ والحكايات اليهودية، ومن المشاركة ـ حتى دون إيمان ـ في الطقوس اليهودية والدينية والقومية؟ مجهّزٌ بصورة جيدة بكل ما يلزم من معرفة الثقافة اليهودية من الأنبياء حتى مارتن بوبر، يمكنني أن أهاجر إلى إسرائيل وأُطلق على نفسي يوشانان Yochanan. أمتلك الحرية في أن أكون يهوديًا، وهذه الحرية هي شخصية للغاية وامتياز إنساني عالمي. ذلك ما أنا متأكد منه.

لكن هل أمتلكها حقًا؟ لا أعتقد ذلك. هل سيكون يوشانان، الحامل الفَخُور لهُوية جديدة مكتَسَبة ذاتيًا، مُحَصَّنًا في الرابع والعشرين من ديسمبر من خلال معرفته الشاملة المفترضة عن الهازيدية[1] ضد أفكار شجرة عيد الميلاد ذات البُندق المُذَهَّب؟ هل سيتمكن الإسرائيلي المستقيم، الذي يتحدث العبرية بطلاقة، من القضاء تمامًا على الشباب ذوي الملابس البيض الذين تحمّلوا مثل هذه الآلام للتحدّث بلهجة محلية؟ يعتبر تبديل الهوية في الأدب الحديث لعبة محفّزة تمامًا، لكن في حالتي فإنه تحدٍّ يواجهه المرء دون يقين من النجاح، في شموليته الإنسانية،

(1) Chassidim أو Hasidism حركة يهودية صوفية مؤثرة أُسست في بولندا في القرن الثامن عشر كرد فعل على الأكاديمية الصارمة لليهودية الحاخامية. تراجعت الحركة بشكل حاد في القرن التاسع عشر، لكن تطورت منها مجموعات أصولية، وما تزال الهازيدية قوة في الحياة اليهودية، لا سيما في إسرائيل ونيويورك.

دون فرصة لحلٍّ مؤقت، وسيكون مقدَّرًا عليه ـ يبدو لي ـ بالفشل تمامًا. يمكن للمرء أن يعيد تثبيت الرابطة مع التقاليد التي فقدها، ولكن لا يمكن للمرء أن يخترعها بحرية لنفسه، هذه هي المشكلة. لمّا كنتُ لست يهوديًا، فأنا لستُ واحدًا. ولمّا كنتُ لست واحدًا، فأنا لست قادرًا على أن أصبح واحدًا. سيكون يوشانان على جبل الكرمل، بيت تسكنه الأشباح ومفعم بالحيوية بذكريات وديان جبال الألب والطقوس الشعبية، حتى أكثر زيفًا مما كان عليه الشاب ذو الجوارب حتى الركبة ذات مرة. إن ديالكتيك تحقيق الذات، أن تكون ما أنت عليه كما يجب بمعنى أن يكون الإنسان بما يجب أن يكون عليه ويريد أن يكون، أمر محظور بالنسبة إليّ. فكونك شيئًا، ليس كجوهر ميتافيزيقي ولكن كخلاصة بسيطة للتجربة المبكرة، له أولوية حتمية. يجب أن يكون كل شخص كان عليه في السنوات الأولى من حياته، حتى لو دُفِنَ لاحقًا. لا أحد يستطيع أن يصبح ما لا يجده في ذكرياته.

لذلك لا يجوز لي أن أكون يهوديًا. ولكن هل يمكنني أن أجد نفسي على الإطلاق عندما ما يزال يتعين علي أن أكون يهوديًا، وهذه الـ«يجب» تعيق في نفس الوقت الطريق إلى أن أكون شيئًا آخر غير يهودي؟ هل يجب أن أرضخ، دون ماضٍ، كظل للمجرد الكوني (الذي لا وجود له) وألجأ إلى العبارة الفارغة القائلة إنني مجرد كائن بشري؟ لكن صبرًا، فلم نصل إلى تلك النقطة بعد. لمّا كانت الضرورة موجودةً ـ وكم هي قسرية! فربما يمكن حل المستحيل. يريد المرء بالرغم من كل شيء أن يعيش دون اختباء، كما فعلت عندما كنت مختفيًا، ودون أن أنحلّ في التجريد. كائن بشري؟ بالتأكيد، من لا يريد أن يكون هذا! لكن كي تكون إنسانًا فعليك

أولًا أن تكون ألمانيًّا، فرنسيًّا، مسيحيًّا، وتكون عضوًا في أي مجموعة اجتماعية محددة. يجب أن أكون يهوديًّا وسأصبح واحدًا، بدينٍ أو بغير دين، داخل أو خارج التقاليد، أن يكون اسمي جان، أو هانز، أو يوشانان. *لماذا* يجب أن أكون، هذا هو ما سأوضحه هنا.

لم يبدأِ الأمرُ عندما قال زملاءُ المدرسة للصبي: أنتم يهودٌ على أيّ حال، ولا بالعراك على مدخل الجامعة، والذي خلاله أطاحت قبضة نازي، منذ فترة طويلة قبل صعود هتلر إلى السلطة، بأحد أسناني. نعم، نحن يهود، وماذا في الأمر؟ أجبتُ زميلي في المدرسة. اليوم سني، وغدًا سنّك، وليأخذك الشيطان، فكرتُ في نفسي بعد الضرب، وحملتُ الفجوة (في فمي) بفخرٍ مثل ندبة مبارزة مثيرة للاهتمام.

لم يبدأ الأمر حتى عام 1935، عندما كنتُ جالسًا أمام صحيفة في مقهى في فيينا وكنتُ أدرس قوانين نورمبرغ، التي نُشِرَت للتوّ عبر الحدود في ألمانيا. كنتُ بحاجة إلى إلقاء نظرةٍ سريعة عليها فقط، وقد أدركتُ على الفور أنها منطبقة عليّ. لقد خلق المجتمع، المتجسد في الدولة الألمانية القومية، والتي يعترف بها العالم على أنها الممثل الشرعي تمامًا للشعب الألماني، للتو بشكل رسمي وبعيدًا عن أي سؤال، أو بالأحرى لقد أعطى بُعدًا جديدًا لِمَا كنتُ أعرفه مسبقًا، ولكن الذي لم يكن في ذلك الوقت ذا تبعة بالنسبة إليّ، أي أنني كنتُ يهوديًّا.

أي نوع من البُعد الجديد؟ ليس واحدًا يمكن سَبْرُ غوره على الفور. بعد أن قرأتُ قوانين نورمبرغ، لم أكن يهوديًّا أكثر من ما كنته قبل نصف ساعة. لم تصبح ملامحي أكثر ساميّةً ـ متوسطية، ولم يُملأ عالم أفكاري فجأةً بضربة سحرية بمراجعَ عبرية، ولم تحول شجرة عيد الميلاد بطريقة سحرية

إلى شمعدان ذي سبعة أذرعٍ. إذا كان الحكم الذي أصدره المجتمع عليّ له معنًى ملموس، فلا يمكن أن تكون إلا أنني أصبحتُ من الآن فصاعدًا ذخيرة للموت. حسنًا، عاجلًا أو آجلًا سيطالب بنا جميعًا. لكن اليهودي ـ وأنا الآن واحد بموجِب مرسوم القانون والمجتمع ـ كان موعودًا مسبقًا بشدّة بالموت في خضم الحياة. كانت أيامه نعمة زائفة يمكن إلغاؤها في أي لحظة. لا أعتقد أنني خططت لإعادة أوشفيتز والحل النهائي بشكل غير مقبول إلى عام 1935، عندما أقدم هذه الأفكار اليوم. بدلًا من ذلك، أنا متأكد أنه في تلك السنة، في تلك اللحظة التي قرأت فيها القوانين، كنت قد سمعتُ بالفعل تهديد الموت ـ الأفضل، الحُكم بالموت ـ وبالتأكيد لم تكن هناك حاجة إلى حساسية خاصة تجاه التاريخ لذلك. ألم أسمع بالفعل مئات المرات مناشدة القدر ـ المصاحبة لنداء من أجل بعث ألمانيا ـ وأن على اليهودي أن يهلك؟ «Juda verrecke!»[1] كان ذلك شيئًا مختلفًا تمامًا عن «L'aristocrat, a la lanterne!»[2] المرحة تقريبًا! حتى لو لم يفكر أو لم يعرف المرء أنه ارتبط تاريخيًا بمذابح لا تعد ولا تحصى في الماضي، فلم يكن ذلك صخبًا ثوريًا، بل بالأحرى طلبًا مدروسًا للغاية لشعب، صرخة حرب مغلّفة في شعار! وفي تلك الأيام نفسها أيضًا، رأيتُ ذات مرة في إحدى المجلات الألمانية صورةً لواقعةِ إغاثة الشتاء في بلدة رينيش،

---

(1) Juda verrecke شعار نازي مفضل ومعناه «تطهير اليهود»، وقد استخدمه النازيون بعد موت كل يهودي أو إبعاده عن منطقته.

(2) هي عبارة فرنسية في الأصل تدل على فانوس أو عمود إنارة. أما الكلمة أو الشعار A la lanterne، والذي يعني بالإنجليزية «to the lamp post» فقد اكتسب معنًى ومكانةً خاصة أثناء الثورة الفرنسية في صيف عام 1789، حيث تحولت أعمدة الإنارة إلى أدوات لإنجاز عمليات إعدام خارج القانون في شوارع باريس. وقد شنقوا أحيانًا المسؤولين والأرستقراطيين على أعمدة الإنارة تلك.

وكانت هناك في المقدمة، أمام الشجرة المتلألئة بأضواء كهربائية، لافتة معروضة بفخر مع النص التالي: «لا أحد يجوع، ولن يتجمد أحد، لكن اليهود سيموتون كالكلاب». وبعد ثلاث سنوات فقط، في يوم انضمام النمسا إلى الرايخ الجرماني الأكبر. سمعتُ جوزيف غوبلز يصرخ في الراديو أنه لا ينبغي لأحد أن يثير مثل هذه الضجة حول الحقيقة بأن عددًا قليلًا من اليهود في فيينا ينتحرون الآن.

أن أكون يهوديًا، يعني لي، منذ هذه اللحظة، أن تكون شخصًا ميتًا في إجازة، شخصًا يجب أن يُقتل، الذي لم يكن بالصدفة بعد في المكان الذي ينتمي إليه بشكل صحيح، وقد بقي على هذا النحو حتى اليوم، باختلافات عديدة، وبدرجات متفاوتة من الشدّة. تضمن التهديد بالموت، الذي شعرت به لأول مرة بوضوح تام أثناء قراءة قوانين نورمبرغ، ما يُشار إليه عادةً باسم «الإذلال» المنهجي لليهود من قبل النازيين. مَصُوغًا بشكل مختلف: إن التجريد من الكرامة الإنسانية كان بمثابة تهديد بالموت. كنا نقرأ ونسمع يوميًا، لسنوات متتالية، أننا كسالى، وأشرار، وقبيحون، وقادرون فقط على ارتكاب الآثام، وأذكياء فقط إلى الحد الذي جعلنا نتغلب على الآخرين. لم نكن قادرين على تأسيس دولة، ولكننا لم نكن مناسبين بأي حال من الأحوال للاندماج في الدول المضيفة لنا. لَوّثت أجسادنا، بحكم مظهرها ـ المملوءة بالشعر والدهن وذات الأرجل المقوّسة ـ أحواض السباحة العامة، نعم، وحتى مقاعد المتنزه. كانت وجوهنا البشعة واللئيمة والفاسدة، بآذان بارزة وأنوف معلقة، مقززة لإخوتنا البشر، إخوتنا مواطني الأمس. لم نكن مستحقين الحب وبالتالي لسنا مستحقين الحياة أيضًا. حقنا الوحيد، كان واجبنا الوحيد أن نختفي من على وجه الأرض.

أنا مقتنع أن الحط من قدر اليهود كان متطابقًا مع التهديد بالقتل قبل أوشفيتز بوقت طويل. قدم جان بول سارتر بالفعل، بهذا الصدد، في كتابه عام 1946، **معادٍ للسامية ويهوديّ**، بعض التصورات التي ما تزال سارية حتى اليوم. قال إنه لا توجد «مشكلة يهودية»، بل توجد مشكلة معاداة السامية: أجبر معادي السامية اليهودي على وضعٍ يسمح فيه لعدوه أن يطبعه بصورة ذاتية. يبدو لي أن كلا النقطتين لا يقبل الجدل. لكن سارتر لم يستطع في وصفه الظاهراتي القصير وصف قوة معاداة السامية الكلية الساحقة، وهي القوة التي أوصلت اليهودي إلى تلك النقطة، بصرف النظر تمامًا عن حقيقة أن الكاتب العظيم نفسه ربما لم يفهمها بكل قوتها الساحقة. اليهودي ـ وهنا يتحدث سارتر، دون إصدار حكم قيمي، عن اليهودي «غير الأصيل»، أي اليهودي الذي وقع ضحية أسطورة «الرجل العالمي» ـ يُخضع نفسه، في هروبه من المصير اليهودي، لسلطةِ مُضْطَهِدِهِ. ومع ذلك، يجب أن نقول في صالحه إنه في السنوات تحت حكم الرايخ الثالث وقف اليهودي وظهره إلى الحائط، وحتى إنه كان مُعادى. لم يكن هناك مخرج، لأنه لم يكن النازيون المتطرفون الحزبيون فقط الذين حرمونا من الاحترام وبالتالي من الحياة. كلّ ألمانيا ـ ولكن ما أنا قائل! ـ العالم بأكمله هزّ رأسه بالموافقة على ما كان يجري، على الرغم من أنه كان هنا وهناك أسف سطحي معين.

على المرء أن يتذكر: عندما تدفقت أفواجٌ من اللاجئين بعد الحرب العالمية الثانية من البلدان الخاضعة للحكم الشيوعي إلى الغرب، بزّت دول العالم الحر المزعومة بعضها بعضًا في رغبتها في منح اللجوء والمساعدة، على الرغم من أنه لم يكن هناك من بين جميع المهاجرين

سوى عدد قليل ممن كانت حياتهم مهددة بشكل مباشر في أوطانهم. ولكن حتى عندما كان من المفترض أن يكون واضحًا لأي شخص فطن منذ فترة طويلة ما الذي كان ينتظرنا في الرايخ الألماني، لم يرغب أحد في استقبالنا. وعلى هذا النحو، كان من الضروري الوصول إلى النقطة التي عاد اليهود لا يجدون فيها، سواء أكانوا أصيلين أم لا، سواء أكانوا يعيشون في وهم عن الإله وعن الأمل القومي أم مندمجين، أيَّ قوى مقاومة في أنفسهم ـ عندما أحرق عدوهم صورة من Streicher's Sturme [1] في جلودهم. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الضعف لم يكن له علاقة في ذلك الوقت قبل اندلاع النازية بالكراهية اليهودية التقليدية للذات لأولئك اليهود الألمان، الذين لم يكونوا مستعدين فسحب، بل شغوفين بالاندماج. لقد اعتقد كارهو الذات أنهم غير قادرين على أن يكونوا كما أرادوا أن يكونوا إلى حد كبير: ألمانًا، وبالتالي أنكروا أنفسهم. لم يرغبوا في قَبُول وجودهم على أنهم غير ألمان، لكن لم يجبرهم أحد على إنكار أنفسهم كيهود. من ناحية أخرى، عندما استسلمت العقول اليهودية الأسطع والأكثر استقامة، الأصيلة وغير الأصيلة لشترايشر، بين الأعوام 1933 ـ 1945 بالضبط، كان ذلك فعلًا مختلفًا تمامًا عن الاستسلام، وكفّ عن أن يكون أخلاقيًا، بل كان بالأحرى اجتماعيًّا وفلسفيًّا بطبيعته. هذه هي الطريقة التي ينظر بها العالم إلينا، هكذا توجّب أن يقولوا لأنفسهم، بوصفنا كسالى وقبيحين، وعديمي الفائدة وأشرار. ما معنى الاعتراض والقول إننا لسنا على هذا النحو في ضوء مثل هذا الاتفاق العالمي! لم يكن استسلام اليهود لتصور

(1) إشارة إلى مجلة Der Sturme التي أصدرها Julius Streicher في فرنسا. وصدرت من 1923 حتى 1945. وهي تحمل عداءً شديدًا للسامية.

(مجلة) ستورمر إلا إقرارًا بواقع اجتماعي. توجّب أن تبدو معارضته بتقييم ذاتي قائم على معايير أخرى سخيفةً أو مجنونة.

ويجب على المرء من أجل مناقشته أن يكون قد جربه. تتبادر إلى ذهني إقامتي في أوشفيتز ـ مونوفيتز، عندما أفكر في الواقع الاجتماعي لجدار الرفض الذي نهض أمامنا في كل مكان. كان هناك في معسكر الاعتقال نفسه تسلسل هرمي عرقي صارم، ولكن أيضًا بين من يطلق عليهم عمالًا أحرارًا في موقع العمل، فرضه النازيون علينا جميعًا. كان الألماني من الرايخ يحظى بتقدير أعلى من الألماني من بلد شرقي. كان البلجيكي الفلمنكي يساوي أكثر من الوَلّون Walloon.[1] وحصل الأوكراني من بولندا المحتلة على مرتبة أعلى من مواطنه البولندي. كان يعتبر عامل السخرة من أوروبا الشرقية بشكل أسوأ من الإيطالي. كان هناك نزلاء معسكرات الاعتقال في أدنى الدرجات السفلية من السلم، ومن بينهم كان اليهود بدورهم يحتلون المرتبة الأدنى. لم يكن هناك مجرم محترف واحد غير يهودي لم يقف أعلى منا في السلم، بغض النظر عن مدى انحطاطه. احتَقَرَنَا البولنديون بالإجماع، سواء كانوا مقاتلين حقيقيين من أجل الحرية أُلقِيَ بهم في المعكسر بعد تمرد وارشو المشؤوم، أو مجرد نشّالين صغار. وكذلك فعل العمال الروس البيض نصف الأميين، والفرنسيون أيضًا. ما زلت أسمع عاملًا فرنسيًّا حرًّا يتحدث مع نزيل في معسكر اعتقال يهودي فرنسي: «أنا فرنسي». قال السجين: «Francais, toi? Mais, tu es juif, mon ami» [أنت فرنسي؟ ولكنك يهودي يا صديقي!]، رد مواطنه بموضوعية ودون عداء، لانه استوعب في مزيج من الخوف واللا مبالاة تعاليم اللغة سادة

(1) الوَلُّون: مجموعة عرقية مميزة داخل بلجيكا.

أوروبا الألمان. أكرر: لقد وافق العالم على المكان الذي خصصه لنا الألمان، عالم المعكسر الصغير والعالم الواسع في الخارج، الذي نهض في حالات بطولية فردية في احتجاج، ولكن بشكل نادر، عندما نُقِلنَا ليلًا من منازلنا في ڤيينا أو برلين أو أمستردام أو باريس أو بروكسل.

قُوبِلَت إجراءاتُ الإهانة الموجَّهة ضدنا نحن اليهود، والتي بدأت بإعلان قوانين نورمبرغ وقادتنا كنتيجة بشكل مباشر إلى تربلينكا، من جهتنا، ومن جهتي بإجراءاتٍ مماثلة تهدف إلى استعادة الكرامة. بالنسبة إليّ لم تُغلَق هذه القضية حتى اليوم. دعوني أوضح ما يتعلق بمراحلها ونتائجها الأولية، واسمحوا لي أن أطلب من القارئ أن يرافقني لفترة على هذا الطريق. إنها فترة قصيرة، لكن يصعب السير فيها، ومملوءة بالعقبات والفخاخ. على الرغم من كل شيء، ما هي طبيعة الكرامة التي حرمت منها عمليًّا لأول مرة عام 1935، والتي حجبت مني رسميًّا حتى عام 1945، وربما حتى اليوم لا يريد أحدٌ أن يمنحني إياها، وبالتالي يجب أن أحصل عليها خلال جهودي الخاصة؟ ما الكرامة حقًّا؟

يمكن للمرء أن يحاول الإجابة بقلب التعريف المحدد أعلاه للإذلال والتهديد بالموت. إذا كنتُ محقًّا في أن الحرمان من الكرامة ليس سوى احتمالية من الحياة، فيجب أن تكون الكرامة هي الحق في الحياة. وإذا كان صحيحًا أيضًا عندما قلت إن منح الكرامة وحرمانها هما من أعمال اتفاق اجتماعي، وهي أحكام لا يوجد استئنافٌ ضدها على أساس « فهم الذات» بحيث يكون من غير المعقول المجادلة ضد الكيان الاجتماعي الذي يجرّدنا من كرامتنا مع الادّعاء بأننا بالفعل «نشعر» بقيمة ـ إذا كان كل هذا صحيحًا، فلن يكون لكل جهد لاستعادة كرامتنا أيّ قيمة، وسيظل

كذلك حتى اليوم. الإذلال، أي العيش تحت تهديد الموت، سيكون مصيرًا لا مفر منه. لكن لحسن الحظ، فإن الأمور ليست تمامًا كما يدعي هذا المنطق. من المؤكد أنه لا يمكن منح الكرامة إلا من قبل المجتمع، سواء كانت كرامة منصب ما، أو كرامة مهنية ما، أو بشكل عام كرامة مدنية، ومجرّد الادعاء الشخصي (أنا إنسان وبالتالي لدي كرامتي، بغض النظر عمّا تفعل أو تقوله!) هو لعبة أكاديمية فارغة، أو جنون. ومع ذلك، فإن الشخص المهان المهدد بالموت قادرٌ على إقناع المجتمع بكرامته ـ وهنا نكسر منطق الحكم النهائي ـ من خلال أن يأخذ مصيره على عاتقه، وفي نفس الوقت بالقيام بالثورة ضده.

يجب أن تكون الخطوة الأولى هي الاعتراف غير المشروط بأن حكم المجموعة الاجتماعية هو حقيقةٌ مُسَلّم بها. عندما قرأتُ قوانين نورمبرغ في عام 1935 وأدركتُ أنها لا تنطبق عليّ فحسب، بل وأيضًا أنها كانت التعبير المكثف في شكل نص قانوني عن «موت لليهود!» محدد، أعلنه المجتمع الألماني في وقت مبكر سابقًا، كان بإمكاني القيام بهروب فكري وتشغيل آليات الدفاع، وعليه فقدت قضيتي لإعادة التأهيل. بعد ذلك كنت أقول لنفسي: حسنًا، إذن هذه هي إرادة الدولة الاشتراكية القومية، البلد القانوني الألماني *pays legal*، والتي لا علاقة لها بألمانيا الواقعية، البلد الحقيقي الألماني، والذي ليس لديه أي تفكير بِطَرْدي. أو كان بإمكاني أن أجادل بأن ألمانيا فقط، وهي بلاد تغرق للأسف في جنون دموي، هي التي كانت تسمني بشكل سخيف على أنني دون البشر (بالمعنى الحرفي للكلمة)، في حين أن العالم الواسع في الخارج محصن، لحسن حظي، حيث يوجد الإنكليز والفرنسيون والأمريكيون والروس، ضد جنون

العظمة الذي يجتاح ألمانيا. أو كان بإمكاني أخيرًا، حتى لو أن هذا يعني التخلي عن الوهم، سواء عن البلد الحقيقي الألماني وعن عالم كان محصنًا ضد الاضطراب العقلي الألماني، أن أقول لنفسي: بغض النظر عما يقولونه عني، فهذا ليس صحيحًا. الحقيقة التي أعرفها فحسب، عندما أنظر في داخلي وأفهم نفسي بعمق، أنني لستُ سوى ما أكون فيه ولنفسي، ولا شيء غير ذلك.

أنا لا أقول إنني لم أستسلم أحيانًا إلى مثل هذا الإغراء. لا يسعني إلا أن أشهد أنني تعلمت أن أقاومه أخيرًا وأنني في ذلك الوقت مسبقًا، في عام 1935، شعرت بشكل غامض بضرورة إقناع العالم بكرامتي، العالم الذي لم يقطع بأي حال من الأحوال بسخط وبالإجماع جميع العلاقات مع الرايخ الثالث. لقد فهمت، وإن بلا وضوح، أنه بينما كان علي أن أقبل الحكم على هذا النحو، كان يمكنني أن أجبر العالم على مراجعته. قبلتُ حكم العالم بقرار للتغلب عليه بثورة. ثورة، حسنًا، بالطبع، هذه واحدة من تلك الكلمات عالية الصوت. يمكن أن تقود القارئ إلى الاعتقاد بأنني كنت بطلًا أو أنني أريد أن أقدم نفسي بزيف كبطل. أنا بالتأكيد لم أكن بطلًا. عندما عبرت سيارة الفوكس فاجن الرمادية الصغيرة التي تحمل لوحة ترخيص POL طريقي، أولًا في فيينا ثم في بروكسل، كنتُ خائفًا لدرجة أنني لم أستطع التنفس. عندما سحب كابو ذراعه ليضربني، لم أقف بثبات كحافة جبلية، بل انحنيت. ومع ذلك حاولت الشروع بإجراءات لإعادة كرامتي، ناهيك بالبقاء الجسدي الذي وفرّ لي أدنى فرصة للنجاة من الكابوس معنويًا أيضًا. ليس هناك الكثير مما يمكن أن أقدمه لصالحي، لكن دعنا نسجله على أي حال. أخذتُ على عاتقي أن أكون يهوديًا، على

رغم أنه كانت هناك احتمالات للتوصل إلى تسوية وسط. انضممت إلى حركة مقاومة كانت آفاق نجاحها قاتمةً للغاية. أعدتُ أخيرًا تعلُّمَ ما كنت نسيته أنا ونوعيتي في كثير من الأحيان، وما هو أهم من القوة المعنوية للمقاومة: أن تردّ.

أرى أمامي مراقب العمال السجين جوسيك، وهو مجرم بولندي محترف ذو قوة مرعبة. ضربني ذات مرة على وجهي لسبب تافة في أوشفيتز. هكذا اعتاد التعامل مع كل اليهود الذين كانوا تحت إمرته. كان عليّ في هذه اللحظة أن أتقدم ـ شعرت بذلك بكل وضوح ـ خطوة إلى الأمام في قضية الاستئناف المطولة ضد المجتمع. قمت بدوري، في ثورة مفتوحة، بضرب جوسيك على وجهه. كانت كرامتي تكمن في هذه اللكمة على فكه ـ ولم يكن يعني بالنسبة إليّ شيئًا أنني أنا الرجل الأضعف جسديًا، الذي استسلم وتحطم بشكل مؤسف. لقد ضُربت بشكل مؤلم، وكنتُ راضيًا عن نفسي. ولكن ليس كما يعتقد المرء لأسباب تتعلق بالشجاعة والشرف، ولكن لأنني أدركت جيدًا فحسب أن هناك مواقفَ في الحياة يكون فيها جسدنا هو ذاتنا الكاملة ومصيرنا الكامل. كنت جسدي ولا شيء آخر: في الجوع، وفي الضربة التي تلقيتها، وفي الضربة التي سددتها. كان جسدي، المنهك والمتقشر من القذارة، هو مصيبتي. كان جسدي، عندما توتر ليضرب، كرامة مادية وميتافيزيقية. العنف الجسدي في مواقف مثل حالتي هو الوسيلة الوحيدة لاستعادة الشخصية المفككة. في اللكمة، كنتُ نفسي ـ ولأجل نفسي ولخصمي. ما قرأته لاحقًا في كتاب بعنوان «Les damnes de la terre»[1] لفرانز فانون في تحليل نظري لسلوك الشعوب المستعمَرَة،

---

(1) العنوان الحرفي هو ملعونو الأرض، وربما يقصد كتاب «معذَّبو الأرض» الشهير.

تطلعت عندها إلى الوراء عندما أعطَيْتُ كرامتي شكلًا اجتماعيًّا ملموسًا من خلال توجيه لكمة إلى وجه إنساني. أن تكون يهوديًّا يعني قَبُول حكم الإعدام الذي فرضه العالم كحكم عالمي. إن الفرار أمامه بالانسحاب إلى الذات لن يكون سوى وصمة عار، في حين أن القبول كان في نفس الوقت ثورة جسدية ضده. لقد أصبحت شخصًا ليس من خلال مناشدة إنسانيتي المجردة بشكل شخصي، بل باكتشاف نفسي داخل الواقع الاجتماعي المعطى كيهودي متمرد وإدراك نفسي كواحد.

قلت إن الإجراءات استمرت وما زالت مستمرة. لم أفز، في الوقت الحالي، بالقضية ولم أخسرها. كانت هناك، بعد انهيار الرايخ الاشتراك القومي، ساعة عالمية وجيزة تمكنت من خلالها من تصديق أن كل شيء، من الأسفل حتى الأعلى، قد تغير. كنت قادرًا لفترة وجيزة في تلك الأيام على تعزيز الوهم بأن كرامتي قد استُعِيدَت تمامًا من خلال نشاطي في حركة المقاومة، بغض النظر عن مدى تواضعه، ومن خلال الانتفاضة البطولية في غيتو وارسو، ولكن علاوة على كل ذلك، من خلال الاحتقار الذي أظهره العالم تجاه أولئك الذين جردوني من كرامتي. يمكنني تصديق أن الحرمان من الكرامة الذي عانينا منه كان خطأً تاريخيًّا، وانحرافًا، ومرضًا جماعيًّا للعالم، تعافى منه أخيرًا في الوقت الذي وقع فيه جنرالات الألمان في ريمس على بيان الاستسلام بحضور آيزنهاور. سرعان ما عَلِمت ما هو أسوأ. كانت هناك اضطرابات ضد سامية في بولندا وأوكرانيا، بينما كانوا ما يزالون يكتشفون مقابر جماعية لليهود. سمحت البرجوازية الصغيرة المريضة في فرنسا لنفسها دائمًا بأن تتلوث بالمحتلين. عندما عاد الناجون واللاجئون وطالبوا بمساكنهم القديمة، حدث أن قالت ربات البيوت

البسيطات في مزيج من الرضا والحنق: «Tiens, ils reviennent, on ne les a tout de meme tue» [ها هم يعودون، لم نقتلهم جميعًا سواءً بسواء]. حتى في البلدان التي لم تكن تعرف في السابق أي معاداة للسامية، كما هو الحال في هولندا، ظهرت فجأة «مشكلة يهودية» كبقايا للدعاية الألمانية. على الرغم من أنه نادرًا ما يوجد يهود. حظرت بريطانيا انتدابها على فلسطين لأولئك اليهود الذين فروا من المعسكرات والسجون والذين حاولوا الهجرة. أُجبِرت في وقت قصير جدًّا على أن أدرك أن القليل قد تغير، وأنني كنت الرجل المحكوم عليه بالقتل في الوقت المناسب، على الرغم من أن الجلاد المحتمل قام الآن بحذر بضبط نفسه أو، في أفضل الأحوال، احتج حتى بصوت عالٍ في استنكار لما حدث.

لقد فهمت الواقع. لكن هل كان من الممكن أن يدفعني هذا إلى التعامل مع مشكلة معاداة السامية؟ على الإطلاق. لم تكن معاداة السامية والمسألة اليهودية، كظواهر تاريخية محددة اجتماعيًّا، ولن تكون من أي اهتماماتي. إنهما بالكامل قضيتيان للمعادين للسامية، عارهم ومرضهم. لدى معادي السامية ما يجب التغلب عليه، ولست أنا. سأكون لعبة في أيديهم القذرة إذا بدأت في استثمار أي حصة دينية أو اقتصادية أو عوامل أخرى في اضطهاد اليهود. إذا توجب علي أن أشارك في مثل هذه البحوث، فسوف أقع فحسب في الخداع الفكري لما يسمى بالموضوعية التاريخية، والتي بموجبها يكون القتلى مذنبين مثل القتلة، إن لم يكن أكثر ذنبًا. لقد أصابني جرح. وعليّ أن أعقمه وأربطه، ولا أفكر في سبب رفع البلطجي هراوته. ومن خلال «ذلك هو السبب» المستنتج، يعفيه في النهاية جزئيًّا.

لم يكن معادو السامية من يقلقني، إن وجودي فقط هو الذي علي

أن أتعامل معه. ذلك صعب بما يكفي. عادت لا تكون بعض الإمكانات المحددة، التي توفرت لي خلال سنوات الحرب، موجودةً. لم أتمكن من عام 1945 وحتى عام 1947 من خياطة نجمة صفراء بشكل جيد دون أن أبدُوَ أحمقَ أو غريبَ الأطوار بالنسبة إلى نفسي. ولم تكن هناك أيضًا أيُّ فرصة لضرب العدو على وجهه، لأنه لم يكن من السهل التعرف إليه أكثر. إعادة الحفاظ على الكرامة أمرٌ مُلِحّ كما في السنوات السابقة للحرب وللاشتراكية القومية، ولكن الآن ـ في مناخ من السلام المخادع ـ فهو أصعب بلا حدود، إكراهًا ورغبة. باستثناء أنه كان عليّ أن أدرك بوضوح أنني واجهت الضرورة والمستحيل أكثر مما في الأيام التي كان فيها التمرد الجسدي على الأقل ممكنًا.

يجب أن أتوقف لحظة في هذه المرحلة وأن أفصل نفسي عن كل هؤلاء اليهود الذين لا يتحدثون من عالم تجربتي الخاصة. قال الفيلسوف الفرنسي روبرت مصراحي في كتابه «La condition reflexive de l'homme juif» [الحال التأملية للإنسان اليهودي]: «المِحرقة النازية هي من الآن فصاعدًا النقطة المرجعية والراديكالية لوجود كل يهودي». لا شك في ذلك، لكنني مقتنع بأنه ليس كل يهودي قادرٌ على استنباط هذه العلاقة. فقط أولئك الذين عاشوا خلال مصير كمصيري، وليس أحد آخر، يمكنهم أن يحيلوا حياتهم على السنين 1933 ـ 1945. لا أقول هذا، بأي حال من الأحوال، بفخر. سيكون من السخف التباهي بشيء لم يفعله المرء ولكن مرّ به. بدلًا من ذلك، أشعر بخزي معين أنني أوكد امتيازي المحزن وأزعم أنه في حين أن الهولوكست هي حقًّا نقطة مرجعية وجودية لكل اليهود، فنحن فحسب، الضحايا، القادرون على أن نعيش ثانيةً الحدث الكارثي روحيًّا كما كان أو

نصوره بشكل تام كما يمكن أن يكون ثانيةً. دع الآخرين أن لا يُمنعوا من التعاطف. دعهم يفكروا في مصيرٍ أمكن أن يكون لهم أمس وغدًا يمكن أن يكون لهم. ستواجَه جهودهم الفكرية باحترامنا، لكن سيكون احترامًا متشكِّكًا، وسنصمت في المحادثة معهم حالًا ونقول لأنفسنا: تفضّلوا، أيها الناس الطيبون، أزعِجُوا رؤوسكم بقدر ما تريدون: ما زلتم تبدون مثل رجل أعمى يتحدث عن اللون.

الأقواس مغلقة الآن. وأنا بمفردي مرةً أخرى مع بعض الرفاق الطيبين. أجد نفسي في سنواتٍ ما بعد الحرب التي عادت لا تسمح لأيٍّ منا بالرد بعنف على شيء يَرفض الكشف عن نفسه بوضوح لنا. مرةً أخرى أرى نفسي في مواجهة الضرورة والمستحيل.

أن لا ينطبق هذا المستحيل على الجميع أمرٌ واضح. هناك عددٌ كافٍ من الرجال والنساء بين يهود هذا الوقت، سواء كانوا عُمّالًا في كْييف، أو أصحاب مخازن في بروكلين، أو مزارعين في النقب، أن تكون يهوديًّا كان وما يزال حقيقةً إيجابية بالنسبة إليهم. يتحدثون اليديشية، أو العبرية. ويحتفلون بالسبت. إنهم يشرحون التلمود، أو يقفون في حالة تأهب كجنود شبان تحت راية زرقاء وبيضاء عليها نجمة داود. إنهم يهودٌ كأعضاء في مجتمع، سواء دينيًّا أو قوميًّا أو في مجرد تبجيل شخصي، أمام صورة جدهم مع شعر سالِفَيْه (عارِضَيْه) المتدلّي.[1] ربما يمكن للمرء أن يستطرد لفترة وجيزة، ويسأل مع عالم الاجتماع جورج فريدمان السؤال الثانوي

(1) مقابل كلمة Sidelocks، وهي تشير إلى حزمة الشعر المسترسلة على جانب الوجه، وغالبًا ما تُرتَدَى كعلامة فارقة خاصة عند بعض اليهود والأطفال في بعض الثقافات الأقدم.

حول ما إذا كانت ذريتهم سيظلون يهودًا وفي احتمال أن لا تكون نهاية الشعب اليهودي وشيكة في ذلك البلد المتوسطي حيث يشرّد الإسرائيلي بالفعل اليهودي، وكذلك في الشتات، حيث يمكن أن يحدث الاندماج الكامل لليهود ـ ليس كثيرًا مع شعوبها المضيفة، التي تفقد من جانبها سمتها القومية، ولكن مع أكبر وَحدة للعالم التقني الصناعي.

لن أتابع هذا السؤال أكثر. لا يثيرني وجود أو اختفاء الشعب اليهودي كمجموعة عرقية ـ دينية. أنا غير قادر في مداولاتي على أن آخذ في الاعتبار اليهود الذين هم يهود لأنهم متحجبين بالتقاليد. أستطيع أن أتحدث لنفسي فقط ـ وحتى لو بحذر، للمعاصرين، الذين ربما يصل عددهم إلى ملايين، والذين برز لعيونهم فجأة وبقوة عنصرية[1] كونهم يهودًا، والذين عليهم أن يصمدوا أمام هذا الاختبار دون الله، ودون تاريخ، ودون أمل مسيحي ـ قومي. أن تكون يهوديًّا، بالنسبة إليّ، وبالنسبة إليهم، يعني الشعور بمأساة الأمس على أنها اضطهادٌ جوّاني. أحمل على ساعدي الأيسر رقم أوشفيتز، يُقرَأ بإيجاز أكثر من أسفار موسى الخمسة أو التلمود، ومع ذلك يوفر معلوماتٍ أشمل. ثم إنه ألزَمُ من الصيغ الأساسية للوجود اليهودي. إذا قلتُ لنفسي وللعالم، بما في ذلك اليهود المتدينين وذوي العقلية القومية، الذين لا يعتبرونني واحدًا منهم: أنا يهودي، فإنني أعني بذلك تلك الوقائع والاحتمالات التي يمكن تلخيصها في رقم أوشفيتز.

خلال العقدين منذ تحريري أدركتُ تدريجيًّا أنه لا يُهم ما إذا كان يمكن تعريف الوجود بشكل إيجابي. سبق لسارتر أن قال ذات مرة إن

(1) نسبةً إلى «العنصر» بالمعنى الطبيعي الكيميائي.

اليهودي هو شخص يعتبره الآخرون يهوديًا، وفيما بعد صوّر ماكس فريش ذلك بشكل دراماتيكي في *أندورا Andorra*. وهذه النظرة لا تحتاج إلى تصحيح، لكن ربما يمكن الإسهاب فيها. لأنه حتى لو لم يقرر الآخرون أنني يهودي، كما فعلوا مع الشيطان المسكين في *أندورا*، الذي كان يود أن يصبح نجّارًا ولم يسمحوا له إلا بأن يكون تاجرًا، فأنا ما زلت يهوديًا بحقيقة بحتة أن العالم من حولي لا يصفني صراحةً بأنني لستُ يهوديًا. أن تكون شيئًا يمكن أن يعنيَ أن لا تكون شيئًا آخر. بصفتي غير يهودي، فأنا يهودي، يجب أن أكون واحدًا، ويجب أن أريد أن أكون واحدًا. عليّ أن أقبل بهذا وأؤكده في وجودي اليومي، سواء عندما أدخل في محادثة ـ بالكشف عن ما أعتقد ـ عندما تُقال أشياء غبية عن اليهود في البقالة، وفيما إذا كنت أخاطب جمهورًا مجهولًا على الراديو، أو فيما إذا كنت أكتب لمجلة.

ولكن ما دام كوني يهوديًا لا يعني فقط أنني أحمل في داخلي كارثة حدثت بالأمس ولا يمكن استبعادها يوم غد، فهو ـ أبعد من كونه واجبًا ـ خوف أيضًا. عندما أستيقظ كل صباح يمكنني قراءة أوشفيتز على ساعدي، وهو شيء يمس أعمق جذور وجودي وأكثرها تشابكًا. في الواقع، لست حتى متأكدًا تمامًا مما إذا كان هذا ليس وجودي الكامل. ثم أشعر كما كنت في ذلك الوقت تقريبًا عندما تذوّقت الضربةَ الأولى من قبضة شرطي. مع كل يوم جديد أفقد ثقتي بالعالم. اليهودي دون محدداتٍ إيجابية، اليهودي الكارثي، كما نسميه دون تردد، يجب أن يتقدم دون ثقة بالعالم. تحيّيني جارتي بأسلوب ودّي: مرحبًا سيدي Bonjour, Monsieur. أرفع قبتي: مرحبًا سيدتي Bonjour, Madame. لكن تفصل بين المدام والسيد مسافات بين كوكبية، لأن المدام أشاحت أمسِ بنظرها بعيدًا عندما اقتادوا

السيد، ومن خلال النوافذ المغلقة للسيارة المغادرة، رأى السيد المدام كما لو كانت ملاكًا حجريًا من سماء صافية وباردة أُغلقت إلى الأبد أمام اليهودي. قرأتُ إعلانًا رسميًا يُطلب فيه من *السكان* ***la population*** أن يفعلوا شيئًا أو آخر، كإعْداد صناديق القمامة في الوقت المحدد أو رفع العلم في عطلة وطنية. *السكّان*. ما تزال واحدة من تلك الممالك الفضائية التي يمكنني دخولها قليلًا بقدر دخولي قلعة كافكا، فبالأمس كان لدى «السكان» خوف كبير من إخفائي، وأما إذا كانت ستكون لديهم شجاعة أكبر غدًا لو طرقتُ الباب، فهو للأسف أمر غير مؤكد.

عشرون عامًا مرت على الهولوكست. سنوات مشرّقة لمن هم مثلنا. حائزون جائزة نوبل بكثرة. كان هناك رئيسان فرنسيان هما رينيه ماير وبيير مينديز فرانس، ومندوب أمريكي في الأمم المتحدة باسم غولدبرغ يمارس الوطنية الأميركية بأشد معاداةٍ للشيوعية. أنا لا أثق بهذا السلام. إعلانات حقوق الإنسان والدساتير الديمقراطية والعالم الحر والصحافة الحرة، لا شيء يمكن أن يُهَدْهِدَني مرةً أخرى في نوم آمن مثل الذي استيقظتُ منه عام 1935. أعيش، بصفتي يهوديًا، مثل إنسان مريض مصاب بأحد تلك الأمراض التي لا تسبب مشقات كبيرة ولكن تنتهي بالتأكيد على نحو مهلك. لم يكن يعاني دائمًا من هذا المرض. لا يكتشف المرض، عندما يحاول مثل بير جنت Peer Gynt، إخراج نفسه من البصلة [بمعنى تأمل ذاته والكشف عن بواطنها]. مشيته الأولى نحو المدرسة، وحبه الأول، وأشعاره الأولى كافّة لم يكن لها علاقة به. لكنه الآن رجل مريض، أولًا وقبل كل شيء، وهذا أعمق من كونه خياطًا، أو كاتب حسابات، أو شاعرًا. وهكذا، فأنا أيضًا هو بالضبط ما لستُ إياه، لأنني لم أكن موجودًا حتى

صرته، قبل كل شيء: أعني يهوديًا. الموت، الذي ليس بوسع الإنسان المريض الهروب منه، هو ما يهددني. مرحبًا سيدي، مرحبًا سيدتي - يحيّي أحدها الآخر. لكن السيدة لا تستطيع ولا تريد أن تُسعِف جارَها المريض من مرضه المميت، لتتألم هي نفسها حتى الموت. وعلى هذا النحو يظلان غريبين بعضهما عن الآخر.

أواجه محيطيَ كيهودي غريب، دون ثقة بالعالم، وحيدًا، وكل ما يمكنني ترتيبه هو أن أتعايش مع غُربتي. يجب أن أقبل كوني أجنبيًّا كعنصر أساسي في شخصيتي، وأن أصرّ عليه كما لو كان الأمر إصرارًا على ملكية غير قابلة للتحويل. ما زلت أجد نفسي مجدّدًا، وكل يوم، وحدي. لم أتمكن من إجبار قَتَلة الأمس ومعتَدِي الغد المحتملين على الاعتراف بالحقيقة الأخلاقية لجرائمهم، لأن العالم كله لم يساعدني على فعل ذلك. وهكذا، فأنا وحدي كما كنتُ عندما عذّبوني. لا يبدو لي أولئك الذين حولي أنهم معادون للإنسان، كما فعل جلاديّ السابقون. إنهم زملائي البشر، لم يتأثروا بي وبالخطر الذي يتهادَى حولي. أجتازهم بتحية ودون عداء. لا يمكنني الاعتماد عليهم، فعِبئي ودعمي هو فقط على هُوية يهودية دون محددات إيجابية.

حيثما يكون هناك شيء مشترك بيني وبين العالم، والذي لم يُلغِ بعدُ عقوبة إعدامه، والتي أعتبرها حقيقةً اجتماعية، فإنه يتلاشى في الجدل. ألا تريد الاستماع؟ استمع على أي حال. ألا تريد أن تعرف في أي وقت، إلى أين يمكن أن تقودك وتقودني اللا مبالاة مرةً أخرى؟ سأخبرك. لا يهمك ما حدث لأنك لا تعرف شيئًا، أو كنت صغيرًا جدًّا أو ربما لأنك لم تولد بعد؟ كان عليكم أن تشاهدوا، وشبابكم لا يمنحكم امتيازًا خاصًا، ولا الانفصال عن آبائكم.

مرة أخرى يجب أن أطرح على نفسي السؤال الذي طرحته سابقًا بشكل عابر في مقالتي «الاستياء»: هل أنا ربما مريض نفسيًا وهل أعاني من مرض عضال، من الهستيريا؟ السؤال مجرد سؤال بلاغي. الإجابة القاطعة تمامًا قدمتها لنفسي منذ فترة طويلة. أعلم أن ما يعذبني ليس عُصابًا، بل هو انعكاس دقيق للواقع. لم تكن تلك هَلْوَساتٍ هستيرية عندما سمعت الألمان يدعون اليهود «ليموتوا كالكلب!»، وسمعت، بشكل عابر، كيف قال الناس إنه لا بد أن يكون هناك شيء مريبٌ حقًا بشأن اليهود، وإلا فلن يعامَلُوا بهذه القسوة. قالت زوجة عامل اشتراكي ديمقراطي سويٌّ في فيينا: «لقد اعتُقِلوا، فلا بد أنهم فعلوا شيئًا». «لكن في النهاية *mais enfin*، ما أفظع ما يفعلونه مع اليهود»، فكر رجلٍ إنساني ووطني في بروكسل. لذلك أجد نفسي مضطرًا إلى أن أستنتج بأنني لستُ مختلًّا ولم أكن مختلًّا، بل بالأحرى أن العصاب هو جزء من واقعة تاريخية. الآخرون هم المجانين، وأجد نفسي بلا حول ولا قوة بينهم، شخصًا عاقلًا تمامًا انضمّ في جولة عبر عيادة للأمراض النفسية، وفجأة فقد رؤية الأطباء والممرضين. لكن، لمّا كان حكم المجانين قد صَدَر عليّ، ويمكن وضعه في أي لحظة موضع التنفيذ، فهو ملزِم تمامًا، ويكون صفاءُ عقلي غير ذي صلة على الإطلاق.

تقترب هذه التأملات من نهايتها. بعد أن أوضحت الآن كيف أتعامل مع هذا العالم، حان الوقت لأشهد على كيفية علاقتي بأقربائي، اليهود. لكن أهم حقًّا مرتبطون بي برغم كل شيء؟ أيًا كان ما يقرره عالم الإثنولوجيا ـ أن مظهري الخارجي، على سبيل المثال، يمثل خاصية يهودية أو أخرى ـ فقد يكون ذا صلة إذا وقعتُ في حشد صارخ يطارد اليهود. يفقد الأمر كلَّ مغزاه عندما أكون وحدي أو بين اليهود. هل لديّ أنفٌ يهودي؟ يمكن

أن يصبح ذلك كارثة إذا اندلعت مذبحةٌ مرةً أخرى. لكن هذا لا يجعلني مصطَفًّا مع أنف يهودي واحد آخر في أي مكان. المظهر اليهودي الذي قد أحصل عليه أو لا ـ لا أعرف إذا كنت أفعل ـ هو قضية تخص الآخرين ويصبح اهتمامي فقط بالعلاقة الموضوعية التي يقيمونها تُجاهي. إذا كان لي أن أبدوَ كأنني خرجت من كتاب يوهان فون ليرز «*Juden sehen euch an*»[1] فلن يكون لهذا واقع شخصي بالنسبة إليّ، سيؤسِّس، بالتأكيد، مجتمعَ مصيرٍ، لكن ليس مجتمعًا إيجابيًّا بيني وبين رفاقي اليهود. وهكذا يبقى هناك المثقّف فقط ـ وبدقّة أكبر، العلاقة المفهومة بوعي ـ بين اليهود واليهودية وأنا.

أن هذه ليست علاقة، فقد سبق لي أن ذكرت ذلك في البداية. لا أشترك بأي شيء عمليًّا مع اليهود كيهود: لا لغةً، ولا تقاليدَ ثقافيةً، ولا ذكريات طفولة. كان هناك صاحبُ نُزل وقصّاب في فورالبيرغ النمساوية، قيل لي إنه يتحدث العبرية بطلاقة. كان هو جدي الأكبر. لم أره قط ولا بد أن يكون ذلك فيما يقارب مئة عام منذ وفاته. كان اهتمامي بالأمور اليهودية واليهود قبل الهولوكوست ضئيلًا للغاية لدرجة أنني لن أتمكن اليوم، وبأفضل النيات، أن أقول أيٌّ معارفي كان في ذلك الوقت يهوديًّا وأيّهم لم يكن كذلك. ومع ذلك قد أحاول أن أعثر في التاريخ اليهودي على ماضيّ الخاص، وفي الثقافة اليهودية على تراثي الخاص، وفي الفلكلور اليهودي على ذكرياتي الشخصية، وستكون النتيجة صفرًا. لم تكن البيئة، التي

---

(1) العبارة العنصرية «*Juden sehen dich an*» ـ اليهود يراقبونك ـ التي أطلقها الدعائي النازي يوهان فون ليرز ظهرت لأول مرة عام 1933، وكما نرى فقد أخطأ جان أمري قليلًا في اقتباس العنوان.

عشت فيها في السنوات التي يكتسب فيها المرء نفسه، يهوديةً، ولا يمكن أن يكون الأمر عكس ذلك. لكن عدم جدوى البحث عن ذاتي اليهودية لا يقف بأي حال من الأحوال عائقًا بيني وبين تضامني مع كل يهودي مهدد في هذا العالم.

قرأتُ في صحيفة أنهم اكتشفوا في موسكو مخبزًا يعمل بشكل غير قانوني لخبز عيد الفصح اليهودي الخالي من الخميرة واعتقلوا الخبازين. تجلب طقوس خبز اليهود *الماتزوث matzoht*، كوسيلة للتغذية، اهتماميَ بشكل أقل إلى حد ما من رقائق البطاطا المحمصة. ومع ذلك، تملأني تصرفات السلطات السوفييتية بالقلق، وبالسخط حقًا. بعض النوادي الريفية الأمريكية، كما أسمع، لا تقبل اليهود كأعضاء. ليس من أجل العالم أرغب في الانتماء إلى هذه الجمعية القاتمة بوضوح من الطبقة الوسطى، لكن قضية اليهود الذين يطلبون الإذن بالانضمام تصبح قضيتي. أن يدعوَ رجلُ دولة عربي إلى محو إسرائيل من الخريطة أمر يحز في نفسي، على الرغم من أنني لم أزر دولة إسرائيل مطلقًا ولا أشعر بأقل رغبة في العيش هناك. تضامني مع كل يهودي تُعرّض حريته أو حقوقه المتساوية أو حتى وجوده المادي للتهديد هو *أيضًا*، *وليس فقط*، رد فعل على معاداة السامية، التي، وفقًا لسارتر، ليست رأيًا، بل نزوعٌ واستعداد لارتكاب جريمة الإبادة الجماعية. هذا التضامن هو جزء من شخصيتي وهو سلاح في معركة استعادة كرامتي. ودون أن أكون يهوديًا بمعنى التعريف الإيجابي، لن أتحدث عن الحرية إلا بعد أن أكون يهوديًا باعتراف وإقرار الحكم العالمي باليهود، ولا حتى أُشارك أخيرًا في عملية الاستئناف التاريخية التي قد أتحدث فيها عن الحرية.

التضامن في مواجهة التهديد هو كل ما يربطني مع معاصريّ اليهود، المؤمنين وكذلك غير المؤمنين، ذوي العقول القومية وكذلك أولئك المستغدين للاندماج. ربما يكون هذا بالنسبة إليهم قليلًا أو لا شيء على الإطلاق. أما بالنسبة إليّ وإلى وجودي المستمر، فهذا يعني الكثير، ربما أكثر من تقديري لكتب بروست أو حُبّي لقصص شنيتزلر أو سعادتي برؤية المنظر الفلمنكي. دون بروست وشنيتزلر وأشجار الحور المنحنية بالرياح عند بحر الشمال، كنت سأكون أفقر مما أنا عليه، لكنني سأظل إنسانًا. دون الشعور بالانتماء إلى المُهدد سأكون هاربًا مستسلِمًا من الواقع.

أقول الحقيقة، بتشديد، لأن هذا هو ما يُهمني في النهاية. قد تكون معاداة السامية، التي جعلتْ مني يهوديًا، شكلًا من أشكال الجنون. ليس هذا ما هو محل نقاش هنا. سواء كان ذلك جنونًا أو لا، فهو على أي حال حقيقة تاريخية. كنت في أوشفيتز، برغم كل شيء، وليس في خيال هملر. وما تزال معاداة السامية حقيقةً. يمكن لشخص مصاب بعمى اجتماعي وتاريخي كامل فقط أن ينكر ذلك. إنها حقيقة واقعة في بلدانها الأساسية، النمسا وألمانيا، حيث لم يُدَنْ مجرمو الحرب النازيون أو صدرت عليهم أحكامٌ خفيفة بالسجن تبعث على السخرية، والتي لا يقضي معظمهم منها سوى الثلث. وهذه حقيقة في إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، حيث يتسامح المرء مع اليهود، ومع ذلك لن يكون حزينًا للتخلص منهم. هذه حقيقة، وبما لها من عواقب وخيمة في المجال الروحي الشامل للكنيسة الكاثوليكية. تعقيد وتشوّش مشاورات مجلس الفاتيكان حول ما سُمّي بالإعلان حول اليهود، على الرغم من الجهود المشرفة للعديد من الأساقفة، مخزٍ بشكل شائن.

قد يكون شيئًا حسنًا ـ ولكن في ضوء الظروف المعينة التي لا يمكن للمرء أن يعتمد عليها بأي حال من الأحوال ـ أنَّ الفصل الأخير من الدراما التاريخية الجسيمة للاضطهاد اليهودي لُعِبَ في مصانع النازية. أعتقد أن مسرحية معاداة السامية ما تزال قائمة. لا يمكن استبعاد احتمال حدوث إبادة جماعية جديدة لليهود. ماذا سيحدث لو انتصرت الدول العربية، المدعومة اليوم بشحنات الأسلحة من الشرق والغرب، في حرب ضد إسرائيل الصغيرة، انتصارًا كاملًا؟ ماذا ستعني أمريكا التي قد تخضع لسيطرة الفاشية العسكرية ليس للزنوج فحسب بل لليهود أيضًا؟ ماذا أمكن أن يكون مصير اليهود في فرنسا، الدولة الأوربية التي تضم أكبر عدد منهم، لو لم ينتصر ديغول في بداية هذا العقد، بل منظمة الدول الأمريكية OAS؟

قرأتُ مع بعض التردد في دراسة شاب هولندي يهودي يافع جدًّا التعريف التالي لليهودي: «يمكن وصف اليهودي بأنه شخص لديه خوف وانعدام ثقة وانزعاج أكثر من مواطنيه الذين لم يُعرّضوا للاضطهاد». التعريف الذي يبدو صحيحًا ظاهريًّا أصبح خاطئًا بسبب عدم وجود تفصيل لا غنًى عنه، والذي يجب أن يُقرأ: «... إنه لسبب وجيه يتظر كارثة جديدة في أي لحظة». الوعي بالكارثة الأخيرة والخوف المشروع من واحدة جديدة هو ما يرقى إليه كل ذلك. أنا، الذي أحمل كليهما في داخلي ـ والأخير بثقل مضاعف، نظرًا إلى أنني كنتُ تجنّبتُ السابق بمحض الصدفة فقط ـ لستُ «مصدومًا» بل الأحرى إن حالي الروحي والنفسي يتوافق تمامًا مع الواقع. إن وعيي بكَوني يهوديّ محرقة ليس إيديولوجيًا. ربما يمكن مقارنته بالوعي الطبقي الذي حاول ماركس أن يكشف عنه للبروليتاريين في القرن التاسع عشر. لقد اختبرته في وجودي وأجسّد

خلاله حقيقة تاريخية من عصري، وما دمتُ عشتها بعمقٍ أكبر من اليهود الآخرين، فبوسعي أيضًا إلقاء المزيد من الضوء عليها. ذلك ليس لمكانتي وليس لأنني حكيم للغاية، لكن فقط بسبب فرصة القدر.

كان من المكن تحمّل كل شيء بسهولة أكبر لو لم تقتصر رابطتي مع اليهود الآخرين على تضامن الثورة، إذا لم تصطدم الضرورة باستمرار بالمستحيل. أنا أعرف ذلك جيدًا جدًّا: كنتُ جالسًا بجوار صديق يهودي في عرض لأرنولد شونبرغ «ناجٍ من وارشو» عندما رَدَّدَتِ الجَوْقةُ، مصحوبةً بأصوات أبواق، كلماتِ «Sch'ma Israel». أصبح صديقي أبيض كالطباشير وظهرت حبات العرق على جبينه. لم يكن قلبي ينبض بشكل أسرع، لكنني شعرتُ بأنني أحْوَجُ من رفيقي، الذي أثّرت فيه الصلاة اليهودية بقوة، إلى أن أغني مع تدفقات الأبواق. فكّرتُ مع نفسي بعد ذلك: ليس ممكنًا بالنسبة إليّ أن أكون يهوديًّا منفعلًا بعمق إلا في حالة خوف وغضب. عندما يحوّل الخوف نفسه إلى غضب من أجل نيل الكرامة. «أوه، اسمعي يا إسرائيل» ليس ما يشغلني. جملةٌ كـ«أوه، اسمع يا عالم» هي فقط التي تريد بغضب أن تنفصل من داخلي. الرقم المكوّن من ستة أرقام على ساعدي يتطلب ذلك. ذلك هو ما يتطلبه وعي الكارثة، القوة المهيمنة لوجودي.

غالبًا ما سألتُ نفسي عن إن كان ممكنًا للمرء أن يعيش بشكل إنساني في ظل التوتر بين الخوف والغضب. أولئك الذين تابعوا هذه المداولات قد ينظرون إلى كاتِبِهم على أنه وحش، إن لم يكن من الثأر، فعلى الأقل من المرارة. ربما يكون هناك أثر للحقيقة في مثل هذا الحكم، ولكنه أثرٌ فقط. كلّ مَن يحاول أن يكون يهوديًّا بطريقتي وفي ظل الشروط المفروضة

عليّ، ومَن يأمل، من خلال توضيح وجوده المحدّد في الهولوكوست، أن يجمع ويشكل داخل نفسه حقيقةَ ما يسمى بالمسألة اليهودية، فهو خالٍ من السذاجة تمامًا. لا تتدفق التصريحات الإنسانية الحلوة من شفتيه. إنه لا يجيد تلميحات الشهامة. لكن هذا لا يعني أن يحكم الخوف والغضب عليه بأن يكون أقل بِرًّا من معاصريه المُلهَمين أخلاقيًّا. إنه قادر على أن يكون لديه أصدقاء، وهو لديه، حتى بين أعضاء تلك الأمم الذين علّقوه إلى الأبد على خُطّاف التعذيب بين الخوف والغضب. بوسعه أيضًا أن يقرأ الكتب وأن يستمع إلى الموسيقى كما يفعل السالمون، وليس بشعور أقل منهم. وإذا كانت هناك مسائلُ أخلاقية، فمن المحتمل أن يبرهن على أنه أكثر حساسية من رفيقه الإنسان تُجاه الظلم من كل نوع. من المؤكد أنه سيتفاعل بشكل أكثر إثارة مع صورة لرجال شرطة جنوب إفريقيا ينهبون، أو عمداء أميركيين يجيّشون كلابًا عاوية على متظاهري الحقوق المدنية السود. إذا كان من الصعب عليّ أن أكون إنسانًا، فهذا لا يعني أني صرتُ وحشًا.

في النهاية، لا شيء آخر يميّزني من الناس الذين أقضي معهم أيامي سوى اضطراب غامض، أحيانًا أكثر، وأحيانًا أقل ملموسية. لكنه اضطراب *اجتماعي* وليس ميتافيزيقيًّا. ليس الوجود هو الذي يضطهدني، أو العدم، أو الله، أو غياب الله، بل المجتمع فقط. لأنه هو، وهو فقط، تسبب بالاضطراب في توازني الوجودي، والذي أحاول مواجهته بمشية منتصبة. فهو وحده، ووحده فحسب، الذي سلبني ثقتي بالعالم. الغم الميتافيزيقي قلقٌ عصري على أعلى مستوى. دَعِ الأمرَ يظلّ قضيةً بالنسبة إلى أولئك الذين يعرفون دائمًا من هم وماذا يكونون، ولماذا هم على هذا النحو، وأنه

سُمح لهم بالبقاء كذلك. يجب أن أترك الأمر لهم ـ وليس لهذا السبب أشعر بالحاجة في وجودهم.

أدركتُ في سعيي الدؤوب إلى استشكاف الشروط الأساسية لوجود الضحية، في مواجهة الإكراه واستحالة أن أكون يهوديًّا، أن أكثر التوقعات والمطالب المتطرفة المفروضة علينا ذات طبيعة مادية واجتماعية. أعرف أن مثل هذه المعرفة جعلتني غيرَ مؤهّلٍ للتكهنات العميقة والسامية. آمل أن يكون ذلك قد جعلني أكثر استعدادًا للاعتراف بالواقع.

انتهت الترجمة بتاريخ

20.8.2021

يعتبر جان أمري أحدَ الأصوات المهمة التي عاشت محنة الهولوكست وبعض معسكرات الاعتقال النازية ونجا منها. ولهذا تحمل كتاباته بصمة الألم الحيّة يرافقها سخط وغضب عميقين عن تلك الفظائع التي ارتُكبت في تلك المعسكرات، وتحوّل فيها الإنسان إلى ما يشبه، على حد تعبيره، الحشرة. وهو يجد في عبارة «ما حدث قد حدث»، التي تُكرَّر كثيرًا بتبرير أخلاقي على أسماع الضحايا، عبارة صحيحة «بقدر ما هي معادية تمامًا للأخلاق والعقل». فمن غير المنطقي، بالنسبة إليه، وبلا معنًى "المطالبة بالموضوعية في الجدل مع جلّادي، ومع أولئك الذين ساعدوهم، ومع أولئك الذين وقفوا مجرد صامتين". فالصمت تجاه الفظائع التي ترتكب بحق الإنسان تجعل من غير من الممكن الثقة بما يُطرح من مفاهيم مرة باسم الأخلاق، ومرةً أخرى باسم الفكر.

يناقش أمري قضية التسامح والمصالحة، وطبيعة وأسباب السخط الذي يعتري الضحية الناجية من الموت تجاه الجلاد، وهو يتذكر فظائع النازيين في معسكرات الاعتقال. ولذا رفض الدعوات التي تطالب بالتسامح، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك، ليطالب بأن يقف أولئك الذين ارتكبوا المجازر والفظائع ضد الإنسان أمام العدالة ويتلقوا جزاءهم.



ISBN 978-9-9226407-9-3
darairafidain
daralrafidain
daralrafidain دار الرافدين
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
Dar ALRafidain دار الرافدين